أباطيل التوراة والعهد القديم
(٢)

الله جل جلاله والأنبياء عليهم السلام

في التوراة والعهد القديم

(دراسة مقارنة)

تأليف
د. محمد علي البار

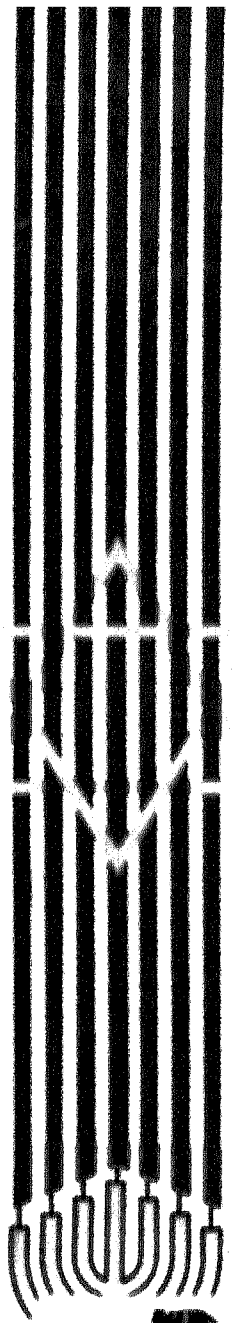

Bibliotheca Alexandrina
0135144

الدار الشامية
بيروت

الله جل جلاله والأنبياء عليهم السلام
في التوراة والعهد القديم

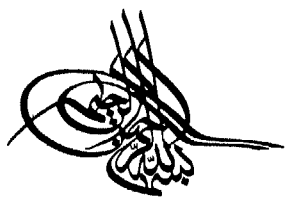

أباطيل التوراة والعهد القديم
(٢)

الله جل جلاله والأنبياء عليهم السلام
في التوراة والعهد القديم

(دراسة مقارنة)

تأليف
د. محمد علي البار

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

حقوق الطبع محفوظة

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص. ب : ١١٣/٦٥٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على حبيبه المجتبى وعباده الذين اصطفى، الذين وصفهم الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح، ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمٰن خروا سُجَّداً وبُكيّاً. فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيّاً﴾ [مريم ٥٨، ٥٩]. أولئك القوم الذين أمر الله سبحانه وتعالى نبيه وحبيبه وخيرته من خلقه أن يقتدي بهم: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ [الأنعام ٩٠].

وفي هذا الكتاب تعرضنا أولاً لصفات المولى سبحانه وتعالى كما وردت في التوراة والعهد القديم والتلمود، وما فيها من البهتان العظيم، إذ جعل أحبار اليهود الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله، جعلوا المولى سبحانه وتعالى في صورة بشر حقود سريع الغضب كثير الندم. شديد الحرص على أبنائه اليهود الذين زاغوا وعبدوا العجل والبعليم وعشتاروت وغيرها من الأرجاس. . «**وقال الرب لهوشع: اذهب أيضاً احبب امرأة، حبيبة صاحب وزانية، كمحبة الرب لبني إسرائيل وهم ملتفتون إلى آلهة أخرى ومحبون لأقراص الزبيب**» (سفر هوشع، الإصحاح الثالث).

وقال أيضاً أول ما كلم الربّ هوشع، قال لهوشع: «**اذهب خذ لنفسك امرأة زنى وأولاد زنى لأن الأرض قد زنت زنى تاركة الرب**». (سفر هوشع ١ : ٢).

ويزعمون أن هوشع ذهب فتزوج الزانية جومر وولدت له.. ثم يزعمون أن الرب (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً)، قال: «حاكموا أمكم (أي إسرائيل) لأنها ليست امرأتي وأنا لست رجلها، لكي تعزل زناها عن وجهها وفسقها من بين ثدييها. ليلاً أجردها عارية وأوقفها كيوم ولدتها وأجعلها كقفر.. ولا أرحم أولادها لأنهم أولاد زنى، لأن أمهم زنت، التي حبلت بهم صنعت خزياً، لأنها قالت: أذهبُ وراء محبّيّ الذين يعطونِ خبزي ومائي وصوفي وكتاني وزيتي وأشربتي.. لكن هائنذا أتملقها وأذهب إلى البرية وألاطفها وأعطيها كرومها من هناك.. وهي تغني هناك كأيام صباها وكيوم صعودها، ويكون في ذلك اليوم يقول الرب: إنك تدعينني رجلي ولا تدعينني بعلي (لأن الرب ينفر من كلمة البعل، وهو صنم كان يعبد في منطقة لبنان وفلسطين وعبدته إسرائيل فترة طويلة).. وأقطع لهم عهداً في ذلك اليوم وأخطبك لنفسي». (سفر هوشع ٢: ١٢).

وتصف التوراة المحرفة المولى سبحانه وتعالى بكل صفات اليهود الحقيرة المرذولة.. من الحقد واللؤم والخسة، وأنه يسير وراء حبيبته إسرائيل في البرية ويسكن معهم في خيمة الاجتماع ويجلس في التابوت الذي يسمّى «تابوت رب الجنود الجالس على الكروبيم». ويقاتل معهم الفلسطينيين ويحقق لهم الانتصارات.. ورغم ذلك استطاع الفلسطينيون أن يأسروا الرب!! وأخذوه معهم أسيراً في تابوته، ولكنه ضربهم بالفئران والبواسير، فاضطر الفلسطينيون أن يعيدوه إلى بني إسرائيل مع فدية خمسة فئران من ذهب وخمسة بواسير من ذهب!!

وقد أفضنا في هذه العقائد المرذولة في الفصل الأول من هذا الكتاب تحت عنوان «الله جل جلاله كما تصوره التوراة والتلمود»..

وتأتي أهمية دراسة هذه العقيدة اليهودية في الله سبحانه وتعالى من أنها توضح عقائد اليهود وسياسة بني إسرائيل الذين يعتقدون اعتقاداً جازماً أنهم أبناء الله وأحباؤه على الحقيقة والمجاز.. وأنه لم يخلق البشر إلا لخدمتهم ولعق أحذيتهم.. وأنه يجوز، بل يجب عليهم أن يبتزوا البشر على مختلف صنوفهم وأنهم هم وحدهم شعب الرب المقدس.. وإليه ينتسبون انتساب الدم وانتساب المودة والمحبة.

ثم استعرضنا بعد ذلك سير الأنبياء عليهم السلام كما وردت في أسفار التوراة والعهد القديم من آدم عليه السلام إلى حجي وصفنيا وزكريا وملاخي. وإذا كان اليهود قد صوروا المولى سبحانه وتعالى بصورة بشرية مقززة، فكيف يمكن أن نتخيل وقاحتهم وتصويرهم للأنبياء عليهم السلام؟ وقد لوثوا سيرة هولاء الأنبياء بصورة لا يكاد يصدقها عقل.. ووصفوهم بأقذع الصفات ونعتوهم بأشنع الأخلاق.. فهم كذبة فجرة قتلة زناة جبناء لصوص ديوثون... إلخ.

ولم يسلم من هذه الصفات المرذولة أنبياؤهم الذين يزعمون أنهم إليهم ينتسبون، ابتداء من إبراهيم وإسحاق عليهما السلام مروراً بيعقوب وبنيه (يوسف والأسباط) وموسى وهارون ويوشع بن نون وداود وسليمان، وانتهاء بالأنبياء المتأخرين من أمثال هوشع وأشعيا وأرميا وحزقيال وعوبديا ودانيال وميخا وناحوم وحجي وملاخي وزكريا وصفنيا..

وقد ذكرنا سيرة هؤلاء الأنبياء في التوراة والعهد القديم وقارنّا تلك الصورة القاتمة بالصورة المشرقة الوضيئة التي جاءت عنهم في القرآن الكريم وبعض ما ورد في السنة النبوية المطهرة.. «وبضدّها تتبين الأشياء».

وقد استعرضنا في الجزء الأول من هذا الكتاب «المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم» أسفار العهد القديم وتقسيماتها المختلفة عند اليهود والنصارى بفرقهم المختلفة.

ولم نتحدث عن أسفار الشعر والحكمة إلا باقتضاب، وذلك لأننا اضطررنا لاستعراضها في هذا الجزء. حيث ألحقنا مزامير داود عليه السلام بفصل يأتي مباشرة بعد الفصل الذي تحدثنا فيه عن داود. وكتبنا فصلاً عن أسفار الشعر والحكمة المنسوبة إلى سليمان عليه السلام، وهي: سفر حكمة سليمان وسفر الجامعة ونشيد الإنشاد.. وقد جعلنا هذا الفصل بعد الفصل الذي كتبناه عن سليمان عليه السلام..

وأوضحنا ما في هذه الأسفار من الحكمة وما فيها من الغثاء والكفر والزندقة والشعر الجنسي الفاضح.

ثم تحدثنا عن أيوب عليه السلام في القرآن الكريم، وعن أيوب كما جاء في

سفر أيوب، وهو من أسفار الشعر والأدب والحكمة.. وقد أوضحنا ما جاء في هذا السفر من كفر بالله وتحدٍّ له وصل إلى حد إنكار وجوده على لسان أيوب عليه السلام ــ حسب زعمهم ــ حيث يقول: «هأنذا أذهب شرقاً فليس هو هناك وغرباً فلا أشعر به، وشمالاً حيث عمله فلا أنظره، يتعطف الجنوب فلا أراه»:

لقد بحث أيوب ــ حسب زعمهم ــ عن الرب في الجهات الأربع فلم يجده..

ثم تحدثنا عن يونس عليه السلام (سفر يونان) كما ورد في القرآن الكريم وقارناه بالغثاء الموجود في العهد القديم.

وتحدثنا في الفصل الأخير عن الأنبياء المتأخرين ابتداء من إيليا (إلياس)، الذي ورد ذكره في القرآن الكريم، وانتهاء بملاخي وحبقوق وعوبديا وصفنيا وميخا وحجي، الذين لم يرد لهم ذكر لا في القرآن الكريم ولا في السُّنَّة المطهرة.

ويوضح هذا الكتاب عقائد اليهود الملتوية المعوجة وأنفسهم المريضة المليئة بالحقد على البشرية وغرورهم وعتوهم وتجبرهم وجبنهم وخستهم كما يوضح سياسة إسرائيل التي عليها قامت والتي عليها تسير.

ولا شك أننا إذا أردنا أن نواجه هؤلاء اليهود المتجمعين اليوم في دولة إسرائيل يجب أن نفهم عقائدهم وأساليبهم وطرقهم الملتوية.. كما أنه من المؤلم جداً أن نجد هؤلاء اليهود يسيطرون على الغرب سيطرة كاملة وخاصة الولايات المتحدة.. ويستخدمون في ذلك وسائل متعددة ليس أقلها أهمية أساطير التوراة والعهد القديم.

ففي الولايات المتحدة اليوم أكثر من أربعين مليون شخص يؤمنون إيماناً كاملاً بمجيء مسيح الرب (يسمونه الرب) حسبما بشّرت به أسفار العهد القديم وأنه لن يأتي إلا بعد هدم المسجد الأقصى وبناء هيكل سليمان على أنقاضه. ومن هؤلاء الرئيس السابق كارتر والرئيس ريجان اللذان يؤمنان إيماناً جازماً بأن الرب سيأتي إلى أورشليم وينزل إلى مسكن قدسه في جبل صهيون ويسكن في بيت الرب (الهيكل)، وتتمجد به كل الشعوب عبر تمجدها بلعق حذاء إسرائيل!! لأن إسرائيل هي شعب الله المختار.. الشعب المقدس الذي اختاره الله من بين البشر وأعطاه عهده الأبدي الدائم بأن يفترس جميع الشعوب وأن يأكل جميع الأمم وأن يبيد أول ما يبيد الفلسطينيين الذين أمر الربُّ

بقتلهم وطردهم من الأرض التي أنت ذاهب إليها يا إسرائيل. . والتي وعدها الربُّ إبراهيم وإسحاق ويعقوب. . وكرر ذلك العهد والأيمان المغلظة مئات المرّات وأكدها بغرلة الختان والدم!!

ونحن نؤمن بأن اليهود سيتجمعون في آخر الزمان، ﴿وإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً﴾. . وأن هؤلاء اليهود ستقوم لهم دولة. . وسيظهر فيهم المسيح الدجال الأعور الذي يدَّعي الربوبية. . وأن معظم شعوب الأرض ستخضع له لفترة وجيزة، ثم ينزل عيسى عليه السلام من المنارة الشرقية للجامع الأموي بدمشق والمسلمون يصفّون صفوفهم وإمامهم منهم. . وأن عيسى عليه السلام يصلي خلفه. . ثم يقوم بقتل المسيح الدجال عند باب لُدّ (مطار تل أبيب حالياً) ويقتل المسلمون اليهود حتى يقول الحجر والشجر: تعال يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي ورائي فاقتله، إلا الغرقد فإنه شجر يهود. .

وتكون المعركة العظمى عند نهر الأردن (نهر الشريعة) الذي يفصل ما بين الضفة الغربية التي ستمتلأ باليهود والضفة الشرقية التي عليها المسلمون. . وتتطهر الأرض يومئذ من يهود ورجس يهود ودنس يهود ومسيح اليهود الدجال الأعور الكذاب. . ويعمم الأرض السلام وتظهر الأرض بركتها وخيرها.

وقد أخبرنا بذلك كله الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ــ عليه أفضل الصلاة والسلام ــ وبوادر ما ذكره في الأفق. . وهاهم اليهود يأتون من كل حدب وصوب ليحتلوا أرض فلسطين ويطردوا منها أهلها. . وها هم يهود الاتحاد السوفييتي يقدمون بمئات الآلاف ليسكنوا الضفة الغربية من نهر الأردن ويطردوا منها ما بقي من أهلها وسكانها حتى تتم النبؤة وتبدأ تباشير الفجر الذي طال ظلامه واسودَّ حالكه وكثرت رزاياه.

﴿والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

د. محمد علي البار

الله جل جلاله كما تصوِّره التوراة التلمود

يصدم المرء حينما يقرأ التوراة الموجودة بين أيدي الناس اليوم، كما يصاب بالهلع والروع عندما يفاجأ بصفات الله سبحانه وتعالى في التلمود. . ولا شك أن أحبار اليهود عليهم لعائن الله قد حرّفوا التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام وجعلها هدى ونور. . . ﴿ويحرفون الكلم عن مواضعه﴾، ﴿يحرفون الكلم من بعد مواضعه﴾ ﴿فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾.

ولا شك لدينا أن يعقوب ـ إسرائيل ـ عليه السلام وبينه كانوا موحدين كما كان آباؤه من قبل. قال تعالى في القرآن الكريم على لسان يوسف عليه السلام:

﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (يوسف: ٣٧، ٣٨).

وقال تعالى:

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ (البقرة: ١٣٢، ١٣٣).

ولكنّ بني إسرائيل حرّفوا دينهم واتبعوا أهواءهم، وساروا وراء الضلالات،

وقلدوا الأمم السابقة، فعبدوا الأصنام والأوثان، فعاقبهم الله على ذلك عقوبات شديدة.. ونرى بني إسرائيل وقد أنقذهم الله من فرعون، يمرون على قوم يعبدون الأصنام، فيطلبون من موسى عليه السلام أن يجعل لهم آلهة كما لهؤلاء القوم.

قال تعالى:

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾. (الأعراف: ١٣٨).

وما كاد موسى عليه السلام يذهب للقاء ربه حتى عبد بنو إسرائيل العجل.

قال تعالى:

﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾. (الأعراف: ١٤٨).

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ ﴿١٥٠﴾﴾. (الأعراف: ١٥٠).

وقال تعالى في سورة طه:

﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾.

(طه: ٨٥ ـ ٩١).

ولقد برّأ الله هارون عليه السلام مما ألصقته به التوراة المحرفة من أنه هو الذي دعاهم لعبادة العجل وهو الذي صنعه لهم بيديه كما سنستعرضه في حينه.

وخلاصة القول أن إبراهيم عليه السلام وبنيه كانوا موحدين على أنقى صور التوحيد.. وأن بني إسرائيل كانوا في الأصل موحدين، ولكنهم تأثروا بالأمم من حولهم، فعبدوا الأوثان وصوروا الله سبحانه وتعالى بصورة بشر، سريع الغضب، كثير النسيان، يستيقظ وينام، ويحزن ويبكي، ويندم على أفعاله، ويخادع ويخاتل، وينشر الشر، ويحب الدماء جداً.. ولا يتنسم نسيم الرضا إلا عندما يشم اللحم المشوي الذي يغرم به كثيراً. فإذا قدم له أحدٌ المحرقاتِ واللحم المشوي أعطاه ما يريد من أموال وجعل الشعوب له عبيداً.. وهو ليس رب العالمين، بل رب شعب إسرائيل ابنه البكر.. وذلك لأنه قد أعطى العهد لإبراهيم وإسحاق ويعقوب مرات عديدة، لأنهم قدموا له لحماً مشوياً كثيراً من أحسن أنواع اللحم الذي يحبه. كما أن يعقوب صارعه طوال الليل حتى أخذ منه العهد له ولبنيه بالقوة، ولم يطلقه حتى أخذ منه العهد كما سنستعرضه بعد قليل.

لهذا السبب نجد أن كثيراً من الباحثين من اليهود والنصارى والملحدين ومن تابعهم من كتّاب المسلمين يقولون: إن اليهود لم يكونوا موحدين أصلاً.. وإن إبراهيم عليه السلام أسطورة لا وجود لها.. وإن قصة العهد مختلقة من أساسها.. ولم يكن هناك قوم معينون عبروا مصر فسموا العبريين.. وإنما هم قبائل شتى من جزيرة العرب وسوريا الكبرى، أصابها الجوع فعبرت النهر إلى مصر. وسميت تلك القبائل المختلفة العبرانيين لأنهم عبروا النهر.

ووصل الأمر ببعض هؤلاء الكتاب ومنهم فرويد اليهودي أن يذكر أن موسى لم يكن أصلاً من بني إسرائيل، وإنما هو من الفراعنة، وكان قائداً لجيش فرعون.. وأن كل ما تعلق بقصة موسى مختلق من أساسه.

وزعم بعض هؤلاء الكتاب أن عقيدة الله تطورت عند البشر من عبادة الأرواح والأشباح، إلى عبادة الطوطم، إلى عبادة الظواهر الكونية، مثل النجوم والشمس والقمر، إلى عبادة الأوثان، والآلهة الكثيرة المختلفة، مع الاعتراف بأن هناك رب

الأربـاب ـ زيوس عنـد الاغريق، جـوبتير عنـد الرومـان ـ إلى عبـادة إلـه واحـد للقبيلة والشعب. . .

وهذا ما وصل إليه بنو إسرائيل الذين عبـدوا الله ـ ألـوهيم أو يهـوا ـ وجعلوه إلهاً خاصاً لشعب بني إسـرائيل. . وهـو رب الأرباب الأخـرى التي يدخـل معها في صـراع ويدمرهـا. . وهو لا يهتم بـأن تعبد الشعـوب الأخرى آلهة أخرى، ولكنـه يهتم اهتمامـاً شديداً بأن يعبده أبناؤه وشعبه، شعب إسرائيل، ويغار غيرة شديدة عنـدما يتجهـون إلى غيره. . لأنه اصطفاهم وجعلهم أبناءَه وأحباءَه ولا يـريد أحـداً غيرهم أن يعبـده. . وهو لذا لا يريدهم أن يعبدوا غيره.

وهـذه الصور المختلقـة التي يـزعمهـا هؤلاء الكتـاب نـابعـة من اعتمـادهم على ما هو موجود اليوم من صحائف التوراة المحرفة، وتعاليم التلمود المغرضة. ولهذا وقـع هؤلاء الكتاب في هذا الخطأ. . وإذا كنا نجـد بعض العذر للكتـاب الغربيين الـذين لم يقرأوا القرآن ولم يؤمنوا به، فإننا لا نجد أي عذر للكتاب المسلمين الذين يفترض أنَّهم قرأوا القرآن الكريم وآمنوا به. . والذي فيه الأدلة القـاطعة على وجـود الأنبياء الكـرام، ابتداءً من أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام إلى خاتم الأنبيـاء محمد صلى الله عليـه وآله وسلم. . وأن أنبياء بني إسرائيل دعوا قـومهم إلى عبادة الله وحـده. . وأن بني إسرائيـل موحدون في الأصل وأنهم انحرفوا على فترات من الـزمن. . وأن منهم أقوامـاً صالحين عبدوا الله فأحسنوا العبادة وجاهدوا في الله حق جهـاده. . وأن ما بين أيـدينا من تعـاليم التوراة والتلمود هي من تخرصات أحبـار يهود وتحـريفـاتهم التي أضـافوهـا إلى التوراة الحقيقية، وأنهم طمسوا كثيراً من تعاليم الله، وأبدلوها بتعاليمهم، وجعلوا أنفسهم آلهة من دون الله ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ وشرّعـوا لأقوامهم وقـالوا لهم هذا حلال وهذا حرام ليأكلوا أموال الناس بالباطل.

نماذج مما ذكرته التوراة والتلمود من صفة الله سبحانه وتعالى:

قصـة خلق آدم على صـورة الله وشبهـه، وأن آدم من ذات الله ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ واليهود هم أبناء الله وجزء منه كما أن الابن جزء من والده.

جاء في سفر التكوين: الإصحاح الأول: «**وقال الله نعمل الإنسـان على صورتنـا**

كشبهنا . . . فخلق الله الإنسان على صورته . على صورة الله خلقه» .

وجعل الله آدم في الجنة وأمره أن لا يأكل من شجرة المعرفة . وعندما أكل آدم من هذه الشجرة بإغراء زوجته حواء التي أغرتها الحية، لم يعرف الرب أن آدم أكل من شجرة المعرفة إلا عندما اختبأ منه آدم . وكان الرب حسب زعمهم يتمشى في الجنة . «وسمعا صوت الرب الإلـه ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله وسط شجر الجنة . فنادى الرب الإلـه آدم وقال له : أين أنت؟ فقال : سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاختبأت . فقال : من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها؟ فقال آدم : المرأة التي جعلتها معي أعطتني من الشجرة فأكلت» (سفر التكوين ، الإصحاح ٣) .

وغضب الرب لذلك ولعن حواء والحية وآدم والأرض «ملعونة الأرض بسببك» . وخاف الرب جداً حسب زعمهم من معرفة آدم للخير والشر لذا قال : «وقال الرب الإلـه هوذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفٍ الخيرَ والشرَّ ـ كأن هناك آلهة كثيرة ـ . والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد . فأخرجه الربُّ الإلـه من جنة عدن ليعمل الأرض التي أُخذ منها . فطرد الإنسانَ وأقام ـ الرب ـ شرقي جنة عدن الكروبيين ـ الملائكة الكروبيين ـ ، ولهيبَ سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة» . (سفر التكوين ، الإصحاح ٣) .

ويعتقد اليهود أن آدم ابن الله ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ لأن الله خلقه من روحه . ويظنون أن ذلك معناه أن فيه جزءاً من ذات الله ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ كما يعتقدون أن الله خلق آدم على صورة الله ذاته كما سيأتي في قصة آدم . ويذكر التلمود أن آدم اتخذ خليلة من الشياطين اسمها ليليت وعاشرها لمدة ١٣٠ سنة فولدت له أبناء وبنات كثيرين كما أن حواء اتخذت لها مجموعة من الشياطين عشاقاً وولدت منهم أبناء وبنات . . ومع ذلك أنجبت حواء من آدم مجموعة من الأبناء والبنات . ولذا فإن أبناء آدم وحواء هم أبناء الله . أما أبناء الزنى من الشياطين فهم أبناء الناس . وقد جاء في الإصحاح السادس من سفر التكوين ما يلي :

و «حدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات . أن أبناء الله رأوا

أن بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساءً من كل ما اختاروا فقال الرب لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد. لزيغانه هو بشر. وتكون أيامه مئة وعشرين سنة، كان في الأرض طغاة في تلك الأيام. وبعد ذلك أيضاً إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً. هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم»[1].

وهكذا تزعم التوراة المحرفة (سفر التكوين، الإصحاح ٦): أن أبناء الله ـ تعالى الله عن ذلك ـ تزوجوا من بنات الناس فأنجبوا الطغاة والجبابرة.. وهي هي عقائد الطغاة في كل زمان ومكان بأنهم من نسل الإله.. هكذا زعم الفراعنة في مصر ونمرود في العراق.. وملوك الهند.. وأباطرة الصين واليابان..

وقد غضب الرب غضباً شديداً لاختلاط نسب أولاده بأنساب أبناء الناس وبناتهم فقرر أن يغرق الأرض ويحدث الطوفان ويهلك جميع من في الأرض من إنسان وطير وحيوان ما عدا نوح، لأنه وجد نعمة في عيني الرب.. وكان نوح من نسل آدم وحواء ولم يكن قد دخل نسبه شيء من بنات الناس ـ أي بنات حواء وآدم من زناهما مع الشياطين ـ **لهذا كله نجّى الله نوحا وزوجته وأولاده الثلاثة وزوجاتهم لأنهم من نسل الله... وتسير خرافات التوراة بعد ذلك لتطرد كنعان بن حام بن نوح وتجعل سلسلة نسب الإله في سام جد اليهود.. ولهذا فاليهود هم أبناءُ الله وأحباؤه. ولهذا جاء في**

---

(١) من الطريف أن نقرأ تعليق الترجمة الفرنسية المسكونية وترجمة أورشليم الفرنسية للكتاب المقدس كما تنقلها الرهبانية اليسوعية. الكتاب المقدس ـ كتب الشريعة الخمسة، دار المشرق ١٩٨٥م.

يقول التعليق: «يعود المؤلف ـ أي مؤلف سفر التكوين ـ إلى أسطورة شعبية عن الجبابرة، يقال إنهم وُلدوا من زواج بين كائنات بشرية وكائنات سماوية. وهو لا يبدي رأيه في قيمة هذا الاعتقاد، ويخفي وجهه الأسطوري!! فيقتصر على التذكير بهذا الجنس الوقح من الجبابرة، كمَثَل للفساد المتزايد الذي سوف يسبب الطوفان. أما اليهودية اللاحقة وجميع المؤلفين المسيحيين الأوّلين تقريباً رأوا في «بني الله» هؤلاء ملائكة مذنبين. لكن آباء الكنيسة، منذ القرن الرابع الميلادي، فسَّروا جميعهم «بني الله» ببني شيث. وبنات الناس بذرية قاين ـ قابيل ـ. اهـ.

وأما ما ذكره التلمود فيدل على أن بنات الناس هنَّ نسل حواء من الشياطين ونسل آدم من زناه بالشيطانة ليليت.. ويعتبرُ التلمود أولاد شيث أبناء الله، كما ذكرناه.

التلمود: «تتميز أرواح اليهود عن باقي الأرواح بأنها جزء من الله كما أن الابن جزء من والده.. وأن أرواح اليهود عزيزة عند الله لأن أرواح غير اليهود هي أرواح شيطانية.. والإسرائيلي معتبر عند الله أكثر من الملائكة.. وجاء في التوراة المحرفة: «هكذا يقول الرب.. إسرائيل ابني البكر». ويقول عن إسرائيل: «أنا اليوم خلقتك لتكون لي حبيباً محبباً مثل الابن لأبيه».. وجاء في التلمود الذي كتبه أحبار يهود: «إذا ضرب أممي إسرائيلياً فكأنما ضرب العزة الإلهية. والفرق بين درجة الإنسان والحيوان كالفرق بين اليهودي وباقي الشعوب. ولو لم يخلق اليهود لانعدمت البركة من الأرض، ولما خلقت الأمطار والشمس»..

لهذا قالوا نحن أبناءُ الله وأحباؤه.. وهم لا يقصدون فقط المحبة المعنوية والبنوة المعنوية كما قد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة، ولكنهم يقصدون أن أرواحهم جزء من ذات الله تعالى، لأنهم هم الممثلون لنسل آدم وحواء في نقائه. وبما أن آدم مخلوق على صورة الله وشبهه تماماً، وروحه جزء من روح الله وذاته، ـ تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ـ فإن اليهود هم أبناء الله الحقيقيون حساً ومعنى.

وجاء في سفر التثنية من التوراة المحرفة (الإصحاح السابع):

«سبع شعوب أكثر وأعظم منك ودفعهم الربُّ أمامك فإنك تحرّمهم ـ أي تبيدهم وتقتل النساء والأطفال مع الكبار ـ لا تقطع معهم عهداً ولا تشفق عليهم، لأنك شعب مقدس للرب إلهك. إياك قد اختار الرب لتكون له شعباً، أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض. مباركاً تكون فوق جميع الشعوب. وتأكل كل الشعوب الذين الربُّ إلهك يدفع إليك. لا تشفق عيناك عليهم»..

وجاء في سفر التثنية (الإصحاح ١٤):

«أنتم أولاد الرب إلهكم» وفي سفر صمويل الثاني (الإصحاح ١٣) «أنا أكون له أباً وهو يكون لي ابناً». ويقول داوود كما يزعمون: إن الرب قال له: «أنت ابني. أنا اليوم ولدتك اسألني فأعطيك الأمم ميراثاً، وأقاصي الأرض ملكاً» (المزمور الثاني).

وقال عن سليمان بعد أن عبد الأوثان حسب زعمهم «هو يبني بيتاً لاسمي وهو

يكـون لي ابناً وأنـا له أبـاً وأثبـت كرسي ملكـه على إسرائيـل إلى الأبد» (أخبـار الأيـام الأول ٢٢ : ١٠).

مما تقدم يتضح الآتي:

(١) أن الله قد خلق آدم على صورة الله وشبهه تماماً حسب زعمهم.

(٢) أن الله عنـدما نفـخ في آدم من روحه، جعـل فيه جـزءاً من ذاتـه. تعـالى الله عن ذلك.

(٣) أن آدم ابن الله على الحقيقة لا على المجاز.

(٤) أن هـذه البنوة بقيت في أولاد آدم من حـواء. أما أولاد آدم من زنـاه مع الشيـطانة ليليت وأولاد حـواء من زناهـا مع الشيـاطين فتسميهم التوراة بنـات النـاس وأبنـاء النـاس. وأن زواج أبناء آدم وحـواء ـ الذين تسميهم التـوراة أبنـاء الله ـ من بنـات الناس نتج عنه الجبابرة الذين هم منذ الدهر لهم اسم.

(٥) أن البنوة تسلسلت في نوح. وبما أن العالم كله قد غرق ولم يبق على الأرض إلا نوح وأولاده فإن البنوة بقيت في نوح وابنه سام. لأن حام نظر عورة أبيه فصـار هو ونسله ملاعين وخرجت منهم روح الله. وسكن الله في خيام سام.

(٦) تسلسـل البنـوة من سـام إلى إبـراهيم ومن إبـراهيم إلى إسحـاق إلى يعقـوب ـ إسرائيل ـ وبنيه.

(٧) أن الله حسب زعمهم لا يريد لـلإنسان أن يعـرف الخير والشـر، ويريـده أن يبقى جـاهلاً حتى لا ينـافسه. ويخـاف الله حسب زعمهم أن يأكـل الإنسان من شجـرة الخلد ـ شجـرة الحياة ـ فيحيـا الإنسـان إلى الأبـد. ولـذا يـطرد الله الإنسـان من الجنة، ويضع عليها حراسة مشددة حتى لا يدخل ويأكل من شجرة الحياة.

(٨) أن الله يجهل ما يحـدث، ولم يعرف أن آدم أكـل من شجرة المعـرفة إلا بعـد أن اختبأ آدم وأخبره بذلك.

(٩) أن الـرب يمشي ويقـوم وينـام ويصحـو ويعمـل ويتعب ويحتـاج للراحـة، حسب زعمهم.

(١٠) أن الرب حسب زعمهم لا يهتم إلا بإسرائيل ابنه البكر. . ولذا فقد وضع عهده معهم ليكون لهم رباً وليكونوا هم له أبناء. . وأن لا يعبدوا معه آلهة أخرى. وهو لا يهتم بالشعوب الأخرى التي تعبد آلهة أخرى بل يهتم ويحزن لأن شعبه وابنه البكر ذهب ليقدم القرابين لآلهة أخرى غريبة. ويستخدم كاتب العهد القديم أسلوباً بذيئاً حيث يصور الرب وكأنه قد تزوج إسرائيل التي ذهبت تزني وراء البعليم وعشتروت وملكوم ـ أوثان ـ وهو يغار عليها ويرجوها أن ترجع إليه كعهدها السابق.

جاء في سفر هوشع (الإصحاح ١ : ٢ ـ ٩):

«أول ما كلم الرب هوشع قال الرب لهوشع: اذهب خذ لنفسك امرأة زنى وأولاد زنى». هذا أمر غريب وعجيب حقاً أن يأمر الرب نبيّه هوشع بأن يأخذ لنفسه زانية وأولاد زنى. وبالفعل يزعم كتاب العهد القديم أن هوشع تزوج من زانية. ويستمر كلام الرب في هذا السفر معللاً هذا الأمر الغريب بأن الأرض قد زنت تاركة الرب. . والمقصود أن بني اسرائيل عبدوا آلهة أخرى وانتشر الزنى بينهم انتشاراً ذريعاً.

يقول كاتب سفر هوشع: «فذهب ـ أي هوشع ـ وأخذ جومر بنت دبلائم فحبلت وولدت له ابناً. فقال له الرب: ادع اسمه يزرعيل، لأنني بعد قليل أعاقب بيت ياهو على دم يزرعيل، وأبيد مملكة بيت إسرائيل. ويكون في ذلك اليوم أني أكسر قوس إسرائيل في وادي يزرعيل. . . لأنكم لستم شعبي وأنا لا أكون لكم». وسرعان ما يعود الرب ويناقض كلامه حسب زعمهم: **«لكن يكون عدد بني إسرائيل كرمل البحر الذي لا يكاد ولا يعدّ عوضاً عن أن يقال لهم لستم شعبي يقال لهم أبناء الله الحي. ويجمع بنو يهوذا وبنو إسرائيل معاً ويجعلون لأنفسهم رأساً واحداً ويصعدون من الأرض، لأن يوم يزرعيل عظيم!!»**ـ

وفي سفر هوشع (الإصحاح ٢ : ٢ ــ ٢١):

يقول الرب لهم: «حاكموا أمكم ـ أي إسرائيل ـ لأنها ليست امرأتي وأنا لست رجلها، لكي تعزل زناها عن وجهها وفسقها من بين ثدييها. ليلاً أجردها عريانة وأوقفها كيوم ولادتها وأجعلها كقفر. . **ولا أرحم أولادها لأنهم أولاد زنى. لأن أمهم زنت.**

التي حبلت بهم صنعت خزياً. لأنها قالت: أذهب وراء محبيّ الذين يعطون خبزي ومائي وصوفي وكتّاني وزيتي وأشربتي.. لكن هائنذا أتملقها وأذهب إلى البرية وألاطفها وأعطيها كرومها من هناك.. وهي تغنّي هناك كأيام صباها وكيوم صعودها من أرض مصر.. ويكون في ذلك اليوم يقول الرب: إنك تدعينني رجلي ولا تدعينني بعد بعلي» ينفر الرب حسب زعمهم من كلمة بعل لأن إسرائيل عبدت البعل ـ أحد الآلهة الموجودة في فلسطين آنذاك وفي منطقة لبنان ـ ولهذا فهو يكره كلمة البعل. ويريد من إسرائيل أن تكون زوجته وتقول له أنت رجلي.. ولا تزني من ورائه مع عشاق كثيرين وآلهة كثيرين ولهذا فهو يغار منها ومن زناها.. ورغم زناها مع من هبَّ ودبَّ إلا أنه لا يزال يحمل في قلبه لها الحب والود ويريدها أن ترجع له، وينزع أسماء البعليم ـ هو نفسه البعل ـ من فمها فلا تذكرها.. «وأقطع لهم عهداً في ذلك اليوم... وأخطبك لنفسي إلى الأبد وأخطبك لنفسي بالعدل والحق والإحسان والمراحم.. وأخطبك لنفسي بالأمانة فتعرفين الرب».

«وقال الرب لهوشع: اذهب أيضاً أحبب امرأة حبيبة صاحب وزانية، كمحبة الرب لبني إسرائيل وهم ملتفتون إلى آلهة أخرى ومحبون لأقراص الزبيب» (سفر هوشع: ٣).

وهكذا يصورون الرب ـ تعالى الله عن ذلك ـ أنه مغرم بفتاته إسرائيل ولهذا فهو يحبها رغم زناها ويدعوها إليه.. ويأمر هوشع نبيه أن يتزوج زانية وأن يخالل امرأة رجل آخر لأن هكذا فعل الرب!! ـ أعوذ بالله ـ فقد أحب الرب إسرائيل وهي تحب رجلاً آخر وتزني معه وتترك الرب إلـهها.

شعب إسرائيل هم أبناءُ الله وأحباؤه على الحقيقة وعلى المجاز.. ومحبته لإسرائيل أشد من محبة الرجل لزوجته وحبيبته.. وهو مغرم بها جداً رغم خيانتها وزناها وفجورها.. ويريدها أن ترجع إليه بأي ثمن، ومستعد أن يعطيها كل ما تريد.. فقط ترجع إلى أحضانه!!.

ورغم ما في ذلك الكلام من أسلوب بذيء ووقح، إلا أنه يعبر عما يعتبره كاتب العهد القديم الحقيقة الأزلية، وهي أن ألوهيم أو يهوا ـ الله ـ هو رب إسرائيل فقط

وحبيبها هي. ومهما فعلت إسرائيل من جرائم ومن عبادة الأوثان فهو لا يزال يجري ويلهث وراءها.. ويريدها أن تعود إليه كما كانت أيام خروجها من مصر، مع أن خروجها من مصر عبدت فيه الأوثان أيضاً.

الله يتعب ويرتاح ـ حسب زعمهم ـ :

جاء في سفر التكوين، الإصحاح الثاني: «**وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل. وبارك الله اليوم السابع وقدَّسه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً.** ولهذا فيوم السبت مقدس تجب فيه الراحة..

وهكذا تصور التوراة المحرفة أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يصاب بالتعب والنصب ويحتاج إلى الراحة. وقد نفى القرآن الكريم هذه الفرية.

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾. (ق: ٣٨).

الربّ يستيقظ وينام ويلعب كما تزعم التوراة والتلمود:

جاء في سفر زكريا من التوراة المحرفة (الإصحاح ٢: ١٠ ـ ١٣):

«ترنمي وافرحي يا بنت صهيون لأني هائنذا آتي وأسكن في وسطك يقول الرب. فيتصل أمم كثيرة بالرب في ذلك اليوم. ويكونون لي شعباً فأسكن في وسطك. فتعلمين أن رب الجنود قد أرسلني إليك. والرب يرثُ يهوذا نصيبه في الأرض المقدسة، ويختار أورشليم بعد. **اسكتوا يأكل البشر قدَّام الرب لأنه قد استيقظ من مسكن قدسه**».

رؤية الرب:

الرب في التوراة متجسد على هيئة بشر، ولذا يمكن رؤيته في الدنيا.

ويصف أشعيا الرب (سفر أشعيا ٦: ١ ـ ١١) بعد أن رآه قائلاً:

«في سنة وفاة عزيا الملك رأيتُ السيد الرب جالساً على كرسي عال مرتفع،

وأذيالاً تملأ الهيكل. السرافيم واقفون فوقه، لكل واحد ستة أجنحة، باثنين يغطي وجهه، وباثنين يغطي رجليه، وباثنين يطير. وهذا نادى ذاك وقال قدوس قدوس قدوس. رب الجنود مجده ملأ الأرض، فاهتزت أساسات العَتب من صوت الصارخ، وامتلأ البيت دخاناً. فقلت ويل لي!! إني هلكت لأني إنسان نَجس الشفتين، وأنا ساكن بين شعب نجس الشفتين، لأن عيني قد رأتا الملك رب الجنود. فطار إليّ واحد من السرافيم وبيده جمرة قد أخذها بملقط، ومَسَّ بها فمي. وقال إن هذه قد مست شفتيك فانتزع إثمك وكفّر عن خطيئتكَ».

وليس أشعيا وحده هو الذي رأى الرب. فآدم وابنه القاتل قايين ونوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ـ صارعه أيضاً ـ وكل الأنبياء، وموسى والسبعين من مشايخ إسرائيل، وأخت موسى مريم.

وجاء في سفر الخروج (٢٤ : ٩ ـ ١١):

«ثم صعد هارون وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل، ورأوا إله إسرائيل، وتحت رجليه منصة من العقيق الأزرق الشفاف، وكذات السماء في النقاوة. ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بني إسرائيل فرأوا الله وأكلوا وشربوا».

رؤية إليا ـ النبي الياس :

لقد رأى «إليا التشي» ـ إليا هو النبي ـ اللهَ حسب زعم سفر الملوك الأول بعد أن كلمه مراراً «وعندما هرب إليا من الملك الفاسق أخاب بن عمرى ملك يهوذا، ذهب إليا إلى المغارة فجاءه الرب وقال له: ما بالك هاهنا يا إيليا؟ فقال ـ إيليا ـ : إني ثرت ثورة للرب إلّه الجنود لأن بني إسرائيل قد نبذوا عهدك، وقوضوا مذابحك، وقتلوا أنبياءك بالسيف، وبقيت أنا وحدي، وقد طلبوا روحي ليأخذوها. فقال ـ الرب ـ : اخرج وقِفْ على الجبل أمام الرب، فإذا الرب عابر، وريح عظيمة عاتية تصدّع الجبال وتحطّم الصخور أمام الرب، ولم يكن الرب في الريح. وبعد الريح زلزلة، ولم يكن الرب في الزلزلة، وبعد الزلزلة نار، ولم يكن الرب في النار، وبعد النار حفيف نسيم لطيف، فلما سمع إيليا ستر وجهه بردائه وخرج ووقف بمدخل المغارة، فإذا بصوت يقول له: ما بالك يا إيليا؟ فقال: إني ثرت ثورة للرب إلّه الجنود وكرر عبارته السابقة. فقال له الرب: امضِ فارجع في طريقك نحو برية دمشق فإذا وصلت فامسح حزائيل ملكاً على

أرام، وامسح ياهو بن نمش ملكاً على إسرائيل، وامسح اليشع بن شافاط من آبل محولة نبياً، خليفة لك» (سفر الملوك الأول ١٩ : ٩ - ١٥).

الله يسير أمام بني اسرائيل ليلاً ونهاراً حتى يهديهم إلى الطريق في برية صين:

تزعم التوراة أن الله عندما غضب على بني إسرائيل لرفضهم دخول الأرض المقدسة التي كتب الله لهم، أتاهم في صحراء سينا (برية صين). ولكنه مع ذلك لم يتركهم لأنهم شعبه وابنه البكر الأثير لديه جداً مهما فعلوا. لذلك كان يسير أمامهم في الطريق ليلاً ونهاراً حتى لا يضلوا. ورغم هذا الجهد الجبار لم يستطع حسب زعمهم أن يدلهم على الطريق لمدة أربعين عاماً.

جاء في سفر الخروج (الإصحاح ١٣ : ٢٠ - ٢٠):

«وارتحلوا من سكوت ونزلوا في أيثام في طرف البرية. وكان الربُّ يسير أمامهم نهاراً في عمود سحاب ليهديهم في الطريق، وليلاً في عمود نار ليضيء لهم، لكي يمشوا نهاراً وليلاً. لم يبرح عمود السحاب نهاراً وعمود النار ليلاً من أمام الشعب».

موسى إله فرعون، وهارون نبي موسى:

جاء في سفر الخروج (٧ : ١ - ٣):

«فقال الرب لموسى انظر: أنا جعلتك إلهاً لفرعون!! وهارون أخوك يكون نبيّك أنت تتكلم بكل ما آمرك. وهارون أخوك يكلم فرعون ليطلق بني إسرائيل من أرضه، ولكني أقسّي قلب فرعون. وأكثّر آياتي وعجائبي في أرض مصر».

ولا بد أن كاتب التوراة كان يهذي فكيف يكون موسى إلهاً لفرعون! وهو الذي جاء لدعوة الناس إلى عبادة الله الواحد الأحد!؟ أفيكون مثل فرعون مدعي الألوهية؟! ويكون الذي يأمره بهذا الكفر الله ذاته؟! إن هذا لشيء عجاب!! ثم كيف يكون هارون نبياً لموسى؟ وإنما يمكن أن يكون هارون من أنبياء الله وقد كان كذلك بالفعل.

ولماذا يقسّي الربُّ قلبَ فرعون؟! فقط ليستعرض قوته وعجائبه وحاشا لله أن يفعل ذلك، إنما يأمر بالخير والبر.

وجاء أيضاً في سفر الخروج في أكثر من موضع، أن فرعون قال لموسى وهارون: «صليا لأجلي» (سفر الخروج ٨: ٢٥ ـ ٢٩، والخروج ٩: ٢٧). . وهكذا تزعم التوراة أن فرعون كان يريد الخير، ويريد من موسى وهارون أن يَدعُوَا له. . وكان حريصاً على الخير. . لكن الرب هو الذي قسّى قلبه!!

الرب يكتب اللوحين بأصبعه حسب زعمهم:

جاء في سفر الخروج (٣١: ١٨):

«ثم أعطى (الله) موسى عند فراغه من الكلام معه في جبل سينا لوحي الشهادة. . لوحي حجر مكتوبين بأصبع الله».

ومع هذا فقد كسّرهما موسى عندما غضب ورأى بني إسرائيل يعبدون العجل الذي صنعه لهم حسب زعمهم هارون عليه السلام: «وكان عندما اقترب ـ أي موسى ـ إلى المحلة أنه أبصر العجل والرقص. . . فغضب موسى وطرح اللوحين من يديه وكسّرهما أسفل الجبل». (سفر الخروج ٣٢: ١٦).

ولكن الربَّ صنع له لوحين آخرين كتبهما مرة أخرى بأصبعه:

«وفي ذلك الوقت قال لي الرب: أنحت لك لوحين من حجر مثل الأولين، وأصعد إلى الجبل فأكتبُ على اللوحين الكلمات التي كانت على اللوحين اللذين كسرتهما». (سفر التثنية ١٠: ١، ٢).

نزول الرب وكلامه:

يتكرر نزول الرب إلّه إسرائيل إلى الأرض مرات ومرات. ويمشي أحياناً أمام إسرائيل على هيئة عمود سحاب نهاراً وعمود نار ليلاً، ليدلهم على الطريق. . ويتكلم الرب مع أي إنسان يريد أن يؤذي إسرائيل ويهدده. . تكلم الرب مع لابان خال يعقوب، عندما هرب يعقوب سارقاً الأغنام وبنات لابان حسب زعمهم وهدده. وتكلم مع أبيمالك ومع فرعون، عندما أعطى إبراهيم زوجته سارة لهما لكي يكسب مالاً. وتكلم مع بلعام بن باعور الذي طلب منه ملك موآب أن يلعن بني إسرائيل: «فأتى الله إلى بلعام، وقال: من هم الرجال الذين عندكم؟ فقال بلعام: بالاق بن صفور ملك موآب قد أرسل إليّ يقول: هوذا الشعب الخارج من مصر قد غشى وجه الأرضَ.

الآن العن لي إياه، لعلّي أقدر أن أحاربه وأطرده. فقال الله لبلعام: لا تذهب معهم ولا تلعن هذا الشعب لأنه مبارك».

وتكلم الله أيضاً مع شيوخ بني إسرائيل بل وسمع كل بني إسرائيل كلامه ورأوه بأعينهم: «وأما السبعون فقد رأوه وهو واقف وتحت رجليه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة». (سفر الخروج ٢٤: ٩ - ١١).

ونزل الرب مئات المرات إلى خيمة الاجتماع.. وغضب الرب حسب زعمهم على هارون ومريم، شقيقا موسى، لأنهما تكلما على موسى بسبب زواجه من الكوشيه: «ونزل الرب في عمود سحاب، ووقف الرب في باب الخيمة ودعا هارون ومريم كلاهما وقال: اسمعا كلامي فلماذا لا تخشيان أن تتكلما على عبدي موسى، فحمي غضب الرب ومضى. فلما ارتفعت السحابة عن الخيمة إذا مريم برصاء مثل الثلج». (سفر العدد ١٢: ٤ - ١٠).

النبي أرميا يصف الله بالخداع - تعالى الله عن ذلك - :

يقول أرميا النبي للرب: «فقلت آه يا سيدي الرب. حقاً إنك خدَّاع خدعت هذا الشعب - يقصد شعب إسرائيل وأورشليم - قائلاً: يكون لكم سلام.. وقد بلغ السيف النفس» (سفر أرميا ٤: ١٠).

الرب يأمر أشعياء بأن يتعرى ويدعو بني إسرائيل وهو عاري لمدة ثلاث سنوات:

وأما أشعيا فقد أمره الله بأن يتعرى تماماً، ويمشي عارياً وحافياً ثلاث سنوات ليكون أعجوبة لله!! «تكلم الرب عن يد أشعياء بن آموض قائلاً: اذهب وحل المسح عن حقويك، واخلع حذاءك عن رجليك. ففعل هكذا ومشى معرّى وحافياً.

فقال الرب: كما مشى عبدي أشعيا معرى وحافياً ثلاث سنوات آية وأعجوبة». (سفر أشعياء ٢٠: ٢، ٣).

قصة جدعون مع الرب وامتحانه له:

أراد الرب أن يخلص بني إسرائيل فأرسل ملاكه إلى جدعون بن يواش ليقول

لـه: «الرب معـك يا جبار البأس». ولكن جـدعون لا يقتنـع بكلام المـلاك ويعتذر عن المهمـة ويقول بكـل وقاحـة: «إذا كان الـرب معنا فلمـاذا أصابتنـا كـل هـذه؟» يقصـد الهزائم.

ونـزل الرب بنفسـه وكلم جدعـون قائـلاً: «اذهب بقوتـك هذه. خلّص إسرائيل». ولكن جدعون أراد أن يتملص من هذه المهمة، وادعى أنه لا بد أن يتـأكد أن يخـاطب الـرب، فقال جـدعون: «إنـك أنت تكلمني لا تبرح من هنـا حتى آتي إليـك. وأخـرج تقدمتي وأضعها أمامك. ووافق الرب قائلاً: إني أبقى حتى ترجع».

وذهب جدعون وأتى بجدي معزى ودقيق حتى يتـأكد أن الـرب يتقبلهما.. لحم مشوي فأكل الرب وتنسم نسيم الرضا عنـد رائحة المشـوي!! وقال جـدعون بعـد ذلك كله ليمتحن الرب: «إن كنت تخلص بيدي إسـرائيل كمـا تكلمت فها إني واضـع جزّة الصوف في البيدر فإن كان طلٌّ على الجزة وحدها، وجفافٌ على الأرض كلها، علمت أنك تخلص بين يدي إسرائيل». ووافق الـرب على ذلك وفي الصبـاح كان الـطل على الجزة وعصر منها ملء قصعة من الماء وكانت الأرض جافة. ولم يكتف جدعون بذلـك وقـال للرب: «لا يحمَ غضبك عليَّ، فـأتكلم هذه المـرة فقط، أمتحن هذه المـرة فقط بالجزة. فليكم جفاف في الجزة وحدها، وعلى الأرض فليكن الطل».

وكأنما الرب خادم عند جدعون يفعل له ما يريد. وبالفعل تـزعم التوراة. (سفـر القضاة ٦: ٣٦ ـ ٤٠). أن الرب فعل حسبما أمر جدعون..

وهكـذا يرفض جـدعون أوامـر ملاك الـرب فيأتي الـرب إليه بنفسـه ويقف أمامـه ويكلمه. ولا يقتنع جدعون حتى يرى الرب وهو يتناول التقـدمة.. واقتنـع جدعـون أن الرب فعلاً يكلمه ولكنه لا بد أن يقتنع أن الـرب سيحارب معـه ويخلص إسرائيـل على يديه فيمتحن الرب امتحاناً وراء امتحان!! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وجاء في سفر صموئيل الثاني الإصحاح السادس: ١٢ ـ ١٦ من التوراة المحرفة أن داوود وجميع الشعب أخـذوا تـابـوت الله الــذي يسمى رب الجنـود الجــالس على الكروبيم. وجرّوا التابوت على عجلة والرب جالس في التـابوت وهـو يتفرج عليهم.

وداوود وكل شعب إسرائيل يرقص ويغني ويلعب بالرباب ويضرب بالدفوف والجنوك وينفخ في المزمار ابتهاجاً بالنصر على الأعداء.

وجاء في التلمود أن الله ينام في الليل ويعمل في النهار ويتدارس التوراة ويلعب مع الحوت ملك الأسماك. . وعندهم أن الله يقسم اليوم إلى اثنتي عشرة ساعةِ ليلٍ ينام فيها ويرتاح، واثنتي عشرة ساعةِ نهارٍ، ويقسمها كالتالي: في الثلاث ساعات الأولى يدرس التوراة مع أحبار اليهود، وفي الثلاث الثانية، يحكم العالم ويدبر شؤونه، وفي الثلاث الثالثة، يطعم العالم، وفي الرابعة، يلعب مع الحوت ملك الأسماك.

الرب يبكي ويلطم وجهه كما يزعمون:

ولكنه يغيّر البرنامج بعد أن شُرّدَ أبناؤه اليهود من فلسطين وخُربَ الهيكل. فيجعل الثلاثة ساعات الأخيرة من النهار ليبكي على تشريد أبنائه اليهود، فيصرخ ويزأر قائلاً: تَبّاً لي لأني صرّحتُ بخراب بيتي وإحراق هيكلي ونهب أولادي. وتسقط كل يوم منه دمعتان في البحر، فيُسمع دويهما من بدء العالم إلى منتهاه، وتضطرب المياه وترتجف الأرض في أغلب الأحيان فتحصل الزلازل.

وحينما يسمع الربّ أبناءه اليهود يمجدونه رغم كل ما فعله بهم، يبكي ويقول بعد أن يلطم وجهه: «طوبى لمن يمجّده الناس وهو مستحق لذلك. وويل للأب الذي يمجّده أبناؤه مع عدم استحقاقه لذلك، لأنه قضى عليهم بالتشريد والشقاء».

قصة الملك آخاب مع الرب:

(سفر الملوك الأول ٢١: ١ ـ ٢٩ و٢٢: ١ ـ ٤١):

كان آخاب ملكاً على إسرائيل. وكان أحد رعيته ـ ويدعى نابوت ـ يملك مزرعة كروم قريبة من القصر. فمر آخاب ذات يوم وهي محملة بالعناقيد، فأعجبته جداً. واستدعى نابوت اليزرعيلي ـ نسبة إلى قرية يزرعيل ـ وطلب أن يشتري منه المزرعة فرفض نابوت. واغتمَّ الملك آخاب. ورأته زوجته إيزابل وهو مكتئب وعرفت منه سبب اكتئابه، فقالت لزوجها: «أنت الآن تحكم إسرائيل. قم كل خبزاً وطب نفساً. أنا أعطيك كرم نابوت». ثم كتبت رسائل باسم آخاب وختمتها بختمه وأرسلت الرسائل

إلى شيوخ بني إسرائيل وأشرافهم تتّهم فيها نابوت بأنه جدّف على الله وعلى الملك، وأتت بشاهدي زور. . فأخرجوا نابوت من المدينة ورجموه حتى الموت. وقالت إيزابل لزوجها آخاب: «قم رث كرم نابوت اليزرعيلي الذي أبى أن يعطيك إياه بفضة، لأن نابوت ليس حياً، بل هو ميت». وقام آخاب وأخذ المزرعة واستولى عليها حسب قانون إسرائيل.

فغضب الرب لذلك وتكلم مع النبي إيليا التشّي، وأخبره بأن يكلم آخاب، ويقول له: «**هل قتلت وورثت أيضاً؟ في المكان الذي لحست فيه الكلاب دم نابوت، تلحس الكلاب دمك أنت أيضاً**». ولما سمع آخاب هذا التهديد الرعيب، قام وجعل مسحاً على جسده، وصام ومشى بسكوت، فظهر الربُّ للنبي إيليا وقال له: «هل رأيت كيف اتضع آخاب أمامي؟ **فمن أجل أنه اتضع أمامي لا أجلب الشرّ في أيامه، بل في أيام ابنه أجلب الشر على بيته**» (أمر في منتهى الغرابة. . ولنفرض أن الرب تراجع عن قراره بالانتقام لنابوت فما ذنب ابن آخاب؟! ولا تزر وازرة وزر أخرى. هذا مع العلم أن آخاب عبد الأوثان المختلفة وترك عبادة الرب).

وبقي آخاب في الحكم فترة أخرى، وفجأة تذكر الرب أن آخاب كان يعبد الأصنام وأنه قتل نابوت اليزراعيلي، فقرر أن ينتقم منه، رغم أنه كان قد أجلَّ موضوع الانتقام. واجتمع ملك يهوذا ـ واسمه يهوشافاط ـ بملك إسرائيل آخاب، وتبادلا الرأي في الهجوم على ملك أرام، واستنقاذ أرض راموت جلعاد. وكالمعتاد استشار الملكان المنجمين ويسمونهم أنبياء. . استشاروا أربعمائة نبي، وكلهم قالوا لهما: اصعدا إلى راموت جلعاد، وسيكون النصر لكما. ولكن الملك يهوشافاط لم يطمئن لنبوءة هؤلاء الأربعمائة، وقال: «أما يوجد هنا بعد نبي للرب فنسأل منه؟» فقال آخاب ملك إسرائيل: «نعم هناك نبي ولكني أبغضه لأنه دائماً يتنبأ بالشر» وهو ميخا بن يمله.

ودعوا ميخا فلما حضر إلى الملك، سأله الملك: أنصعد يا ميخا إلى راموت جلعاد أم نمتنع؟ فقال ميخا: «اصعد وافلح فيدفعها الرب ليد الملك». فقال له الملك: «كم مرة استحلفتك أن لا تقول لي إلا الحق باسم الرب». فقال ميخا: «رأيتُ كل إسرائيل مشتتين على الجبال كخراف لا راعي لها. فقال الرب: ليس لهؤلاء

أصحاب فليرجعوا كل واحد إلى بيته بسلام». فقال آخاب ـ ملك اسرائيل ـ لملك يهوذا ـ يهوشافاط ـ : «أما قلت لك: إنه لا يتنبأ عليّ بخير؟».

فقال النبي ميخا: «اسمع إذاً كلام الرب. قد رأيت الرب جالساً على كرسيه وكل جند السماء وقوف لديه عن يمينه وعن يساره. فقال الرب من يغوي آخاب فيصعد ويسقط من راموت جلعاد؟ فقال هذا هكذا، وقال ذاك هكذا. ثم خرج الروح ووقف أمام الرب. وقال أنا أغويه!! وقال له الرب: بماذا؟ فقال: أخرج وأكون روح كذب في أفواه جميع أنبيائه. فقال الرب: إنك تغويه وتقتدر. فأخرج وافعل هكذا» «وغضب الأنبياء الموجودون، وقام أحدهم وضرب ميخا على فكه، وقال من أين عبر روح الرب فيَّ ليكلمك؟! ـ أي كيف دخل في فمي وتكلم باسمي ـ فقال ميخا: إنك سترى في ذلك اليوم الذي تدخل فيه من مخدع إلى مخدع لتختبىء. فغضب الملك آخاب وأمر بسجن النبي ميخا، وقال ضعوه في السجن حتى آتي بسلام. فقال ميخا: إن رجعت بسلام فلم يتكلم الرب بي.

وصعد الملك آخاب ومعه الملك يهوشافاط إلى راموت جلعاد. وتنكّر آخاب حتى لا يعرفه ملك آرام... وأمر ملك آرام جيشه بأن لا يقاتل إلا ملك إسرائيل آخاب.. فلما هجموا صاح يهوشافاط بأنه ليس ملك إسرائيل فتركه الجنود. وجرح آخاب بسهم وانتصر جيش ملك آرام.. وعندما رجع آخاب إلى عاصمته السامرة مات الملك آخاب. وغسلت المركبة التي أصابها دم آخاب في بركة السامرة فلحست الكلاب دمه كما تكلم الرب».

هذه هي قصة آخاب كما رواها كاتب سفر الملوك الأول (الإصحاح ٢١ و٢٢)، وهي مليئة بالتناقضات.. ووصف المولى سبحانه وتعالى بما لا يليق. فهو أولاً يغضب على آخاب، لأنه قتل المزارع نابوت، وعبد الأصنام، ويقرر أن يميته.. ويرسل له النبي إيليا ليخبره بذلك، فيتواضع آخاب ويجعل مسحاً على جسده ويمشي بسكون.. فيرجع الرب عن قراره ويقول لإيليا «فمن أجل أنه اتضع أمامي لا أجلب الشر في أيامه. بل في أيام ابنه أجلب الشر على بيته». ثم يقوم الرب حسب زعمهم في اجتماع مع الملائكة ويسأل من يغوي آخاب؟ ويتقدم روح القدس ويقول: إنه هو الذي

سيغوي آخاب ويكون روح كذب في فم أنبياء آخاب. والغريب أن النبي ميخا يفضح خطة الرب، ويشرح لآخاب الخطة ومع هذا يذهب آخاب للحرب، ويصاب بسهم وتلحس الكلاب من دمه ويموت!!

الرب يصارع يعقوب حسب زعمهم:

جاء في التوراة المحرفة في سفر التكوين (الإصحاح ٣٢: ٢٣ ـ ٣٢):

«**فبقي يعقوب وحده، وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر. ولما رأى أنه لا يقدر عليه** ـ أي لا يقدر على يعقوب ـ **ضرب حُقَّ فخذه** ـ **أي فخذ يعقوب** ـ **فانخلع حُقَّ فخذ يعقوب في مصارعته معه. وقال الربُّ: أطلقني، لأنه قد طلع الفجر، فقال يعقوب: لا أطلقك إن لم تباركني، فقال له** ـ **الربُّ** ـ **: ما اسمك؟ فقال: يعقوب. فقال** ـ **الرب** ـ **: لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت** ـ أي صارعت ـ **مع الله والناس فقدرت.. وقال يعقوب: أخبرني باسمك؟ فقال الرب: لماذا تسأل عن اسمي؟ وباركه هناك. فدعا يعقوب اسم المكان فينئيل قائلاً: لأني نظرت الله وجهاً لوجه ونجيت نفسي**» ومعنى فينئيل: مكان الله ـ أئيل الله وفيني مكان ـ.

الرب يعترف بخطئه أمام كبير الأحبار كما يفترون:

جاء في التلمود أن خلافاً نشأ بين الله وبعض الأحبار حول بعض المسائل التي يتدارسها الله مع الأحبار في التوراة، ضمن برنامجه اليومي، وطال الجدل بين الله والأحبار، وأخيراً تقرر إحالة الخلاف إلى محكمة الأحبار العليا (السنهدرين) حيث حكم كبار الحاخامات بخطأ الله ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ وصواب موقف الأحبار. مما اضطر الرب إلى الاعتراف بخطئه أمام السنهدرين، وسحبِ جميع أقواله في هذه القضية والاعتذار عما بدر منه.

ألا لعنة الله على اليهود أبد الآبدين.

مسكن الرب:

يعتقد اليهود أن الرب أمر موسى وهارون ببناء خيمة الاجتماع، ليسكن فيها، ثم بعد ذلك أمر ببناء التابوت، ليكون مقره، وليكون على مقربة من أبنائه اليهود، يرعاهم ويدبر أمورهم، وينصرهم على أعدائهم، ويسمونه ربّ الجنود الجالس في التابوت.

ثم إن الفلسطينيين أخذوا التابوت وبقي معهم سبع سنين والرب مسجون عندهم ولكن الرب ضربهم بالبواسير، لهذا أعاد الفلسطينيون الرب وتابوته إلى بني اسرائيل مع بواسير من ذهب وثيران وعجول. . وعاد الرب في تابوته إلى بني إسرائيل. وكل من نظر إلى التابوت يموت. ثم قرر الرب أن يسكن في جبل صهيون في أورشليم. وأخيراً بنى له سليمان الهيكل العظيم، ليستقر فيه ويرتاح من التجوال في التابوت الذي كثيراً ما يأخذه الأعداء. . ولكن الهيكل نفسه تهدم وتحطم، وانتقل منه الرب إلى السماء، ولكنه يعاود زيارته لجبل صهيون. وسيعود مرة أخرى للسكن في الهيكل عندما يأتي المسيح ـ الدجال ـ ويسكن فيه إلى الأبد مع شعبه وحبيبه وابنه البكر إسرائيل، بعد أن يبيد كل الأمم التي تحارب ابنه وتعاديه.

الرب يندم ويحزن وينسى حسب زعمهم:

تصور التوراة المحرفة الرب سبحانه وتعالى بأنه شخص كثير الندم. «فعندما ابتدأ أبناء الله ـ أي أبناء آدم وحواء ـ يتزوجون بنات الناس ـ أي بنات آدم من زناه بالشيطانة ليليت وبنات حواء من زناها مع جمهرة من الشياطين كما يزعمون ـ غضب الربُّ جداً، لاختلاط الأنساب، وقرر أن روحه لا تبقى في الإنسان. كما قرر أن يبيد الأرض بمن عليها، وندم أنه عمل الإنسان خالقاً!!!!.

جاء في سفر التكوين (الإصحاح ٦):

«وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون في الأرض وولد لهم ولد، أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساءً من كل ما اختاروا فقال الرب لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد، لزيغانه هو بشر. . . ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض. وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير **فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسَّف في قلبه. فقال الرب: أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته**».

وبعد أن محا الحياة من على وجه الأرض. بالطوفان ما عدا نوح الذي كان من نسل أبناء الله وبنات الله!!! ولم يكن من نسل بنات الناس ندم الرب أيضاً: «وقال الرب في قلبه: لا أعود ألعنُ الأرض أيضاً من أجل الإنسان لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته. ولا أعود أيضاً أميت كل حي كما فعلت». (سفر التكوين، الإصحاح ٨: ٢٠ ـ ٢٢).

وحتى لا ينسى الله عهده مع نوح بألا يغرق الأرض مرة أخرى، تزعم التوراة المحرفة: أنه وضع قوسه في السحاب. فعندما يرى المطر هاطلاً، يضع قوس قزح، فيذكر أنه قد عقد عقداً مع نوح ألا يغرق الأرض فيكف المطر. «وقال الله: هذه علامة الميثاق الذي أنا واضعه بيني وبينكم وبين كل ذوات الأنفس الحية التي معكم إلى أجيال الدهر. وضعت قوسي في السحاب فتكون علامة ميثاق بيني وبين الأرض. فيكون متى أنشر سحاباً على الأرض، وتظهر القوس في السحاب، أني أذكر ميثاقي الذي بيني وبينكم.. فلا تكون أيضاً المياه طوفاناً.. فمتى كان القوس في السحاب أبصرها لأذكر ميثاقاً أبدياً بين الله وبين كل نفس حية في كل جسد على الأرض» (سفر التكوين الإصحاح ٩: ١٢ ـ ١٦).

وجاء في سفر الخروج (الإصحاح٣٢): «أن الرب غضب غضباً شديداً على بني إسرائيل عندما عبدوا العجل. وقال لموسى: «فالآن اتركني ليحمى غضبي عليهم، فأصيّرك شعباً عظيماً. فتضرع موسى أمام الرب إلهه. وقال له: **ارجع عن حُمُوّ غضبك واندم على الشر بشعبك**. اذكر إبراهيم وإسحاق وإسرائيل عبيدك الذين حلفت لهم بنفسك وقلتَ لهم: أُكثِّرُ نسلكم كنجوم السماء وأعطي نسلكم كل هذه الأرض التي تكلمت عنها فيملكونها إلى الأبد. **فندم الربُّ على الشرِّ الذي قال إنه يفعله بشعبه**». وفي سفر يونان ـ يونس ـ ٣: ٥ ـ ١٠ أن أهل نينوى نادوا بصوم لعل الله يندم عن حمو غضبه فلما رأى الله أعمالهم «**ندم الله على الشر الذي تكلم أن يصنعه بهم**».

وفي سفر العدد (الإصحاح ١٤): «**قال الرب لموسى: حتى متى يهينني هذا الشعب!!**.. حتى متى أغفر لهذه الجماعة الشريرة المتذمرة عليّ؟!. ولكن ما أن قدم له بنو إسرائيل اللحم المشوي الذي يحبه جداً حتى انبسطت أساريره، وعفا عن بني إسرائيل وأعطاهم كل طلباتهم، وندم على ما نوى أن يفعله بهم.. وكتب ميثاقاً جديداً ليعطيهم أرض كنعان».

ورغم أنهم يقررون أن الله قد ندم في مواضع كثيرة من التوراة المحرفة، يأتي كلام مهم في سفر العدد (الإصحاح ٢٣: ١٩) «**ليس الله إنساناً فيكذب ولا ابن إنسان فيندم. هل يقول ولا يفعل أو يتكلم ولا يفي**». وهو كلام يدل على أنه من بقايا التوراة

الحقيقية وسط هذا الركام الفظيع الذي وضعه أحبار بني إسرائيل حتى غطوا على هذه الجواهر المضيئة.

وعندما جعل الرب طالوت ـ شاول ـ ملكاً على بني إسرائيل، فعل شاول جميع الموبقات، وندم الرب أنه جعل شاول ملكاً.

جاء في سفر صموئيل الأول (الإصحاح ١٥: ١٠ ـ ١١):

وكان كلام الرب إلى صموئيل قائلاً: ندمت على أني قد جعلت شاول ملكاً، لأنه رجع من ورائي ولم يقم كلامي. فاغتاظ صموئيل وصرخ إلى الرب الليل كله»... «ولم يعد صموئيل لرؤية شاول إلى يوم موته لأن صموئيل ناح على شاول. والرب ندم لأنه مَلَّكَ شاول على إسرائيل».

وفي سفر صموئيل الثاني (الإصحاح ٢٤): أن الرب غضب على بني إسرائيل وجعل فيهم وباء فقتل سبعين ألف رجل. «وبسط الملاك يده على أورشليم ليهلكها فندم الربُّ عن الشر. وقال للملاك المهلك الشعب: كفى، الآن رويدك». (رقم ١٦)... «وتقدم داوود وقال للرب: ها أنا أخطأت وأنا أذنبت وأما هؤلاء الخراف فماذا فعلوا. فلتكن يدك عليّ وعلى بيت أبي» «وقام داوود وصنع اللحم المشوي الذي يحبه الرب جداً وحَسُنَ في عيني الرب ما فعل داوود وتنسَّم نسيم الرضا عن الشعب». (سفر صموئيل الثاني، الإصحاح ٢٤: ١٧ ـ ٢٤).

وندم الرب مرة أخرى عندما جعل سليمان ملكاً، لأن سليمان حسب زعمهم عبد آلهة كثيرة وصنع لها المعابد وقرَّب لها القرابين ولم يكن مخلصاً لله.

ويغيّر الرب كلامه كل خمس دقائق في سفر الملوك الأول (الإصحاح ٢١ و٢٢): «وقد غضب الرب على آخاب وأرسل الروح القدس ليضله، ولكن آخاب تواضع للرب فندم الرب على إغوائه آخاب. ثم عاد آخاب وغضب الرب على ابن آخاب بدلاً منه، وجعل الشر عليه بدلاً من أبيه... «وندم الرب على أنه فعل الشر بابن آخاب أيضاً»...

وفي سفر عاموس (٧: ١ ـ ٣): «نشر الله الجراد في أرض إسرائيل عقوبة لها فكلمه عاموس قائلاً: أيها السيد الرب أفصح كيف يقوم يعقوب ـ إسرائيل ـ فإنه صغير،

فندم الرب على هذا، وعندما غضب الرب على الملك حزقيا وقرر أن يميته، بكى حزقيا وقام وصلى، فندم الرب ورجع عن قراره وزاده خمسَ عشرة سنة من العمر. (سفر الملوك الثاني ٢٠ : ١ ـ ٦).

الرب يجلس في التابوت ويسكن وسط بني إسرائيل :

جاء في سفر الخروج (الإصحاح٢٠): «وكلم الرب موسى قائلاً: كلم بني إسرائيل أن يأخذوا لي تقدمة. . ذهب وفضة ونحاس واسمانجوني وأرجوان وقرمز وبوص وشعر معزى وجلود كباش محمرة وجلود بخس وخشب سنط وزيت للمنارة وأطياب لدهن المسحة وللبخور العطر وحجارة جزع وحجارة ترصيع للرداء والصدرة، فيصنعون لي مقدساً لأسكن في وسطهم. . . فيصنعون تابوتاً من خشب» ثم تفصيل طويل ممل لطول التابوت وعرضه وارتفاعه وسبكه بالذهب وكيفية صنع القوائم وكيفية فرشه حتى يكون لائقاً بمسكن الله رب الجنود. . . ويستمر وصف التابوت والمذبح والمسكن والخيمة على مدار الإصحاح ٢٥ و٢٦ و٢٧ و٢٨ و٢٩ و٣٠ بطريقة مملة ومزعجة جداً. . ويكون الكهنة من بيت هارون أبد الدهر. . ولكن هارون عليه السلام يكذبون عليه كما سيأتي ويقولون: إنه هو الذي صنع لهم العجل ليعبدوه. . وإنه سخر من موسى، وآنه عرى موسى ليهزأ الشعب بموسى. . وغضب الرب على هارون فعزله من وظيفة الكهانة الكبرى وعيّن بدلاً منه ابنه أليعازر. . ومات هارون في البرية مغضوباً عليه من الرب. كما مات بعد ذلك موسى مغضوباً عليه من الرب كما يدعّون.

وفي سفر صموئيل الثاني (الإصحاح ٦ : ١٢ ـ ١٦): جاء أن داود وجميع الشعب أخذوا تابوت الله الذي يسمى رب الجنود الجالس على الكروبيم، وجروا التابوت على عجلة والرب جالس في التابوت يتفرج عليهم، وهم يرقصون فرحاً بعودته من الأسر ـ لعنة الله على اليهود ـ من عند الفلسطينيين بعد أن ضربهم الرب بالبواسير. وكان الرب جالساً في التابوت طوال الوقت. وداوود وكل الشعب يرقص ويغني ويلعب بالرباب، وينفخ بالمزمار، ويضرب بالدفوف والجنوك، ابتهاجاً بالنصر وبعودة رب الجنود الجالس على الكروبيم داخل التابوت من الأسر.

اختلاط مفهوم ملاك الرب والرب:

كثيراً ما يختلط على كاتب الأسفار في العهد القديم موضوع ملاك الرب بالرب ذاته. فتراه تارة يتحدث عن الملاك، ثم فجأة يصبح الملاك هو الرب ذاته. فقد جاء في سفر التكوين الإصحاح ١٨ ما يلي حكاية عن إبراهيم عليه السلام:

«وظهر له الرب عند بلوطات ممرا، وهو جالس في باب الخيمة وقت حر النهار، فرفع عينيه ونظر وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه. فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض وطلب منهم أن يدخلوا عنده ويسندون قلوبهم بوجبة سمينة، فدخلوا وأكلوا من العجل والسمين والخبز.. «ثم قام الرجال من هناك وتطلعوا نحو سدوم. وكان إبراهيم ماشياً معهم، فقال الرب: هل أخفي عن إبراهيم ما أنا فاعله» ثم كلم إبراهيم بما نوى أن يفعله بأهل سدوم وعموره وقال الرب إن صراخ سدوم وعموره قد كثر، وخطيئتهم قد عظمت جداً. أنزل وأرى هل فعلوا بالتمام حسب صراخها الآتي إليّ وإلا فأعلم. وانصرف الرجال من هناك وذهبوا نحو سدوم. وأما إبراهيم فكان لم يزل قائماً أمام الرب».. ويتكرر ذلك الخلط بين الرب وملاك الرب في قصة هاجر فتارة تسميه ملاك الرب وتارة الرب. وفي قصة شمسون تكلم ملاك الرب مع أم شمسون، ثم ذكر أن الذي تكلم هو الرب ذاته... ويتكرر هذا الخلط في مواضع كثيرة جداً من التوراة.

الرب يطلب من بني إسرائيل أن يضعوا علامة الدم على بيوتهم حتى يعرفهم:

جاء في سفر الخروج (الإصحاح ١١):

«وقال موسى هكذا يقول الرب: إني نحو نصف الليل أخرج في وسط مصر، فيموت كل بكر في أرض مصر من بكر فرعون الجالس على كرسيه، إلى بكر الجارية التي خلف الرحا وبكر كل بهيمة. ويكون صراخ عظيم في أرض مصر لم يكن مثله ولا يكون مثله. ولكن جميع بني إسرائيل لا يسنن كلب لسانه إليهم لا إلى الناس ولا إلى البهائم».. وطلب منهم أن يضعوا علامة على بيوتهم دماً حتى عندما يمر الرب وسط بيوتهم فيعرفها بعلامة الدم فلا يهلكها.. وإلا فإنه سيقع في الخطأ حسب زعمهم ولن يعرفها. (أيضاً سفر الخروج: ١٢).

الرب يطلب من بني إسرائيل سرقة المصريين حسب زعمهم:

قال الرب لموسى: تكلم في مسامع الشعب أن يطلب كل رجل من صاحبه وكل امرأة من صاحبتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب. وأعطى الربُّ نعمة للشعب في عيون المصريين. وأيضاً الرجل موسى كان عظيماً جداً في أرض مصر في عيون عبيد فرعون وعيون الشعب (سفر الخروج، الإصحاح ١١).

وتمكن بنو إسرائيل بهذا أن يسرقوا أموال المصريين. وفعل بنو إسرائيل بحسب قول موسى. «طلبوا من المصريين أمتعةً فضةً وأمتعةً ذهباً وثياباً. وأعطى الربُّ نعمةً للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم فسلبوا المصريين». (سفر الخروج، الإصحاح ١٢: ٢٥ ـ ٢٦).

وتزعم التوراة والتلمود أن الله أمرهم بسرقة الأجانب، لأن روح الأجنبي ملك لليهودي، فكيف بماله. (سفر التثنية ٢٣: ١٩، ٢٠).

كما جاء في التوراة المحرفة (سفر التثنية ٢٣: ١٩، ٢٠) أن الرب أمرهم بأن يقرضوا الأجنبي بالربا.. وفي التلمود أوامر مشددة بأن يضعفوا الربا على الأجانب حتى يستلبوا أموالهم.. وعليهم أن يغشوا وأن يسرقوا الأجانب ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. وقد أوردنا جانباً وافراً من تلك التعاليم الشوهاء في كتابنا «المسيح المنتظر وتعاليم التلمود» فليرجع إليها القارىء الكريم، وإلى غيرها من الكتب التي تعرضت للتلمود وتعاليمه مثل: الكنز المرصود في تعاليم التلمود للدكتور يوسف نصر الله. وكتاب: التلمود تاريخه وتعاليمه لظفر الإسلام خان، وكتاب إسرائيل والتلمود لإبراهيم خليل أحمد.

زوجة موسى تخدع الرب كما يزعم سفر الخروج:

تصور التوراة المحرفة بأن صفورة امرأة موسى استطاعت أن تخدع الرب، وتزعم التوراة المحرفة أن الرب قد غضب على موسى غضباً شديداً، لأن موسى مثل بقية بني إسرائيل كان جباناً ورفض أمر الرب بالذهاب إلى فرعون خوفاً وفرقاً منه.. وأعلن الرب أنه سينزل ليقتل ابن موسى البكر لأن موسى رفض أن ينقذ ابن الله البكر من يد فرعون ـ لعنة الله أبد الدهر على هؤلاء اليهود ـ. ونزل الرب حسب زعمهم إلى الطريق وأخذ

يبحث عن ابن موسى البكر ليقتله. وكان ابن موسى طفلاً صغيراً يلعب في حواري مصر وأزقتها.. وهجم الرب الإله على الطفل الصغير ليقتله ولكن صفورة زوجة موسى كانت أسرع منه وأخذت الولد بسرعة. وبما أنها تعرف أن الرب يريد قتل ابنها فإنها احتالت عليه، وقطعت غُرْلَةَ الصبي بسكين كانت معها، وأخذت الدم ومست رجلي الرب بهذا الدم، وصاحت صفورة: «إنك عريس دم لي. فانفك الرب عن الصبي. حينئذ قالت صفورة: «عريس دم من أجل الختان». (انظر القصة كاملة في سفر الخروج، الإصحاح ٤: ٢٢ ـ ٢٦).

موسى يخاصم الرب حسب زعمهم:

جاء في سفر الخروج أن موسى قال لربه: «يا سيد لماذا أسأت إلى هذا الشعب ـ أي بني إسرائيل ـ لماذا أرسلتني؟ فإنه منذ دخلت إلى فرعون لأتكلم باسمك أساء ـ فرعون ـ إلى هذا الشعب. وأنت لم تخلص شعبك» (سفر الخروج، الإصحاح ٥: ٢٢ ـ ٢٣).

الرب يخشى من تجمع البشر ووحدتهم حسب افترائهم:

وقد جاء في سفر التكوين إن الرب الإله خشي على مملكته من الزوال وحكمه من الانهيار، عندما رأى البشر متحدين متحابين، يبنون مدينة كبيرة وبرجها في السماء. فدعا ملائكته ونزل وحطَّم مدينتهم، وبلبل ألسنتهم وفرقهم في الأرض، حتى لا ينافسوه في ملكه وملكوته. ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ

وإليك نص ما جاء في سفر التكوين (الإصحاح ١١: ١ ـ ٩):

«وكانت الأرض كلها لساناً واحداً ولغةً واحدةً. وحدث في ارتحالهم شرقاً أنهم وجدوا بقعة في أرض شنعار وسكنوا هناك. وقال بعضهم لبعض هلم نصنع لبناً ونشويه شيّاً فكان لهم اللبن مكان الحجر، وكان لهم الحُمَرُ مكان الطين. وقالوا هلمَّ نبني لأنفسنا مدينة وبرجاً رأسه بالسماء. ونصنع لأنفسنا اسماً لئلا نتبدد على وجه كل الأرض. فنزل الربُّ لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما. وقال الربُّ: هوذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم. وهذا ابتداؤهم بالعمل، والآن لا يمتنع

عليهم كل ما ينـوون أن يعملوه. هلمَّ ننزل ونبلبـل هناك لسـانهم حتى لا يسمع بعضهم بعضاً. فبدّدهم الرب من هناك على وجه كل الأرض، فكفوا عن بنيان المدينة. لـذلك دُعي اسمها بابل لأن الربَّ هناك بلبل لسان كل الأرض. ومن هناك بدَّدهم الـربُّ على وجه كل الأرض».

وهكـذا تصور التـوراة المحرفـة المولى سبحـانه وتعـالى وهو يخشى من معـرفـة الإنسان فيطرد آدم من الجنة لأنه أكل من شجرة المعـرفة.. ويـطرد البشر من مـدينتهم التي اجتمعـوا فيهـا متحـابين متـآخين لهم لســان واحـد.. لأن الــرب حسب زعمهم لا يستطيع أن ينتظر حتى يبنوا مدينتهم وينافسوه في ملكوته.. وكأنما هو مستعمر أوربي يسـيـر على سياسـة فرّق تسـد. ففرق البشـر حتى يحكم قبضته عليهم.. وهـو تصور مسفٌّ بـل موغـل في الإسفاف والحقـارة.. وهو يـوضح تمـاماً سيـاسة يهـود وسيـاسـة الأوربيين نحو غيرهم من الشعوب التي اقتبسوها من تعاليم العهد القديم..

الرب يعشق المحارق واللحم المشوي حسب زعمهم:

تـرسم التوراة المحـرفة للرب الإلـه صورة كـريهـة جـداً. فهـو رب يحب اللحم المشـوي جـداً. ومستعـد أن يتنـازل عن كـل شيء في سبيـل وجبـة دسمـة من اللحم المشوي تقدم له كقربان.. والتوراة من أولها لآخرها تذكر القرابين المشوية. ولا يكـاد إصحـاح واحـد يخلو من ذكـر هـذه القـرابين، ومن اللحم المشـوي. وفي الإصحـاح الواحد عشرات المرات، في بعض الأحيان لدرجـة تسبب الغثيان وضيق النفس والـربو من كثرة دخان اللحم المشوي.

ولا نرى الأنبياء من لـدن آدم إلى آخر أنبيـاء بني إسرائيـل يعبدون الله أو يـدعون النـاس إلى عبادة الإلـه الـواحد الأحـد.. ولا نـراهم يـأمـرون بمعـروف أو ينهـون عن منكـر.. بل نجـدهم هم والكهنـة مشغـولـون جـداً بقضيـة اللحم المشـوي، والـذين يحصلون بموجبه على جميـع طلباتهم، بمجرد أن يتنسـم الــرب رائـحـة المشـوي، تنبسط أسـاريره، ويفعـل لهم ما يشـاءون: تعذيب الأمم الأُخـرى. قتلها.. حـرقهـا، يـدخل المعـارك معهم في وسطهم داخـل التابـوت، ويقـاتـل معهم، يعـطيهم أراضي الغير.. يجعل الكل عبيداً لهم. ولا يهم بعد ذلك إن عبدوا الأوثان أو سرقوا الأمـوال،

كما لا يهم أن يكون اللحم المشوي من عجول وأغنام مسروقة، كما يزعمون أن يعقوب سرق أغنام خاله وقدم اللحم المشوي للرب فتنسم الرب نسيم الرضا بعد أن امتلأت خياشيمه بدخان المشوي.. وأعطى يعقوب العهد له ولأولاده، وأعطاهم أرض فلسطين.. وأعطاهم الأرض حولها من النيل إلى الفرات.. إلخ.

ويبدأ مسلسل اللحم المشوي بأن هابيل قرب لحماً سميناً، بينما قدم أخوه قابيل شيئاً قليلاً من ثمار الأرض «فنظر الرب إلى هابيل وقربانه، ولكن إلى قابين وقربانه لم ينظر. فاغتاظ قابين جداً» (سفر التكوين الإصحاح ٤ : ٣ ـ ٦).. وأدى ذلك إلى أن يقوم قابيل بقتل أخيه وارتكاب أول جريمة على الأرض..

والمنظر الثاني يأتي بعد أن أغرق الله الأرض بالطوفان.. وما تكاد السفينة تستقر على جبل أراراط حتى يخرج نوح ويقدم قرباناً للرب: «وبنى نوح مذبحاً للرب. وأخذ من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة **وأصعد محرقات على المذبح. فتنسَّم الربُّ رائحة الرضا. وقال الرب في قلبه لا أعود ألعن الأرض أيضاً من أجل الإنسان**» (سفر التكوين، الإصحاح ٨ : ٢٠ ـ ٢٢).

ويظهر إبراهيم عليه السلام فلا نراه يدعو إلى الله، وإلى توحيده، ولا ينكر على قومه ما هم فيه من عبادة الأوثان، ولا ترد قصته مع النمرود ولا مجادلته له، ولا قصته مع أبيه. **بل كل ما يرد أن إبراهيم يقدم محرقات للرب فيتنسم الرب رائحة اللحم المشوي «فيقول الرب لإبرام: اذهب من أرضك وعشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك. فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظّم اسمك»** (سفر التكوين، الإصحاح ١٢).. وبعد رحلات طويلة يعود إبراهيم من مصر وقد ملك أموالاً ضخمة من الذهب والفضة والأغنام التي أعطاها له فرعون مصر عندما قدم إبراهيم زوجته سارة ليتزوجها فرعون حسب زعمهم.

وقدم إبراهيم اللحم المشوي مرة أخرى. «في ذلك اليوم قطع الربُّ مع إبرام ميثاقاً قائلاً: لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات. القينيين والقنزيين والقدمونيين والحثيين والفرزيين والرفائيين والأموريين والجرجاشيين واليبوسيين». (سفر التكوين، الإصحاح ١٥ : ١٨ ـ ٢٠).

دم الختان :

«وقال الله لإبراهيم وأما أنت فتحفظ عهدي. أنت ونسلك من بعدك في أجيالهم. هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك. يختن منكم كل ذكر. فتختنون في لحم غرلتكم فيكون علامة عهد بيني وبينكم. ابن ثمانية أيام يختن منكم كل ذكر في أجيالكم» (سفر التكوين، الإصحاح ١٧ : ٩ ـ ١٢) «وأما الذكر الأغلف الذي لا يُختن في لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها أنه قد نكث عهدي».

المهم رائحة المشوي ودم الغرلة.. ولا يهم بعد ذلك أن يقتل أو يسرق أو يزني أو أن يعبد الأوثان.. علامة العهد دم الغرلة.. وعلامة الرضا اللحم المشوي..

ويتكرر منظر اللحم المشوي ويقدّم إبراهيم حسب زعمهم قرباناً وراء قربان للحصول على مزيد من المنافع الدنيوية، حتى إنه قرر أن يقدم ابنه إسحاق قرباناً. وسُرَّ الرب جداً بهذا القربان، وأنزل كبشاً بدلاً منه ليذبح ويشوى.. وقطع الرب مزيداً من العهود لإبراهيم، بأنه سيعطيه أرض الكنعانيين وجميع الأراضي حولها من النيل إلى الفرات.. ستكون جميع هذه الأراضي لنسله أبد الآبدين!!

وقام إسحاق بالدور ذاته، وقدم المحرقات وحصل على مزيد من العهود والمواثيق. وأما يعقوب فقد قدم اللحم المشوي عدة مرات، من الغنم الكثيرة التي سرقها من خاله لابان. جاء في سفر التكوين الإصحاح ٢١ : «وأما لابان فكان قد مضى ليجزَّ غنمه. فسرقت راحيل أصنام أبيها. وخدع يعقوبُ قلبَ لابان الأرامي. إذ لم يخبره أنه هارب، فهرب هو وكل ما كان له. وقام وعبر النهر وجعل وجهه نحو جبل جلعاد».. وما أن علم لابان بهروب يعقوب مع ابنتيه والغنم الذي سرقه يعقوب وتماثيل الذهب، فلحق به لابان ولكن الرب إله يعقوب وإسحاق وإبراهيم كلَّم لابان في الليل قائلاً: «احترز من أن تكلم يعقوب بخير أو شر.. ولكن لماذا سرقت آلهتي؟» وحلف يعقوب أنه لم يسرق هذه الآلهة لأن زوجته راحيل هي التي سرقت الآلهة المصنوعة من الذهب».. وقال يعقوب: «إله إبراهيم وآلهة ناحور آلهة أبيهما يقضون بيننا. وحلف يعقوب بهيبة أبيه إسحاق. وذبح يعقوب ذبيحة من الجبل» وهكذا يبدو يعقوب وهو يقسم بمجموعة من الآلهة مع إله أبيه.

ومن الـواضح جـداً أن الله حسب زعم التوراة يحب شيئين اثنين حبـاً جمـاً. . . وهما اللحم المشوي والـدم. . ويجعل عهـده مع إبـراهيم دم الختان. . وتنقـذ صفورة زوجـة موسى ابنهـا من يدي الـرب بأن تقـطع غرلـة الصبي وتمسـح رجلي الإلـه بـدم الختـان، وتقول لـه: عريس دم من أجـل الختان، فينفـك عن الصبي قـائـلاً: عـريس دم. . . ويطلب الرب من بني إسرائيل أن يضعوا الدم علامة على بيـوتهم حتى يعرفهـا عندما يمر في الليل ويهلك كل بكر من المصـريين ودوابهم، من بكر فـرعون إلى بكـر الجارية التي خلف الرحا. . . وتتطور عقيدة الدم هذه في تعـاليم التلمود، حتى تصبـح عقيدة راسخة يقتلون فيها في كل سنة إنساناً غير يهودي، ويستحسن أن يكون نصرانياً. ويستخدمون دمه لصناعة الفطير المقدس الذي يحبه الرب جداً والـذي يأكـل منه كبـار الأحبار والكهنة.

وتقول دائرة المعارف اليهودية: «إن كان هنـاك من أساس أقـرَّ من قبل الحكمـاء اليهود، فهو حقيقة القرابين البشرية التي تقدم للإلـه يهوه ملك اليهود، والتي بـوشر في تقديمها في أواخر عهد الملكية اليهودية» أي بعد عصر سليمان عليه السلام.

ومما تقدم نخلص إلى أن صفـات الله سبحـانـه وتعـالى في التـوراة والتلمـود، لا يمكن أن تكون صفات لله خـالق الأكوان ومـدبرهـا. . بل لا يمكن أن تكـون إلا من صفات أراذل البشر.

هـذا قليل من كثيـر من هذه الافتـراءات والغثاء والكـذب والتجـديف في وصف المولى سبحانه وتعالى. . والتـوراة والعهد القـديم والتلمود كلهـا مليئة بهـذه الأوصاف المنكرة والسجايـا الخبيثة التي لا يمكن أن يـوصف بها إلا أحط البشـر وأراذلهم فكيف يمكن أن يوصف بها المولى سبحانه وتعالى.

● ● ●

آدم (عليه السلام)

يقصُّ سفر التكوين من التوراة (المحرفة) التي بأيدينا علينا بداية الخلق من أولها. وقد تنبّه الدكتور موريس بوكاي في كتابه القرآن والتوراة والإنجيل والعلم الحديث، إلى التناقضات الكثيرة، التي وقع فيها كاتبو التوراة (المحرَّفة)، وإلى الخرافات والأساطير التي ابتدعوها، والتي تشابه من وجوهٍ ما هو موجود في خرافات وأساطير كثير من الأمم السابقة، مثل الآشوريين والمصريين القدماء، كما إن فيها ما هو من كلمات الحق سبحانه وتعالى التي جاء بها موسى عليه السلام.

ويبدأ سفر التكوين الإصحاح الأول بقوله: «في البدء خلق الله السموات والأرض، وكانت الأرض خربة وخالية، وعلى وجه القمر ظلمة. وروح الله يرِفُّ على وجه المياه. وقال الله: ليكن نور، فكان نور. ورأى الله النور أنه حسن. وفصل الله بين النور والظلمة. ودعا الله النور نهاراً والظلمة دعاها ليلاً. وكان مساء وكان صباح يوماً واحداً.

وفي اليوم التالي عمل الله جلداً فاصلاً بين مياه ومياه... ودعا الله الجلد سماء.. وفي اليوم الثالث اجتمعت المياه تحت السماء في مكان واحد وظهرت اليابسة منفصلة عن البحر. وأنبتت الأرض عشباً وبقلاً وشجراً.

وفي اليوم الرابع قال الله: لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل، فصنع النورين العظيمين: النور الأكبر لحكم النهار، ـ المقصود الشمس ـ والنور الأصغر لحكم الليل ـ المقصود القمر ـ.

وفي اليوم الخامس خلق الله الطيور والتنانين ـ جميع تنيّن ـ العظام، وكل ذوات الأنفس الحية التي فاضت بها المياه. وفي اليوم السادس صنع الله البهائم والوحوش ثم **قال الله: نعمل الإنسان على صورتنا.. كشبهنا**» (سفر التكوين ١: ٢٥) ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ.

وأما ما يروى في الحديث أن الله خلق آدم على صورته، فمعناه أن الله خلق آدم على صورته التي خلقه عليها.. وليس معناه أن آدم على صورة الله سبحانه وتعالى.. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وفي الحديث أن رجلاً كان يضرب عبده فقال له الرسول: «إن الله قد خلق آدم على صورته ـ أي على صورة ذلك العبد ـ فلا تضربه»[1].

وتزعم التوراة المحرفة أن الله تعب من خلق السموات والأرض والبهائم والوحوش وخلق الإنسان، فاستراح في اليوم السابع وقدسه.

جاء في الإصحاح الثاني من سفر التكوين:

«**وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل. وبارك الله اليوم السابع وقدَّسه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً**»ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ. قال تعالى في القرآن الكريم نافياً ذلك الزعم الخبيث.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾. (سورة ق: آية ٣٨)

أي من تعب أو نصب.

قصة خلق آدم في التوراة (المحرَّفة):

(سفر التكوين، الإصحاح ٢).

«وجبل الربُّ الإلـه آدمَ تراباً من الأرض. ونفخ في أنفه نسمة حياة، فصار آدم

---

(١) ذكره الإمام علي الرضا بن موسى الكاظم عن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الإمام الحسين السبط بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رواه عن آبائه.

نفساً حيةً. وغرس الرب الإلـه جنة عَـدْن شرقـاً، ووضع هنـاك آدم الذي جبله. وأنبت الرَّبُّ الإلـه من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة لـلأكل. **وشجـرة الحياة في وسط الجنة، وشجرة معرفة الخير والشر»**.

«وأوصى الـرب الإله آدم قـائلاً من جميـع شجر الجنـة تأكـل أكلاً. وأمـا شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها تموت موتاً».

الصراع بين الله والإنسان من أجل العلم:

وهذه النظرة الغريبة التي تصور أن الله يخاف من أن يعـرف آدم الأمور، ويعـرف الخير والشر، هي أساس الصدام بين العلم والكنيسة. والعهد القديم يصور الصراع بين الإنسان الذي يريد أن يعرف، والله الذي يزعمون كذباً وبهتاناً أنه لا يريـد للإنسـان أن يعرف.

وهذه النظرة موجودة لدى الإغريق القدماء، حيث يزعمون أن زيوس كبير الآلهـة وضع حراسة على نار المعرفة، فجـاء إنسان يـدعى بروميثيـوس وتسلل حتى وصل إلى نـار المعرفـة، وأخذهـا وفرَّ بهـا. ولكن زيوس رب الأربـاب عندهم (ويسميـه الرومـان جوبيتير) عاقبه إلى الأبد، بأن يرفع صخرة إلى قمة جبل الأولمب، وما يكـاد يصل إلى قمة الجبل بعد جهد جهيد حتى تتدحـرج الصخرة وتصـل إلى أسفل الـوادي، فيذهب بـروميثيوس مـرة أخرى ليـزحزحهـا ويدفعهـا دفعاً مـرة أخرى حتى يصـل بهـا إلى قمـة الجبـل، وهناك تنـدفع الصخـرة منه وتنفلت لتصـل إلى الوادي السحيق، وهكـذا يظلُّ بروميثيوس في هذا العذاب لأنه تجرأ وسرق نار المعرفة.

فـالله أو رب الأرباب في الأسـطورة الإغريقيـة، وفي أسطورة التـوراة المحرفـة، يرتعب من الإنسان الذي يعرف..

وعندما أكل آدم من شجرة المعـرفة، كمـا تزعم التـوراة المحرفـة، بغوايـة حواء التي أغرتها بها الحية، **«قال الرب الإلـه هوذا الإنسان قد صار كواحد منا عارف الخير والشر» ـ كأن هناك آلهة كثيـرة ـ «والآن لعله يمدُّ يـده ويأخـذ من شجرة الحيـاة أيضاً، ويأكل ويحيا إلى الأبد** ـ ويا لها من جريمة شنعاء يرتكبهـا الإنسان لأنـه يريـد أن يعرف

وأن يخلد في الأرض ـ فأخرجه الربُّ الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أُخذ منها. فطرد الإنسان وأقام شرقي جنة عدن الكروبيم ـ أي الملائكة الكروبيين لحراستها، حتى لا يأتي آدم ويأكل من شجرة الحياة أيضاً ـ ولهيب سيفي متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة» (سفر التكوين، الإصحاح الثالث: ٢٣، ٢٤).

وتصور التوراة المحرفة الله سبحانه وتعالى وكأنه بشر يمشي ويتحرك، وينام ويصحو، ويبكي ويفرح، ويندم على أفعاله، كما قد مر معنا. وها هنا تزعم التوراة أن الله لم يعلم بأن آدم أكل من شجرة المعرفة إلا بالصدفة، عندما كان الله ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ يتمشى في الجنة، واختبأ آدم من وجه الرب هو وزوجته حواء. «فنادى الربُّ الإلـه آدم وقال له: أين أنت؟ ـ يا لهذه الصورة المزرية لإلـه لا يعرف أين يختبىء منه عبده ـ فقال ـ آدم ـ: سمعت صوتك في الجنة فخشيت، لأني عريان، فاختبأت. فقال ـ الرب ـ : من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها؟ فقال آدم: المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلتُ. فقال الربُّ الإلـه للمرأة: ما هذا الذي فعلتِ؟ فقالت المرأة: الحية غرَّتني فأكلتُ. فقال الربُّ الإلـه للحية: لأنك فعلت هذا ملعونة أنتِ من جميع البهائم، ومن جميع وحوش البرّية، على بطنك تسعين، وتراباً تأكلين كل أيام حياتك. وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها. هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه. وقال للمرأة تكثيراً أكثِّرُ أتعاب حبلك. بالوجع تلدين أولاداً. إلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسودُ عليك. وقال لآدم: لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلتَ من الشجرة التي أوصيتك قائلاً لا تأكل منها، ملعونة الأرض بسببك»[1] (سفر التكوين، الإصحاح ٣).

وتصور التوراة المحرفة أن آدم عندما نزل إلى الأرض وكثرت ذريته كان من ذريته أبناء الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. جاء في سفر التكوين، الإصحاح ٦: «وحدث

---

(١) هكذا تزعم التوراة المحرفة. وإذا كانت الأرض ملعونة بسبب آدم، فهو بالأولى ملعون حسبما يزعمون، وهو صاحب الخطيئة الأولى التي يحملها بنو آدم جميعاً دون ذنب اقترفوه، ولا جريرة أقدموا عليها، سوى أنَّ أباهم آدم أكل من شجرة المعرفة. وبما أن الله، كما تصوِّره التوراة المحرَّفة، عدوّ للعلم والمعرفة، فقد غضب من ذلك غضباً شديداً. . ولعن آدم وزوجته والحية والأرض من أجل ذلك.

لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات، أن أبناء الله ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ رأوا بنات الناس أنهن حسنات، فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا. فقال الرب: لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد، لزيغانه هو بشر» ـ وهكذا تحول الإنسان من إله إلى بشر كما تزعم التوراة ـ . . . «**وبعد ذلك أيضاً إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً. هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم**».

وهكذا تزعم التوراة المحرفة أن الجبابرة والفراعنة هم من نسل الله ـ تعالى الله عن ذلك ـ وهي نفس مقولة الفراعنة والجبابرة ونمرود. وتوجد هذه النظرة لدى الأمم القديمة ابتداء من الصين واليابان شرقاً، مروراً بالهند وفارس والعراق (الآشوريين) وسوريا الكبرى واليونان ومصر.

وتستمر التوراة في الهراء والسخف فتقول: «**ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم. فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه. فقال الرب: أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته**» سفر التكوين. . الإصحاح السادس.

وقد تقدم ذكر قصة مدينة بابل (سفر التكوين، الإصحاح ١١)، وأن الرب بلبلها وحطمها خوفاً من اتحاد بني البشر.

وهي صورة وقحة وغبية جداً حيث تصور الله سبحانه وتعالى في صورة إنسان حقود، وكأنه أحد جبابرة الأرض لا يرضى حين يرى الناس متآلفين متحابين متّحدين، لأنه يخشى على ملكه من اتحادهم ووحدتهم. وكأنما هو الاستعمار يحكم بمبدأ «فرق تسد». ولعل هذا المبدأ الخبيث الذي استخدمه الأوربيون على نطاق واسع جداً أثناء إنشاء مستعمراتهم المختلفة، إنما يستمد أركانه من سفر التكوين الإصحاح١١ الذي نقلناه آنفاً. ويا لها من صورة مزرية لله سبحانه وتعالى ترسمها التوراة المحرفة، حيث تصور المولى ـ تعالى الله عما يقول الظالمون ـ بأنه حقود ويخشى على نفسه من معرفة الإنسان، كما يخشى على سلطانه وملكه من اتحاد بني البشر ووحدتهم وإخائهم. وهو يعمل دائماً مثل يهود ـ لعنات الله عليهم ـ ليفرق كلمة البشرية، ويثير فيها الأحقاد،

ويزرع الضغائن، ويبلبل الألسنة، وينشر الحروب ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله . . . ويسعون في الأرض فساداً﴾.

لهذا كله فإن التوراة تعبر عن أحقاد يهود، وتصورات يهود، وآمال يهود. وليس فيها من التوراة الحقيقية التي أنزلها الله سبحانه وتعالى على موسى عليه السلام إلا النزر اليسير، والمدفون وسط ركام الأكاذيب والافتراءات على الله وعلى أنبيائه وملائكته كما سنوضحه.

الصورة المغايرة التي يعرضها القرآن الكريم:

يعرض القرآن الكريم صورة مغايرة كل المغايرة لهذه الصورة الخبيثة المنكرة والمليئة بالحقد التي تصور بها التوراة رب العالمين، وهو يخلق آدم ويرتعب منه عندما يبحث عن المعرفة. . ويكره أبناء آدم عندما يكونون متوحدين لهم لسان واحد وقلب واحد. . ولا يعيش إلا بالمكر والخداع وبسياسة فرّق تسد.

وقد جاءت قصة خلق آدم في القرآن الكريم في عدة سور، منها سورة البقرة، وسورة آل عمران، وسورة النساء، وسورة الحجرات، وسورة الأعراف، وسورة الحجر، وسورة الإسراء، وسورة الكهف، وسورة طه، وسورة صّ، وغيرها من السور.

ولم ترد قصة الخلق كاملة في سورة واحدة وإنما أتت منها مقاطع هنا وهناك، ولفتات سريعة في بعض السور، وبتفصيل في سور أخرى. . وفي كل مرة تأتي إضافة جديدة لمعنى جديد، أو لمحة هنا لإشارة لمغزى من مغازي القصص القرآني الذي هو في قمة الإعجاز من حيث الصياغة والحبكة الفنية، مع أدائه الغرض الأساسي منه، وهو الموعظة والعبرة.

وقد خلق الله سبحانه وتعالى آدم ليكون خليفة في الأرض. قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.
(البقرة: ٣٠).

واختلف أهل العلم في معنى خلافة آدم عليه السلام. فمنهم من قال: إنه كان خليفة لجنس سابق كان مسلطاً على الأرض، فأفسد فيها وسفك الدماء. وأغلب المفسرين القدامى على أن هذا الجنس كان من الجن. ونحن نعلم يقيناً أن الأرض قد امتلأت بالمخلوقات قبل آدم عليه السلام بمئات الملايين من السنين. ومنها

الديناصورات الهائلة الأحجام، المخيفة الأشكال التي كان الواحد منها في ضخامة العمارة الكبيرة أو التل. وعظام هذه الديناصورات موجودة في المتاحف العالمية ـ لندن، نيويورك، باريس، برلين ـ . . وقد حكمت الأرض لبضع مئات الملايين من السنين. ثم أبادها الله سبحانه وتعالى واختفت من مسرح الحياة على الأرض. واختلفت النظريات العلمية في كيفية إبادتها، فمن قائل إنها أرسلت عليها نيازك كبيرة من السماء فأحرقتها وأهلكتها جميعاً ـ وهذه هي آخر النظريات في هذا الباب ـ ومن قائل إن عصراً جليدياً زحف على الأرض ولم تستطع هذه المخلوقات الهائلة أن تقاوم البرد الشديد القارس، والمجاعة المخيفة المرعبة، فماتت جميعها. وأياً كان سبب هلاكها فإن المحقق أن هذه المخلوقات الضخمة الهائلة التي حكمت الأرض ملايين السنين قد اندثرت تماماً ولم يبق منها شيء سوى بعض الهياكل العظيمة المتحجرة والمبعثرة هنا وهناك.

والقول الثاني في معنى الخلافة: هو أن آدم خليفة لله تعالى في إمضاء أحكامه وأوامره، لأنه أول نبي ورسول إلى الأرض. وقد ورد أن أبا ذر سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن آدم: أنبياً كان مرسلاً. فقال المصطفى صلى الله عليه وسلم: نعم. فقيل: لمن كان رسولاً ولم يكن في الأرض أحد؟ قال كان رسولاً إلى أبنائه[1].

واستدل أصحاب القول الأول بقول الملائكة: ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾، وقال: إن الملائكة علمت ذلك بما شاهدته من المخلوقات التي كانت مسلّطة على الأرض فأفسدت فيها، وسفكت الدماء، وأهلكت الحرث والنسل.

وأياً ما كان القول الفصل في هذه النقطة، فإن ذلك لا يغيّر من حقيقة خلافة آدم عليه السلام وتكريم الله له. كما أن أهل التفسير قد اتفقوا على أن آدم كان آخر المخلوقات خلقاً على الأرض. وقد رُوي ذلك عن الحسن البصري والإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر ابن علي زين العابدين وغيرهما من أهل العلم.

وقد خلق الله سبحانه وتعالى آدم من طين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وكرّمه بالعلم. قال تعالى:

(١) ذكره ابن كثير في كتابه «قصص الأنبياء» (ص ٥٤)، وذكره في التفسير، كما رواه ابن حبان في صحيحه عن أبي ذر، رضي الله عنه.

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾. (البقرة: ٣١ ـ ٣٤).

وقال تعالى:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾. (سورة ص: ٧١ ـ ٨٥).

وقال تعالى في سورة الأعراف:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾. (الأعراف: ١١ ـ ١٣).

فآدم عليه السلام في القرآن الكريم مخلوق مكرم معزز. خلقه الله من طين، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وكرمه بالعلم. وهي صورة مغايرة تماماً لما ورد في التوراة المحرفة التي بين أيدي الناس اليوم.

ونحب أن ننبه هنا إلى نقطتين هامتين يغلط فيهما بعض الناس:

● **أولهما**: أن الله قد خلق آدم على صورته. وليس المقصود قطعاً أن خلق آدم على صورة الله سبحانه وتعالى، ـ تعالى الله عما يقولون الظالمون ـ بل هو على صورة آدم إذ أن الله ليس كمثله شيء، ولا يقول ذلك إلا اليهود والنصارى بناء على ما هو موجود لديهم في التوراة المحرفة[1].

● **وثانيهما**: أن الله خلق آدم ونفخ فيه من روحه. وليس المقصود قطعاً «من ذات الله» ــ تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ـ. والروح يطلق على معانٍ عدة: منها جبريل عليه السلام، ومنها الوحي، ومنها الروح التي بها حياة البدن في الإنسان، ومنها حياة القلوب، ومنها أمر الله. فهو مخلوق بأمر الله سبحانه وتعالى. والإضافة إلى المولى سبحانه وتعالى إضافة تشريف فقط كما وصف سبحانه وتعالى البيت بأنه بيت الله، والناقة بأنها ناقة الله، والعبد بأنه عبد الله، وعيسى عليه السلام بأنه روح الله، وهكذا... والروح مخلوقة مربوبة. وهي من أمر الله ﴿ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي. وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾.

النقاط التي تختلف فيها قصة خلق آدم عليه السلام في القرآن عمّا هو في التوراة المحرفة:

(١) جاء في التوراة المحرفة: «ثم قال الله نعمل الإنسان على صورتنا، كشبهنا». وهو تصريح بأن آدم يشبه الله في خلقته وصورته ــ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ــ. ولهذا نجد مايكل أنجلو يرسم الله في صورة بشر في كنيسة سانت بيتر في روما. وهي أكبر كنائس النصارى الكاثوليك. واليهود والنصارى يجسمونه ويظنون أن الإنسان يشبه في صورته صورة الله.

(٢) لا يرد ذكر عن قول الملائكة ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾.

(٣) لا يرد شيء عن تعليم الله لآدم الأسماء كلها، وتفضيله على الملائكة بالعلم

(١) وقد ورد عن الإمام علي الرضا أن رسول الله رأى رجلاً يضرب عبداً، فقال له موبِّخاً: «أتضربه والله قد خلق آدم على صورته؟»، أي على صورة ذلك العبد.. والناس جميعاً لآدم.

والقـدرة على التعلم وفتح بـاب المعرفـة له، وأن هـذا الباب هـو أقرب الأبـواب للوصول إلى الله سبحانه وتعالى. بل على العكس من ذلك يرد في التوراة أن الله يرتعب خوفاً وفرقاً عندما يعلم بطريق الصدفة أن آدم قد أكل من شجرة المعرفـة. كما يرد في التوراة المحرفة أن الله ارتعب خوفاً وفرقـاً ــ تعالى الله عن ذلـك علواً كبيراً ــ عندما اتحد أبناء آدم وصار لهم لسان واحد وقلب واحـد. وبدأوا في بنـاء مدينتهم.

(٤) لا يرد شيء في التوراة المحرفة عن الملائكة وسجودهم لآدم عليه السلام.

(٥) لا يـرد شيء مطلقـاً في التوراة المحـرفة عن إبليس وتكبـره وإبائـه السجود لآدم، وعداوته، وإغوائه له عليه السلام. حتى أكل من الشجرة التي حرّمها الله على آدم والتي لم يأكل منها آدم تجبراً وعناداً لأمر الله، بل انخداعاً بالأيمـان الكاذبـة التي حلفهـا له إبليس اللعين، حيث لم يكن يتصـور أن هناك مخلوقـاً يمكن أن يحلف بالله العظيم كاذباً. وعصيانه كان من باب النسيـان، ومن باب الغـواية، ومن بـاب الرغبة في الخلود في نعيم الجنة التي كان فيهـا. قال تعـالى: ﴿ولقد عهـدنا إلى آدم من قبل فنسيَ ولم نجد له عزماً﴾ (طه: ١١٥).

(٦) تزعم التوراة المحرفة أن الحية ــ وليس إبليس ــ هي التي أغوت حواء لتأكـل من شجـرة المعرفـة. وحـواء أغـرت آدم بـالأكـل من الشجـرة. لهـذا لعن الله حسب زعمهم الحية وحواء وآدم والأرض. وتبقى الخطيئة على كـل إنسان من نسـل آدم عليـه السلام. ويـزعم النصارى أن الله أنـزل ابنه عيسى (عليـه السـلام) ليخلص البشرية من خطيئتها هذه بأن يصلب ويذبح كالنعاج. وهي صورة مزرية ومضحكة وغارقة في السخف والبلاهة والبلادة.

(٧) تتحمل حواء جريرة أكـل آدم من الشجرة، حسب مـزاعم التوراة. ولهـذا فالمـرأة ملعونة في تعـاليم التوراة، وهي مخلوق ممحض للشـر وداعٍ إليه. وهـذه الصورة مناقضة تماماً لما في القرآن الكريم من اعتبار المسؤول الأول في قصـة الأكل من الشجرة المحرمة هو آدم عليه السلام، وتتبعه بعد ذلك زوجته.

(٨) لا يرد شيء مطلقاً في التوراة المحـرفة عن تـوبة آدم وحـواء، وعن اجتباء الله لآدم

واصطفائه له. بل تصور التوراة أن الله طرد آدم من الجنة، ووضع عليها حراسة مشددة من الملائكة الكروبيم ــ الكروبيين ــ ، ومن لهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة ــ شجرة الخلد ــ حتى لا يذهب إليها آدم ويأكل منها. قال تعالى مخبراً عن آدم وحواء:

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

(الأعراف: ٢٣).

(٩) لا يرد شيء مطلقاً عن أن آدم رسول ونبي، وأنه عبدالله موحداً. بل يرد في التلمود ــ وهو أهم عند اليهود من التوراة ذاتها لأنه من تأليف الأحبار الذين لا يخطئون ولا يمكن أن تنقض تعاليمهم ولو بأمر الله ــ[1] أن آدم كان زانياً، وله خليلة من الشياطين تسمى ليليت، ومكث معها ١٣٠ سنة، وأنجب منها أولاداً كثيرين. كما أن حواء كانت تخالل حسب زعمهم الكاذب عدداً كبيراً من الشياطين، وأنجبت منهم عدداً من الأولاد ذكوراً وإناثاً.

(١٠) بما أن آدم مخلوق من ذات الله ــ تعالى الله عن ذلك ــ وهو على صورة الله، فإن أبناء آدم الأول هم من نسل الله. ولكن هذا النسل تزوج من بنات الناس!! ولكن من هم بنات الناس؟ لا توضح التوراة، ولعلها تقصد الشياطين الذين أنجبهم آدم من عشيقته ليليت، وحواء من عشاقها الكثيرين من الشياطين.

جاء في سفر التكوين (الإصحاح ٦):

«وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض، وولد لهم بنات، أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات، فاتخذوا لأنفسهم نساءً من كل ما اختاروا. فقال الرب: لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد لزيغانه، هو بشر، وتكون أيامه مائة وعشرين سنة». ولذلك تحول الإنسان الإلهي إلى بشر عادي ما عدا الجبابرة «الذين هم ذوو اسم منذ الدهر» فإنهم من نسل أبناء الله على بنات الناس!!! «وبعد ذلك أيضاً إذ دخل

(١) انظر كتابنا: «المسيح المنتظر وتعاليم التلمود». الدار السعودية ــ جدة، ١٩٨٧م؛ وكتاب «الكنز المرصود في تعاليم التلمود»، ليوسف نصر الله (دار القلم)، ١٩٨٧م؛ وكتاب «التلمود»، لظفر الإسلام خان، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٠م؛ وكتاب إبراهيم خليل أحمد: «إسرائيل والتلمود». مكتبة الوعي العربي بالقاهرة، ١٩٨٣م، الطبعة الثانية.

بنو الله على بنات الناس. وولدن لهم أولاداً. هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر هم ذوو اسم».

وما عدا بنو إسرائيل الذين تزعم التوراة المحرفة والتلمود أنهم مخلوقون من روح الله مباشرة ــ أي جزء منه ــ حيث جاء في التلمود ما يلي:

(أ) «**تتميز أرواح اليهود عن باقي الأرواح، بأنها جزء من الله، كما أن الابن جزء من والده**».

(ب) «الإسرائيلي معتبر عند الله أكثر من الملائكة. وإذا ضرب أممي إسرائيلياً فكأنما ضرب العزة الإلهية، ويستحق الموت. ولو لم يُخلق اليهود لانعدمت البركة من الأرض، ولما خلقت الأمطار والشمس. والفرق بين درجة الإنسان والحيوان كالفرق بين اليهودي وباقي الشعوب. وقد خلق الله الأجنبي على هيئة إنسان ليكون لائقاً لخدمة اليهود الذين ما خلقت الدنيا إلا من أجلهم.

(ج) عندما يسمع الرب أبناءه اليهود يمجدونه رغم ما فعله بهم من نكبات وتشريد، يلطم وجهه ويصرخ قائلاً: «طوبى لمن يمجّده الناس وهو مستحق لذلك، وويل للأب الذي يمجّده أبناؤه ــ اليهود ــ مع عدم استحقاقه لذلك. لأنه قضى عليهم بالنفي والتشريد والشقاء».

وقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم دعاوى اليهود والنصارى بأنهم أبناءُ الله وأحباؤه:

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ ﴿١٨﴾ ﴾. (المائدة: ١٨)

(د) وقد جاء في التوراة المحرفة أن اليهود شعب مقدس، وأن لهم الحق في إبادة جميع شعوب الأرض الأخرى، وخاصة تلك التي تسكن في منطقة فلسطين، التي أعطاها الرب لإبراهيم ونبيه. ومن ذلك ما جاء في سفر التثنية الإصحاح ٧: «سبع شعوب أكثر وأعظم منك، ودفعهم الربُّ أمامك فإنك تحرّمهم ــ أي تقتل الجميع بما في ذلك النساء والأطفال والبهائم ــ. **لا تقطع معهم عهداً ولا تشفق عليهم لأنك شعب مقدس للرب إلهك**. إياك قد اختار الربُّ لتكون له شعباً. أخص من جميع

الشعوب الذين على وجه الأرض. مباركاً تكون فوق جميع الشعوب. وتأكل كل الشعوب الذين الرب إلهك يدفع إليك. لا تشفق عيناك عليهم».

قصة ابنَيْ آدم:

ترد قصة ابني آدم هابيل رمز الخير وقابيل رمز الشر في التوراة المحرفة، وفي القرآن الكريم. والاختلاف يكمن في أن القرآن الكريم يأتي بالقصة مجملة ويصل إلى الغرض الأساسي منها وهو حرمة الدماء، ووجوب صيانتها، والحفاظ عليها، إلا إذا ارتكبت جريمة معينة توجب القتل، والتي أوضحتها أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم، وهي: جريمة القتل العمد، وجريمة الردة، وجريمة الزنى من الشخص المحصن، وجريمة الحرابة.

قال تعالى:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ ﴿٣٢﴾﴾. (المائدة: ٢٧ ــ ٣٢).

وهكذا ترد القصة في القرآن العظيم بهذه الصورة الرائعة المبهمة بدون أسماء وتوضح لنا صفة الأخوين حيث امتلأت نفس أحدهما حقداً وظلماً وعدواناً على أخيه التقي النقي دون جريرة جنتها يداه، سوى أن الله تقبل منه قربانه ولم يتقبل من الآخر. فإذا النفس الشريرة تتهدد النفس الزكية بالقتل، فيكون ذلك الرد الطاهر: ﴿لئن بسطت إليَّ يدك لتقتُلني ما أنا بباسِطٍ يَديَ إليك لأقتُلك﴾ رغم أنه كما يقول أصحاب التفسير

روايةً عن ابن عباس كان الأقوى جسماً والأكثر شجاعةً وفتوة. ثم يحذره مغبة العدوان، وأنه سيكون من أهل النار إذا اعتدى عليه بجريمة القتل المنكرة، ومع هذا لم يرعوِ قابيل بل أقدم على قتل أخيه هابيل.

أما في التوراة فترد القصة هكذا: «وعرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قايين (قابيل) وقالت: اقتنيت رجلاً من عند الربِّ. ثم عادت فولدت أخاه هابيل. وكان هابيل راعياً للغنم وكان قايين عاملاً في الأرض ــ أي مزارعاً ــ. وحدث من بعد أيام أن قايين قدَّمَ من أثمار الأرض قرباناً للربِّ. وقدَّم هابيل أيضاً من أبكار غنمه ومن سمانها. فنظر الربُّ إلى هابيل وقربانه ــ أي تقبَّل منه ــ ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر. فاغتاظ قابين جداً وسقط وجهه.

فقال الربُّ لقايين: لماذا اغتظت ولماذا سقط وجهك؟ إن أحسنتَ أفلا أدفعْ وإن لم تُحسن فعند الباب خطيّة رابضة وإليك اشتياقها وأنت تسود عليها. وكلَّم قايين هابيل أخاه وحدث إذ كانا في الحقل أن قايين قام على أخيه هابيل فقتله فقال الربُّ لقايين: أين هابيل أخوك؟ قال ــ قايين ــ: لا أعلم. أحارسٌ أنا لأخي. فقال ــ الربُّ ــ: ماذا فعلت؟ صوت دم أخيك صارخ إليّ من الأرض. فالآن ملعون أنت في الأرض التي فتحت فاها لتقبل دم أخيك من الأرض» (سفر التكوين، الإصحاح ٤). وأصدر الربُّ أمره بعدم قتل قايين بل يبقى مطروداً ملعوناً. وكل من قتل قايين فسبعة أضعاف ينتقم منه. فخرج قايين من لدن الرب، وسكن في أرض نود شرقي عدن».

ولا تذكر التوراة شيئاً عن قصة الغراب الذي دفن أخاه الغراب الميت ليعلّم قابيل كيف يواري سوأة أخيه. كما لا تذكر شيئاً عن الحكم الأساسي الذي يستخلص من هذه القصة، وهو حرمة قتل النفس البشرية بدون وجه حق، وأن من قتل نفساً واحدة كمن قتل الناس جميعاً، ومن أحياها كمن أحيا الناس جميعاً. كما لم يرد في التوراة بأكملها ذكر للجنة أو النار. ولا شك أن اليهود قد أزالوا في مراحل متأخرة ما هو موجود لديهم في التوراة وتعاليم الأنبياء عن الجنة والنار وصفاتهما، لأن اليهود في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون: لن يدخلَ الجنةَ إلا من كان هوداً، والنصارى يقولون: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً. . وأما النار فقد ذكر اليهود كما يرويه عنهم القرآن الكريم أنهم قالوا: ﴿لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾. . مما يدل دلالة

قاطعة على أن التوراة قد استمر تحريفها بعد نزول القرآن الكريم. . لأن التوراة الموجودة بأيدي الناس اليوم ليس فيها ذكر البتة للجنة ونعيمها أو للنار وجحيمها. . والذكر الوحيد هو للجنة التي كان فيها آدم، والتي طرد منها عندما أكل من شجرة المعرفة وأراد أن يأكل من شجرة الخلد أيضاً.

والغريب حقاً أن آدم بعدما أُخرج من الجنة وتناسل في الأرض، وبعد أن قام قابيل بقتل أخيه الطيب هابيل، نرى المجرم في حضرة الرب تعالى يكلمه كفاحاً، والرب يسأله أين هابيل؟ ويرد قايين ــ قابيل ــ بوقاحة أحارس أنا لأخي. وفي ترجمة أخرى: أرقيب أنا لأخي! ثم إن الرب يأمر بعدم قتل قايين المجرم، وأن من يقتله فسبعة أضعاف ينتقم منه. ولا يوجد أي مبرر لذلك. فقايين مجرم، والقاتل يُقتَل.

ثم تذكر التوراة (سفر التكوين، الإصحاح ٤): أن الرب أمر بطرد قايين من جنة عدن، ولكنه سكن قريباً منها في أرض نود التي تقع شرقي جنة عدن!! وهو أمر في منتهى الغرابة، إذ أن آدم قد طرد من الجنة إلى الأرض قبل أن يوجد له نسل وأولاده وُلدوا على الأرض، والمفروض أنهم لم يدخلوا جنة عدن. فكيف يدخل المجرم قابيل ويكلم الرب كفاحاً، ويطرد من جنة عدن التي لم يدخلها أصلاً؟!!

ثم تذكر التوراة (سفر التكوين، الإصحاح ٤) أن قابيل تزوج وأنجب ابناً سماه حنوك. وقد بنى حنوك هذا مدينة عظيمة باسمه ــ ولا ندري من سكنها ــ ثم ولد لحنوك عيراد، ولعيراد محويائيل ولهذا متوشائيل الذي أنجب لامك، الذي تزوج امرأتين إحداهما تدعى عادة ولدت له يابال وهو أبٌ لكل الرعاة وساكني الخيام، ويوبال وهو أبٌ لكل ضارب بالعود والمزمار. وتدعى المرأة الثانية صِلَّة وولدت له توبال الضارب كل آلة من نحاس وحديد. وقال لامك لامرأتيه. . اسمعا قولي فإني قتلت رجلاً لجرحي وفتى لشدخي. إنه ينتقم لقايين سبعة أضعاف وأما للامك فسبعة وسبعين!!.

وهو كلام غير منطقي ومضطرب ومليء بالخرافات والأساطير. . فحنوك يبني مدينة عظيمة يسكنها هو وزوجته وبنوه!! ولامك يلد يوبال جد جميع الرعاة وساكني الخيام في العالم، ويوبال جد جميع ضاربي العود والمزمار، وتوبال جد جميع من يضرب بآلة نحاسية وحديدية وهي فرقة موسيقية!!

ثم يندم لامك على جريمة قتل لا تحدثنا التوراة عنها شيئاً سوى أنه قتل رجلاً لجرحه وفتى لشدخه!!. وبما أن الرب قد منع قتل قايين ــ قابيل ــ ومن يقتله ينتقم منه سبعة أضعاف فإن قتل لامك جريمة أعظم وينتقم من قاتله سبعة وسبعين. لماذا؟!! ولماذا الدفاع عن المجرمين والقتلة؟!! لا ندري.

مولد شيث:

تذكر التوراة (سفر التكوين ٤: ٢٥، ٢٦) أن آدم أتى زوجته حواء فولدت ابناً ودعت اسمه شيثاً قائلة: «لأن الله قد وضع لي نسلاً آخر عوضاً عن هابيل لأن قايين كان قد قتله». ولشيث أيضاً ولد ابن فدعا اسمه أنوش. حينئذ ابتدىء أن يُدعى باسم الرب!!

ثم تأتي بعد ذلك قائمة بأسماء مواليد آدم وأبنائه، وكم عاش كل واحد منهم.

وتختلف نسخ التوراة ــ اليونانية والعبرية والسامرية ــ اختلافاً شديداً في الأعمار مما يدل على ما حدث فيها من التحريف والتبديل، ولا شك أن هذه الأعمار كلها لا تصح، لأن التوراة والعهد القديم تسجل فيها الأعمار والمدة من خلق آدم إلى نوح، ومن نوح إلى إبراهيم بتقديرات مختلفة في نسخ التوراة ذاتها، كما أنها تختلف اختلافاً بيّناً عما هو معروف في علم الآثار والتاريخ.

كما أن العهد الجديد ـ الأناجيل المختلفة ـ تسجل آباء المسيح عيسى بن مريم، على اعتبار أن يوسف النجار خطب مريم العذراء، وادعى أنه تزوجها وتضع له سلسلة نسب تنتهي إلى داوود ومن داوود إلى يعقوب ومن يعقوب إلى إبراهيم ومنه إلى نوح ومن نوح إلى آدم. وتختلف هذه السلسلة من الآباء المزعومين من إنجيل لآخر. وقد نقدها كثير من الباحثين، ومنهم الدكتور موريس بوكاي في كتابه «القرآن والتوراة والإنجيل والعلم الحديث».

ونحن لا نرى أصلاً لهذه الأنساب فعيسى ولد بدون أب. والنصارى يزعمون أنه ابن الله على قول فريق، أو هو الله ذاته على قول فريق آخر، فكيف يكون له نسب؟؟! وهذه الأنساب كلها منتحلة، ولا يصح منها شيء. ومن باب أولى تقدير تلك الأعمار لكل واحد من أولئك الآباء.

ولهذا اختلف الذين حرّفوا التوراة والعهد القديم في الأعمار وسلسلة النسب اختلافاً بيّناً. فكل نسخة تختلف عن الأخرى. وفيما يلي مثال واحد على هذا التناقض:

	التوراة العبرية	التوراة السامرية	التوراة اليونانية
آدم	١٣٠	١٣٠	٢٣٠
شيت	١٠٥	١٠٥	٢٠٥
آنوش	٩٠	٩٠	١٩٠
قينان	٧٠	٧٠	١٧٠
مهللئيل	٦٥	٦٥	١٦٥
يارد	١٦٢	٦٢	٢٦٢
حنوك	٦٥	٦٥	١٦٥
متوشالح	١٨٧	٦٧	١٨٧
لامك	١٨٢	٥٣	١٨٨
نوح	٦٠٠	٦٠٠	٦٠٠
	١٦٥٦	١٣٠٧	٢٣٦٢

والمقصود في هذا الجدول أن آدم حينما ولد شيت كان عمره ١٣٠ وشيث حينما ولد آنوش كان عمره ١٠٥ سنة وهكذا. والمدة من آدم إلى نوح ١٦٥٦ سنة في التوراة العبرية، و١٣٠٧ في السامرية، و٢٣٦٢ سنة في اليونانية.. والمدة من سام بن نوح إلى تارح والد إبراهيم عليه السلام في التوراة العبرية ٢٩٢، وفي السامرية ٩٤٢ سنة، وفي اليونانية ١٠٧٢.. وهو اختلاف فاحش جداً.

ولا يرد أي ذكر لشيث في التوراة كم عُمّر من السنين ومن ولد له، ما عدا مولده. وقد ورد في الأحاديث النبوية أن شيث هذا كان من الأنبياء المكرمين، وأن الله أنزل إليه صحفاً، وهي أول ما نزل من الكتب السماوية. وأنه دعى أبناء آدم الآخرين وأبناءهم إلى الله بعد أن بدأ بعضهم يزيغ عن طريق الحق والتوحيد.. وقد ذكر ذلك ابن كثير في قصص الأنبياء (ص ٥٨) ورواه ابن حبان في صحيحه، كما ذكره ابن كثير

في التفسير أيضاً. وقد ورد في الحديث الذي رواه ابن حبان عن أبي ذر رضي الله عنه: أنه أنزل عليه خمسون صحيفة.

أخنوخ أو إدريس:

تذكر التوراة (سفر التكوين الإصحاح ٥) اسم أخنوخ وأنه ابن يارد بن مهللئيل بن قينان بن أنوش بن شيث. وأن أخنوخ عاش ٦٥ سنة ثم ولد له متوشالح. «وسار أخنوخ مع الله ثلاثمائة سنة بعدما ولد متوشالح، وولد بنين وبنات. فكانت كل أيام أخنوخ ٣٦٥ سنة. وسار أخنوخ مع الله. ولم يوجد لأن الله أخذه!!» ولسنا ندري إن كان المقصود بذلك أنه رفع إلى السماء.

ثم تذكر التوراة (التكوين الإصحاح ٥) أن متوشالح ولد لامك، ولامك ولد نوحاً. ولعل لامك هذا غير لامك القاتل حفيد القاتل قايين. فهذا ينتسب إلى شيث بن آدم الصالح، وذاك ينتسب إلى قابيل بن آدم ــ قاتل أخيه هابيل ــ.

ويذكر أهل التفسير أن أخنوخ هو إدريس عليه السلام. وأنه كان أول نبي بعد آدم وشيث عليهما السلام. وذكر ابن إسحاق وغيره أن إدريس كان أول من خطّ بالقلم. وقال ابن كثير في كتابه قصص الأنبياء ــ وذكر مثله في تفسيره للقرآن العظيم ــ: «ويزعم كثير من أهل التفسير والأحكام أنه أول من تكلم في ذلك ــ أي الكتابة ــ ويسمونه هرمس الهرامسة. ويكذبون عليه أشياء كثيرة، كما كذبوا على غيره من الأنبياء والعلماء والحكماء». وخلاصة القول إن ما قيل في هذا الصدد، فهو من الإسرائيليات التي لا تصح.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى إدريس عليه السلام. قال تعالى: ﴿واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صِدّيقاً نبيّاً، ورفعناه مكاناً عليّاً﴾ وقد جاء في حديث الإسراء في الصحيحين (البخاري ومسلم): أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ به وهو في السماء الرابعة. وقد رُوي عن ابن عباس رضي الله عنه أن إدريس رفع إلى السماء الرابعة وهو حي ثم قبض الملك روحه هناك. وانكر ابن كثير هذه الرواية.

* * *

نوح (عليه السلام)

ترد قصة سيدنا نوح عليه السلام في القرآن الكريم في سور كثيرة: منها سورة نوح، وسورة الأعراف، وسورة هود، وسورة يونس، وسورة الأنبياء، وسورة «المؤمنون» وسورة الشعراء، وسورة الصافات، وسورة العنكبوت، وسورة القمر، وغيرها من سور القرآن الكريم.

ولا ترد القصة كاملة في سورة واحدة، وإنما يرد منها ما يناسب جو السورة وغرضها، حسبما هو موجود في القصص القرآني بصورة عامة.

ويظهر هذا النبي الكريم على مسرح الأحداث بعد أن عاشت البشرية ردحاً من الزمن على التوحيد الخالص، ثم اجتالت الشياطين البشر، فعظّموا الصالحين، من أمثال: وَدّ وسُوَاع ويَعُوق ونسر، ثم عبدوهم وصنعوا لهم التماثيل.

واختار الله نوحاً عليه السلام لدعوة قومه إلى عبادة الله وحده:

﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾.

(الأعراف: ٥٩).

ولكن الملأ وعلية القوم استكبروا، وقالوا له بصلف وعنجهية:

﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

(الأعراف: ٦٠ ــ ٦٢).

واستمر الملأ في ضلالهم، فتارة يقولون له:

﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾. (هود: ٢٧).

وتارة يطلبون منه أن يطرد الذين آمنوا معه حتى لا يختلط عِليَةُ القوم بسفلتهم كما يزعمون. فيرد عليهم نوح ذلك الطلب بقوله:

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾﴾. (هود: ٢٩ ـ ٣١).

واستمر نوح في مجادلة قومه ودعوتهم بالحسنى سراً وجهراً، حتى مـلَّ منه قـومه وقالوا له:

﴿يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

(هود: ٣٢).

وجاءت سورة نوح لتقص جانباً كبيراً من معاناة سيدنا نوح عليه السـلام في دعوة قومه المكذبين، حتى جأر نوح بالشكوى إلى ربه ومولاه قائلاً:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾

لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

(نوح: ٥ ــ ٢٨).

وفي هذه السورة الكريمة نرى صبر نوح عليه السلام ودعوته لقومه بكافة الوسائل السرية والعلنية، وتذكيرهم بآيات الله في الكون وفي أنفسهم، وبنعم الله المدرارة التي تهطل عليهم صباح مساء وهم عنها غافلون، ويذكرهم باليوم الآخر، ويوضح لهم زيف ما يعبدون من أوثان. ولكن قومه أصمّوا آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً.

فلما أمر الله نوحاً بأن يصنع الفلك، سخر منه قومه سخرية لاذعة. فقد أصبح النبي نجاراً يصنع فُلكاً في مكان لا ماء فيه. قال تعالى في سورة هود:

﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ[1] فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ۖ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ

---

(١) قيل: إن عدد الذين آمنوا من قوم نوح كانوا ثمانين رجلاً. وقد ركبوا معه في السفينة.. ولكن يبدو أنهم لم يعقّبوا، لأنَّ البشرية كلّها من نسل نوح وحده. قال تعالى: ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾.

إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ
يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ
قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾
وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ
بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ
وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ
لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي
بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ
عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ
الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

(هود: ٣٦ ــ ٤٩).

وفي سورة هود نرى جانباً آخر من قصة نوح عليه السلام، وهو يصنع السفينة وقومه يسخرون منه ويستهزئون به، وهو يرد عليهم سخريتهم في ثقة بأنه عما قريب سيسخر منهم كما يسخرون منه. وقد جعل الله له علامة بأن يفور الماء من تنور بيته الذي بخبز فيه الخبز. وأسرع نوح عليه السلام بوضع زوجين اثنين من كل نوع من أنواع الحيوانات والطيور، ودعا جميع أهله ومن آمن، وأركبهم السفينة. وبدأت المياه تتفجر من الأرض وتنهمر من السماء بما لم تعرفه ولن تعرفه البشرية. وبدأ الطوفان الهائل. وكان أحد أبناء نوح عليه السلام يخفي كفره، ويتظاهر بالإيمان، بمعزل عن نوح. فناداه نوح أن اركب معنا ولا تكن مع الكافرين. فقال الفتى المغرور الكافر: سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال نوح: لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم. وحال بينهما الموج فكان من المغرقين. وابتلع الطوفان كل شيء على وجه الأرض، ما عدا سفينة نوح ومن فيها من الحيوان والنبات والطير والبشر. وتطهّرت الأرض من رجس قوم نوح الكفرة الذين ظل يدعوهم لمدة ألف سنة إلا خمسين عاماً. واستوت السفينة على الجودي ــ جبل بشمال العراق ــ، هنالك تذكّر نوحٌ ابنه وكان عليه حزيناً. تفجرت عاطفة الأبوة وخشي على ولده وفلذة كبده من أن يكون مع الكافرين:

﴿ونادى نوح ربه: إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين﴾.. لم يكن نوح يعلم أن ابنه كافر، وإلا كان تبرأ منه كما تبرأ إبراهيم عليه السلام من أبيه. لأن رابطة العقيدة هي فوق كل رابطة مهما كانت تلك الروابط قوية. وإذا برب العزة يقول له: ﴿يا نوح إنه ليس من أهلك، إنه عمل غير صالح. فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾. ويرتعب نوح عليه السلام فرقاً وخوفاً من الجبار ﴿قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم، وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين﴾. وتدركه رحمة الله التي لم تفارقه: ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك﴾.

وهكذا تبدو قصة نوح عليه السلام في القرآن الكريم. قصة نبي من أولي العزم من الرسل صبر وجاهد وبلَّغ قومه رسالة ربه بكل وسيلة من الوسائل لمدة ألف سنة إلا خمسين عاماً. والآن لننظر إلى الصورة النقيض التي تصور بها التوراة المحرفة نوحاً عليه السلام. إنها صورة قميئة حقيرة بذيئة. لا نرى فيها إنساناً يدعو إلى ربه وإلى توحيد خالقه، بل نرى شخصاً يغرق في شرب الخمور حتى يتعرى تماماً وهو لا يشعر.

قصة نوح في التوراة المحرفة:

تبدأ قصة نوح عليه السلام بذكر أن البشر قد فسدوا وحزن الرب وندم لأنه خلق الإنسان ـ تعالى الله عن ذلك ـ فقال الرب: أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته، ما عدا نوح الذي كان باراً. ولا تذكر لنا التوراة أن قوم نوح عبدوا الأوثان، ولهذا غضب عليهم الرب. بل تذكر أن «أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا» لهذا غضب الرب، وقال: «لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد. لزيغانه هو بشر. وتكون أيامه مائة وعشرين» (سفر التكوين الإصحاح ٥: ١ ـ ٣).

وغضب الرب عندما تزوج أبناء الله من بنات الناس ـ ألا لعنة الله على اليهود ما دامت السموات والأرض ـ . . «فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض. وتأسف في قلبه. فقال الربُّ أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته. الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء. لأني حزنتُ أني عملتهم. وأما نوح فوجد نعمة في عيني

الرب» (سفر التكوين، الإصحاح ٥: ٥ ــ ٨). ولا تذكر التوراة سبباً هاماً لرضى الرب عن نوح. ولعله لم يتزوج من بنات الناس وإنما تزوج كما تزعم التوراة من بنات الله ــ أي من نسل آدم وحواء فقط دون أولئك الذين أنجبتهم حواء من زناها مع الشياطين أو الذين أنجبهم آدم من زناه مع الشيطانة ليليت ــ .

وهكذا قرر الرب الإله كما تزعم التوراة أن يبيد الأرض ومن عليها، ما عدا نوح لأن الإنسان كان ظالماً وشريراً «وتزوج بنو الله من بنات الناس فولد الجبابرة الذين منذ الدهر هم ذوو اسم». «فقال الله لنوح نهاية كل البشر قد أتت أمامي. لأن الأرض امتلأت ظلماً منهم فها أنا مهلكهم مع الأرض». وصدر الأمر: «اصنع لنفسك فلكاً من خشب جفر. تجعل الفلك مساكن وتطلب من داخل ومن خارج بالقار» ثم تفصيل لكيفية صنع الفلك ومقدار طوله وعرضه وارتفاعه (٣٠٠ × ٥٠ × ٣٠ ذراعاً) ثم أمره بأن يدخل هو وزوجته وبنوه الثلاثة وزوجاتهم إلى الفلك مع زوجين من كل بهيمة وطير وحيوان على الأرض. وفي موضع آخر يأخذ سبعة أزواج من جميع البهائم والطيور الطاهرة وزوجين اثنين من البهائم غير الطاهرة.

«ولما كان نوح ابن ستمائة سنة صار طوفان الماء على الأرض». «في الشهر الثاني في اليوم السابع عشر من الشهر، في ذلك اليوم انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء» «وكان الطوفان أربعين يوماً على الأرض.. وتعاظمت المياه وتكاثرت جداً على الأرض فكان الفلك يسير على وجه المياه. وتعاظمت المياه، فتغطت جميع الجبال الشامخة التي تحت كل السماء».. وسارت الفلك. وبدأت المياه في التناقص «واستقر الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أراراط ــ شرق تركيا وشمال العراق ــ . وكانت المياه تنقص نقصاً متوالياً إلى الشهر العاشر. ولكن نوحاً لم يخرج من السفينة إلا بعد مرور عام كامل. أي في السنة ستمائة وواحد (ويبدأ التقويم من ميلاد نوح) «وكلم الله نوحاً قائلاً: اخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك وكل الحيوانات التي معك..».

«وبنى نوح مذبحاً للرب. وأخذ من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة، وأصعد محرقات على المذبح فتنسم الرب رائحة الرضا. وقال الربُّ في قلبه: لا أعود ألعنُ الأرض أيضاً من أجل الإنسان لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته. ولا أعود أيضاً أميت كل حي كما فعلت» (سفر التكوين، الإصحاح ٨: ٢٠ ــ ٢٢).

والغريب حقاً أن المستشرقين من اليهود والنصارى، يزعمون أن الإسلام دين دموي، وأن رب المسلمين يتعشق الدماء، وكتابهم المقدس ــ العهد القديم ــ الذي يؤمن به اليهود والنصارى مليء بهذه الخزعبلات والافتراءات على الله وعلى رسله وأنبيائه.

وتذكر التوراة أن الله بارك نوحاً ونسله وجعل لنوح ونسله السيطرة على كل حيوانات الأرض وطيورها. وأصدر أمره بأن لا يأكل الإنسان دماً «غير أن لحماً بحياته دمه لا تأكلوه. وأطلب أنا دمكم لأنفسكم فقط. من يد كل حيوان أطلبه. ومن يد الإنسان أطلب نفس الإنسان. من يد الإنسان أخيه. سافك دم الإنسان بالإنسان يسفك دمه لأن الله على صورته عمل الإنسان» (سفر التكوين، الإصحاح ٩: ١ ــ ٦).

«وكلم الله نوحاً وبنيه معه قائلاً: وها أنا مقيم ميثاقي معكم ومع نسلكم من بعدكم... أقيم ميثاقي معكم فلا ينقرض كل ذي جسد أيضاً بمياه الطوفان.. ولا يكون أيضاً طوفان ليخرب الأرض. وقال الله هذه علامة الميثاق الذي أنا واضعه بيني وبينكم... وضعت قوساً في السحاب فتكون علامة ميثاق بيني وبين الأرض... فمتى كانت القوس في السحاب أبصرها لأذكر ميثاقاً أبدياً بين الله وبين كل نفس حية في كل جسد على الأرض» (سفر التكوين، الإصحاح ٩: ٨ ــ ١٧).

وهكذا ندم الرب عندما خلق الإنسان، وحزن وتأسف في قلبه كما تزعم التوراة المحرفة ثم ندم وحزن عندما أغرق الأرض بالطوفان، ووضع عهداً مع نوح وبنيه وكل ذي روح على الأرض، أن لا يغرقهم ولا يهلكهم بطوفان آخر. وبما أن الله كثير النسيان حسب زعمهم، فإنه وضع علامة وميثاقاً يتذكر به هذا العهد والميثاق. ووضع الله قوسه في السحاب فإذا رأى القوس، تذكر أنه يجب عليه أن يحافظ على العهد ولا ينقض الميثاق، فيجعل الأرض تغرق بطوفان جديد. والقوس يشير إلى قوس قزح الذي يظهر عند نزول المطر. فإذا ظهر القوس تذكر الرب حسب زعمهم ميثاقه فيكفُّ المطر.

نوح يسكر!!:

وابتدأ نوح العمل على الأرض وغرس كرماً. وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه. فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه، وأخبر أخويه خارجاً ــ أي خارج

الخباء ــ . فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما، ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء، فلم يبصرا عورة أبيهما. فلما استيقظ نوح من خمره، علم ما فعل به ابنه الصغير. فقال: ملعون كنعان، عبد العبيد يكون لإخوته. وقال: مبارك الرب إله سام، وليكن كنعان عبداً لهم. ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام. وليكن كنعان عبداً لهم». (سفر التكوين، الإصحاح ٩: ٢٠ ــ ٢٧).

وهذه صورة قميئة حقيرة لنبي الله نوح عليه السلام ترسمها له التوراة المحرفة. وإذا نبي الله الكريم يشرب الخمر حتى يسكر ويتعرى ولا يشعر بنفسه، فيدخل ابنه حام ــ وهو الابن الأصغر حسب كلام التوراة ــ ويخبر أخويه الأكبر منه سناً: سام ويافث. . فيدخل هذان على أبيهما ويغطيان عورة أبيهما دون أن ينظرا إليها. وهو عمل حسن منهما. وعندما يفيق نوح ويعلم بما فعل حام، يلعن كنعان بن حام الذي لا جريرة له، ولا دخل له في هذا الموضوع البتة. ويجعله عبد العبيد لأبناء سام. والسبب في ذلك أن مؤلفي التوراة المحرفة أرادوا أن يثبتوا دعاواهم في فلسطين أرض الكنعانيين، فاختلقوا هذه القصة وهذا الإفك المشين. ولوّثوا صورة نوح عليه السلام. والغريب حقاً أن يقوم نوح السكران الذي تعرى، بلعن حفيده كنعان الذي لا دخل له في هذه الجريمة التي اقترفتها يدا نوح نفسه. كما أعلن نوح بركاته على سام جد اليهود كما يعتقدون، وجعل كنعان عبداً لسام. وبالتالي ينبغي أن يكون جميع أهل فلسطين عبيداً لليهود، وأرض فلسطين تكون من نصيب أولاد سام. والمقصود من ذلك قطعاً اليهود.

وهكذا تلوث التوراة المحرفة صورة الأنبياء بصور مزرية قبيحة كما أنها قد لوثت صورة الله ذاته، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً. .

مقارنة بين قصة نوح في القرآن الكريم وقصته في التوراة المحرفة:

إن الفرق بين الصورتين واضح جداً. . في القرآن صورة وضيئة لنبي كريم جاهد في الله حق جهاده، وأمر قومه بأن يعبدوا الله وحده، ويذروا آلهتهم وأوثانهم، كما أنذرهم باليوم الآخر، وبعذاب الله وسخطه. وذكر لهم آلاءَهُ ونعمه. ومكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً وهو صابر على أذاهم وسخريتهم، حتى أخبره المولى بأنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن.

أما في التوراة فلا نرى نوحاً يدعو قومه إلى الله سبحانه وتعالى ولا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر. والتوراة المحرفة من أولها إلى آخرها لا تذكر أن أحداً من الأنبياء دعا إلى الإيمان بالله وحده وترك عبادة الأوثان والأصنام، والإيمان باليوم الآخر. ولا نرى منهم أحداً يأمر بالصلاة والصيام والزكاة. ولا نرى أحداً منهم يأمر بفعل الخيرات وترك المنكرات، بل نرى الأنبياء كما تزعم التوراة أول الناس إقبالاً على الشر، وفعلاً للمنكرات. وليس من منكر ولا قبيح إلا فعلوه، ابتداءً من جرائم القتل وسفك الدماء، وانتهاءً بعبادة الأوثان والأصنام، مروراً بالكذب والخداع والسرقة والزنى وشرب الخمر ونكاح المحرمات.

الشيء الوحيد الذي ينالون به رضا الرب هو أن يقدموا له المحرقات واللحم المشوي الذي يحبه الربُّ جداً حسب زعمهم. فيُسرُّ الرب الإله بهذه المحرقات ويتنسم نسيم الرضا، ويعطيهم العهود والمواثيق بأنه سيكون معهم ويبيد كل البشر من أجلهم، ويجعل الآخرين لهم عبيداً، لا لسبب سوى أنهم أرضوه بالمحرقات واللحم المشوي الذي يغرم به الرب ــ حسب افتراءاتهم ــ غراماً شديداً.

وكما تختلف الصورة من أساسها، فإن التفاصيل أيضاً تختلف اختلافاً كبيراً. ولكن إذا اختلف الأصل والغرض، فإن اختلاف التفاصيل يصبح هامشياً وثانوياً.

ففي القرآن الكريم إن نوحاً عليه السلام لبث في قومه يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاماً. وفي التوراة كما أسلفنا لم يرد أن نوحاً دعا قومه إلى الله قط. بل تخبرنا التوراة أن نوحاً عاش ستمائة عام قبل حدوث الطوفان. وأن سبب الطوفان هو أن أبناء الله تزوجوا بنات الناس!! فولد لهم الجبابرة.. وغضب الرب لذلك وتأسف وحزن وندم، لأنه خلق الإنسان. فقرر إبادة الجنس البشري وإبادة الحياة من الأرض إلا نوحاً وبنيه فقط. ولعل نوحاً لم يتزوج من بنات الناس بل تزوج من بنات أبناء الله!!!

المهم أن الطوفان أخذ سنة كاملة حتى نزل نوح من السفينة. ولا يرد أي ذكر لمدة الطوفان في القرآن الكريم. كما لا يرد في التوراة أي ذكر عن ابن نوح الذي كفر وكان من المغرقين. وقد ذكر أهل التفسير أن هذا الابن كان يدعى كنعان، ولم يرد في

ذلك نص من كتاب الله أو سنة نبيه وإنما هو من الإخباريين الذين يروون عن أهل الكتاب.

وتذكر التوراة أن نوحاً عاش ٣٥٠ سنة بعد الطوفان فكان جملة عمره ٩٥٠ عاماً. بينما لا يرد في القرآن أي ذكر للمدة التي عاشها نوح بعد الطوفان. وفي القرآن أن نوحاً عليه السلام لبث يدعو قومه ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً.

وتذكر التوراة المحرفة أن الربَّ ندم مرة أخرى بعد حدوث الطوفان، ووضع عهداً جديداً لنوح وبنيه، أن لا يغرق الأرض بالطوفان. وذلك بعد أن أرضاه نوح باللحم المشوي والمحرقات. وكانت علامة العهد والميثاق قوس قزح!! فإذا ظهر قوس قزح في السماء تذكر الرب أنه ينبغي عليه المحافظة على عهده فيكف المطر حتى لا يغرق الأرض!! صورة تافهة وساذجة وغبية تصورها التوراة للرب سبحانه وتعالى. لأنهم حسب زعمهم وأساطيرهم وأكاذيبهم يقولون: إن الرب ــ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ــ كثير النسيان.. ولهذا لا بد له من شيء يذكّره فجعل قوس قزح علامة له حتى يذكر أن عليه أن لا يغرق الأرض مرة أخرى بالمطر.

وأما قصة نوح وشرب الخمر وسكره حتى يتعرى، فأمر مرفوض البتة في الإسلام. وكذلك قصة لعن كنعان الذي لم يكن له من ذنب سوى أن أبناءَه سكنوا فلسطين التي يريدها اليهود. لهذا لا بد أن يكون كنعان ملعوناً، وعبد العبيد يكون لإخوته!! ومبارك الرب إله سام، جد اليهود!!.

ويرد في القرآن الكريم أن نوحاً عليه السلام صعد إلى السفينة هو ومن آمن معه وما آمن معه إلا قليل. ويذكر أهل التفسير أنهم بلغوا ثمانين شخصاً. ويحمل نوح معه من كل ذي روح زوجين اثنين وأهله دون تحديد لهم. فقد ورد أن أحد أبنائه لم يكن معه بل كان مع الكافرين فكان من المغرقين. كما ورد في مواضع أخرى من القرآن الكريم أن زوجة نوح كانت كافرة ﴿وضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا الصالحين﴾. ولا شك أنها لم تكن مع نوح في سفينته، لأن الله أمره بإركاب المؤمنين فحسب، إذ لا رابطة سوى رابطة الإيمان ولا وشيجة سوى وشيجة الحب في الله والبغض في الله. أما الزوجة والولد فلا قيمة لهم في ميزان

الله إذا كانوا من الكافرين. وهكذا تبرأ نوح عليه السلام من زوجته كما تبرأ من ابنه عندما علم بكفره. كما تبرأ إبراهيم عليه السلام فيما بعد من أبيه ومن قومه الكافرين.

أما في التوراة المحرفة التي لا يرد فيها ذكر للإيمان ورابطة الإيمان أصلاً فتزعم أن نوحاً عليه السلام أدخل في السفينة أبناءه الثلاثة وزوجاتهم وزوجته مع سبعة أزواج من الحيوانات والطيور الطاهرة وزوجين من الحيوانات والطيور غير الطاهرة.. (وفي موضع آخر زوجين اثنين من جميع الحيوانات والطيور الطاهرة وغير الطاهرة).

وخلاصة القول أن قصة نوح عليه السلام في القرآن الكريم قصة نبي كريم من أولي العزم من الرسل دعا إلى الله بكل وسيلة سرية وعلنية، وصبر على قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً.. ولم يعرف إلا رابطة الإيمان بينه وبين قومه وعشيرته وزوجته وبنيه. فمن آمن فهو منه ومن كفر بالله فهو عدوه.

أما في التوراة المحرفة فترد قصة نوح وسط أساطير وخزعبلات وكفر صريح بالله تعالى، وتصورات حقودة ضد البشر، وصورة قميئة حقيرة لنبي الله الكريم نوح عليه السلام. وكل إناء بما فيه ينضح. ومؤلفو التوراة المحرفة هم من أحبار اليهود الحاقدين على البشر. فصوروا الأنبي ء بهذه الصور المزرية التي توضح أحقادهم وخستهم وحقارتهم.

* * *

إبراهيم (عليه السلام)

قصة إبراهيم عليه السلام في التوراة المحرفة :

تبدأ قصة إبراهيم عليه السلام في سفر التكوين بمسلسل أولاد سام بن نوح عليه السلام وكم عُمِّرَ كل واحد من أبنائه.

فهو حسب النسب المذكور في التوراة المحرفة، إبراهيم بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام. وكان لأبرام (إبراهيم) أخوين هما ناحور وهاران. فأما هاران فقد توفي بعد أن ترك ابناً، هو لوط عليه السلام. وتزوج ناحور من ملكة بنت هاران ــ أي ابنة أخيه ــ ، كما تزوج إبراهيم من أخته من أبيه ساراي كما تزعم التوراة.

وتزعم التوراة أن تارح أخذ أولاده وزوجاتهم وأولادهم وهاجر بهم من أور، أرض الكلدانيين (في العراق)، وانتقل بهم إلى أرض كنعان، فأقاموا جميعاً في حاران.

ولن ندخل في التناقضات الكثيرة من حيث نسب إبراهيم وأعمار آبائه وأجداده، فهي كلها تدخل ضمن التخمينات التي تتناقض فيما بينها، كما تتناقض مع ما عرف من الآثار والتاريخ. فقد ورد في التوراة نفسها أن إبراهيم خرج من أرض أبيه وذهب إلى أرض الكنعانيين مع أن التوراة تذكر أن الذي بدأ الهجرة هو تارح أبو إبراهيم.

ولا تذكر التوراة شيئاً عن دعوة إبراهيم عليه السلام قومه للإيمان بالله وحده، كما لا تذكر قصة تحطيمه للأصنام، ورميه في النار وخروجه منها سالماً معافى. ولا تذكر

التوراة قصة جدال إبراهيم مع قومه الذين كانوا يعبدون الكواكب والشمس والقمر، وكيف أوضح لهم أن هذه الكواكب والنيرات إنما هي آفلة والله سبحانه وتعالى دائم البقاء. كما لا تذكر التوراة شيئاً عن قصة إبراهيم مع النمرود الذي اعتبر نفسه إلهاً مثل بقية الفراعين والطواغيت، لأن الله آتاه الملك. ولذا فهو يحيي ويميت. ولكن إبراهيم عليه السلام أخرسه وجعله يبهت عندما طلب منه أن يأتي بالشمس من المغرب بدلاً من المشرق.

ولا ترد مطلقاً قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه الذي كان يصنع الأصنام، ودعوة إبراهيم لأبيه ــ أو عمه ــ لكي يترك عبادة الأوثان ويتجه إلى عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد.

وقصة إبراهيم عليه السلام مع ابنه إسماعيل المعروضة في القرآن الكريم غير موجودة في التوراة، وخاصة تركه لابنه إسماعيل وهاجر في وادٍ غير ذي زرع وما تبع ذلك من رحمة الله ونبع ماء زمزم، ونمو إسماعيل، ثم قصة الذبح، وقصة بناء البيت.

وتبدأ القصة في التوراة **بسفر التكوين، الإصحاح ١٢** (بعد ذكر لمواليد سام إلى إبراهيم في الإصحاح ١١)... «وقال الرب لأبرام اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك. فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظِّم اسمك، وتكون بركة. وأبارك مباركيك، ولاعنك ألعنه، وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض. فذهب أبرام كما قال له الرب، وذهب معه لوط. وكان أبرام ابن خمس وسبعين سنة لما خرج من حاران» ماذا حدث لإبراهيم خلال الخمسة والسبعين عاماً الماضية؟! أمر تسكت عنه التوراة سكوتاً تاماً. تبدأ القصة كلها من هذا المشهد. مشهد إبراهيم وزوجته ساراي (سارة) وابن أخيه لوط بن هاران، وهم يتحركون خارجين من حاران إلى أرض كنعان مع جميع ما لديهم من مقتنيات وعبيد.

وحاران كما نعلم هي في سورية. وهي ليست بلاد إبراهيم، إذ إن بلاده وبلاد أبيه أور الكلدانيين (في العراق). ولكن التوراة قررت أن تارح ارتحل إليها هو وبنوه وزوجاتهم. ثم كان الأمر الثاني بالارتحال من حاران إلى أرض كنعان (فلسطين) «**واجتاز أبرام في الأرض إلى مكان شكيم** ــ هي مدينة نابلس الحالية في الضفة الغربية

لنهر الأردن في فلسطين ــ . **وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض. وظهر الربُّ لأبرام، وقال: لنسلك أعطي هذه الأرض. فبني هناك مذبحاً للرب** ــ لأن الرب حسب زعمهم لا يحب شيئاً مثل المذابح واللحم المشوي ــ **الذي ظهر له**. ثم نقل من هناك إلى الجبل شرقي بيت إيل ونصب خيمته. وله بيت إيل من المغرب وعاي ــ اسم مدينة ــ من المشرق. فبنى هناك مذبحاً للرب ــ ما أكثر المذابح والمحارق واللحم المشوي في هذه التوراة المحرفة ــ . ثم ارتحل أبرام ارتحالاً متوالياً نحو الجنوب».

«وحدث جوع في الأرض فانحدر أبرام إلى مصر ليتغرَّب لأن الجوع في الأرض كان شديداً، وحدث لما قرب أن يدخل مصر أن قال لساراي امرأته: إني علمت أنك امرأة حسنة المنظر ــ عمرها فوق السبعين ــ فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته فيقتلونني ويستبقونك. قولي إنك أختي ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي».

«فحدث لما دخل أبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جداً. ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون. فأُخذت المرأة إلى بيت فرعون، فصُنع إلى أبرام خير بسببها، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال». (سفر التكوين، الإصحاح ١٢: ١٠ ــ ١٦).

وهكذا تزعم التوراة المحرفة أن إبراهيم عليه السلام قدَّم زوجته لفرعون مصر حتى يصير له خير بسببها. وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد. . إلخ «وكان أبرام غنياً جداً في المواشي والفضة والذهب» بعد أن عرض زوجته لفرعون حسب زعمهم واشتغل ديوثاً. ألا لعنة الله على يهود.

وتكرر التوراة القصة مرة أخرى بعد مضي سنين طويلة أخرى.

ويذهب إبراهيم كما يزعمون إلى جرار بين قادش وشور. وقال إبراهيم عن سارة امرأته: إنها أخته وقدمها لأبيمالك ملك الفلسطينيين في منطقة جرار. ولما علم أبيمالك (أبو مالك) في الحلم أن سارة ليست أخت إبراهيم بل زوجته، قال له معاتباً: ماذا رأيت حتى عملت هذا الشيء؟ فقال إبراهيم: «وبالحقيقة أيضاً هي أختي ابنة أبي، غير أنها ليست ابنة أمي فصارت لي زوجة. وحدث لما أتاهني الله من بيت أبي أني

قلت لها: هذا معروفك الذي تصنعين إليّ، في كل مكان نأتي إليه قولي عني هو أخي. فأخذ أبيمالك غنماً وبقراً وعبيداً وإماءً وأعطاها لإبراهيم ورد إليه سارة امرأته. وقال أبيمالك هوذا أرضي قدامك. اسكن في ما حَسُنَ في عينيك. وقال لسارة إني قد أعطيت أخاك ألفاً من الفضة» (سفر التكوين، الإصحاح ٢٠: ١ ــ ١٦).

ونستخلص من هذه القصة وسابقتها ما يلي:

(١) **أن إبراهيم عليه السلام حسب زعمهم تزوج أخته من أبيه سارة.**

(٢) أن إبراهيم اتفق مع سارة أن تقول عنه أنه أخاها في كل مكان يذهبان إليه، خوفاً من أن يحصل له مكروه، وطمعاً في أن يحصل على الأموال الوفيرة، من عرض زوجته للملك كي يتزوجها حسب زعمهم.

(٣) رغم أن سارة كانت عجوزاً عقيماً عندما ذهبت مع إبراهيم لمصر إلا أن المصريين أغرموا بجمالها الفائق وعرضوها على فرعون فأخذها زوجة له!!.

(٤) رغم أن سارة كانت قد بلغت تسعين عاماً عندما بشرها الملائكة بإسحاق «وقال ــ إبراهيم ــ في قلبه: هل يولد لابن مئة سنة؟ **وهل تلد سارة وهي بنت تسعين؟!**» إلا أن هذه العجوز حسب زعمهم تسحر عقل أبيمالك ملك جرار ورجاله. هذا مع العلم أنها لم تذهب إلى جرار مع إبراهيم إلا بعد ولادة إسحاق. وبحيث نقدر أن عمرها في ذلك الوقت حسب زعمهم قد اقترب من المائة سنة على الأقل.

أبرام ولوط يفترقان بعد العودة من مصر:

تزعم التوراة أن لوطاً سار مع إبراهيم إلى مصر. وعندما خرجوا من مصر كانت أملاك إبراهيم وفيرة جداً، بسبب ما حصل عليه من فرعون، لقاء إعطائه زوجته سارة. وكذلك كان لوط. «ولوط السائر مع أبرام كان له أيضاً غنم وبقر وخيام. ولم تحتملهما الأرض أن يسكنا معاً. إذ كانت أملاكهما كثيرة جداً. فلم يقدرا أن يسكنا معاً. فحدثت مخاصمة بين رعاة مواشي أبرام ورعاة مواشي لوط. وكان الكنعانيون والفرزيون حينئذ ساكنين في الأرض. فقال أبرام للوط: لا تكن مخاصمة بيني وبينك وبين رعاتي ورعاتك، لأننا نحن أخوان. أليست كل الأرض أمامك؟ اعتزل عني». (سفر التكوين، الإصحاح ١٣: ١ ــ ٩).

«فرفع لوط عينيه ورأى كل دائرة الأردن أن جميعها سقي. فاختار لنفسه كل دائرة الأردن. وارتحل لوط شرقاً فاعتزل الواحد عن الآخر. أبرام سكن في أرض كنعان ولوط سكن في مدن الدائرة ونقل خيامه إلى سدوم». (سفر التكوين، الإصحاح ١٢: ١٠ ـ ١٣).

الرب يعطي أرض كنعان لأبرام ونسله إلى الأبد، حسب زعم التوراة:

«وقال الرب لأبرام بعد اعتزال لوط عنه: **ارفع عينيك وانظر من الموضع الذي أنت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، لأن جميع الأرض التي ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد. وأجعل نسلك كتراب الأرض. حتى إذا استطاع أحد أن يعد تراب الأرض فنسلك أيضاً يُعدّ.** قم امشِ في الأرض طولها وعرضها. لأني لك أعطيها. فنقل أبرام خيامه وأتى وأقام عند بلوطات ممراً التي في حبرون ـ مدينة الخليل الآن ـ . **بنى هناك مذبحاً للرب**». (سفر التكوين ١٣: ١٤ ـ ١٧).

وواضح جداً من هذه المزاعم أن اليهود يدّعون أن الله أعطى أرض فلسطين لإبراهيم ولنسله، والمقصود من نسله أولاد اسحاق «لأنه بإسحاق فقط يدعى لك نسل» حسب زعمهم كما أن المذابح والحرائق لا تنتهي من التوراة المحرفة.

ويذكر الإصحاح الرابع عشر من سفر التكوين من التوراة المحرفة، أن ملوك فلسطين وما حولها جميعهم أكرموا إبراهيم عليه السلام، وأحسنوا وفادته، حتى إذا حدثت حروب بين هؤلاء الملوك، كما هو معتاد في ذلك الزمان، أخذوا من وجدوه من المنهزمين وأبنائهم وبناتهم عبيداً لهم. وتذكر التوراة (المحرّفة) أنّ حرباً وقعت بين مجموعة من الملوك المتحالفين: خمسة ضد أربعة ملوك، وسقطت سدوم، وهرب ملكها، ووقع لوط في الأسر. فذهب إبراهيم مع حلفائه واستنقذ لوطاً وأملاكه.

وهكذا وقف هؤلاء الفلسطينيون بشهامة مع إبراهيم عليه السلام. . كما وقف معه كثير من ملوكهم وملوك منطقة الأردن. حتى إن ملك سدوم خرج هو وملك شاليم الذي يدعى ملكي صادق، خرجا لاستقبال إبراهيم. «وكان ملكي صادق كاهناً لله العلي، وباركه وقال مبارك أبرام من الله العلي مالك السموات والأرض». وتوثق العهد بين

إبراهيم وملوك هذه المنطقة بعد هذه الوقعة (سفر التكوين ١٤).

وتحدث الرب بعد ذلك لأبرام في الرؤيا وعاتب أبرامُ الربَّ حسب زعمهم «وقال له أبرام إنك لم تعطني نسلاً. وهوذا ابن بيتي وارث لي. فإذا كلام الرب إليه قائلاً: **لا يرثك هذا بل الذي يخرج من أحشائك هو يرثك** ــ إنما يخرج الطفل من أحشاء المرأة ــ ثم أخرجه إلى خارج وقال انظر إلى السماء وعد النجوم إن استطعت أن تعدها. وقال له هكذا يكون نسلك».

وهكذا تزعم التوراة أن نسل إبراهيم من إسحاق «لأنه بإسحاق فقط يدعى له نسل» سيكونون مثل تراب الأرض ومثل نجوم السماء، ورغم مضي حوالي أربعة آلاف سنة من هذا الوعد، فإن نسل إبراهيم من إسحاق لا يزيدون عن ١٥ مليون. هذا مع العلم أن معظم هؤلاء ليسوا من نسل إبراهيم عليه السلام مطلقاً بل من الأمم التي تهودت مثل عرب اليمن، وبعض الأحباش، ويهود الخزر، (بحر قزوين وهم يهود روسيا وبولندا والدول الاشتراكية) ومعظم يهود أوربا.. إلخ.. وهكذا يبدو كذب هذا الوعد الذي اخترعه أحبار يهود الذين كتبوا التوراة المحرفة.. والذين زعموا أن الرب قال لأبرام «**لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير، نهر الفرات**» بعد أن قطع معه العهود والمواثيق المدعمة باللحم المشوي والمذابح والمحارق.

قصة سارة وإذلالها لهاجر:

ولما رأت سارة أنها لا تلد وأنها قد بلغت من العمر عِتِيّاً، قالت لأبرام «هوذا الرب قد أمسكني عن الولادة. ادخل على جاريتي. لَعلّي أُرزق منها بنين. فسمع أبرام لقول ساراي... ودخل على هاجر فحبلت» وغارت ساراي جداً بعد حمل هاجر وخاصمت إبراهيم وقالت له: «ظلمي عليك» فقال لها إبراهيم: «هوذا جاريتك في يدك افعلي بها ما يحسن في عينيك» فأذلتها ساراي، فهربت هاجر من وجهها. فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البرّيّة، على العين التي في طريق شور، وقال: يا هاجر جارية ساراي من أين أتيت؟ وإلى أين تذهبين؟ فقالت: أنا هاربة من وجه مولاتي ساراي. فقال لها ملاك الرب: ارجعي إلى مولاتك واخضعي لها». (سفر التكوين،

الإصحاح ١٥). «وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلى فتلدين ابناً. وتدعين اسمه إسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك. وإنه يكون إنساناً وحشياً. يده على كل واحد ويد كل واحد عليه».

وهكذا تزعم التوراة أن ساراي أذلت هاجر وعاملتها معاملة حقيرة سيئة بمباركة إبراهيم وبمباركة ملاك الرب!! لماذا لأن ساراي ستكون أم إسحاق، وإسحاق والد يعقوب، ويعقوب هو إسرائيل، ولذا يحق لبني إسرائيل أن يذلوا جميع الأمم. فإذا كان لساراي الحق أن تذل هاجر، وتذل إسماعيل ابنها عندما رأته فيما بعد يضحة ويلعب مع ابنها. فقالت لإبراهيم: إن إسماعيل وأمه ينبغي أن يرميا في الصحراء، لأن إسماعيل ابن الجارية ضحك ولعب مع ابني إسحاق. وأطاعها إبراهيم فوراً. لأن الرب وملاك الرب قالا له: لكل ما تأمرك ساراي افعل ولها تطيع، والخدر من مخالفة أي أمر لساراي، ولو كان هذا الأمر هو الظلم المحض. فإن ساراي هي أم إسحاق.. وبإسحاق فقط يدعى لك نسل.

«ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذي ولدته لإبراهيم يمزح فقالت لإبراهيم: اطرد هذه الجارية وابنها لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحاق. فقبُح الكلام جداً في عيني إبراهيم لسبب ابنه. فقال الله لإبراهيم: لا يقبح في عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك. في كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها لأنه بإسحاق يُدعى لك نسل» (سفر التكوين، الإصحاح ٢١: ٩ ــ ١٢).

العهد مع إبراهيم بالختان:

قد سبق أن ذكرنا أهمية الختان في العقائد التوراتية، على اعتبار أن الدم هو العلامة التي تربط بني إسرائيل بالرب. ولهذا يعتبر الختان في العقائد التوراتية علامة على الرابطة الدموية القوية بين الله وأبنائه اليهود ــ لعنة الله عليهم ــ. وقد ورد في التوراة أن صفورة زوجة موسى استطاعت أن تنقذ ابنها وبكرها من يدي الرب عندما همَّ بقتله، وذلك عندما أسرعت صفورة وأخذت الغلام من يدي الرب ــ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ــ وقطعت غرلة الغلام ومسحت ساقي الرب بدم الغرلة. وقالت: «عريس دم من أجل الختان» فترك الرب ــ لعنة الله وملائكته والناس أجمعين على اليهود أبد الآبدين ــ الغلام. وقال: «عريس دم من أجل الختان.».

ويبدأ العهد مع إبراهيم بتقديم المحارق واللحم المشوي وينتهي بدم الختان. جاء في (سفر التكوين الإصحاح ١٧) : «ولما كان أبرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الربُّ لأبرام، وقال له: أنا الله القدير. سر أمامي وكن كاملاً فأجعل عهدي بيني وبينك، وأكثّرك كثيراً جداً. فسقط أبرام على وجهه. وتكلم الله معه قائلاً: أما أنا فهو ذا عهدي معك، وتكون أباً لجمهور من الأمم فلا يدعى اسمك بعدُ أبرام، بل يكون اسمك إبراهيم. **وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك ــ من إسحاق فقط حسب زعمهم ــ من بعدك في أجيالهم عهداً أبدياً، لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك. وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك، كل أرض كنعان ملكاً أبدياً وأكون إلههم**».

وهي صورة مختلفة جد الاختلاف مع ما ورد في القرآن الكريم قال تعالى :

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾. (البقرة: ١٢٤).

فالعهد في التوراة أبدي لإبراهيم ونسله من إسحاق فقط. مهما فعلوا أو بدلوا أو غيّروا أو عبدوا الأوثان. والعهد لا يتضمن أنهم يفعلون الخير ويدعون الناس إلى عبادة الله وحده، بل لهم رب خاص من دون الناس جميعاً. ونسبتهم إليه كنسبة الابن إلى أبيه، لأنهم جزء منه. وفي مقابل ذلك يعطيهم أرض كنعان (فلسطين) إلى أبد الآبدين. وهذه هي عقيدة يهود. وقد صرح زعماؤهم مئات المرات بأن أرض فلسطين كلها بما في ذلك الضفة الغربية، هي أرض التوراة التي وعدها الرب لإبراهيم وبنيه. ولهذا ما دامت هناك أرض كنعان فلا بد أن يطرد منها ساكنوها ليحل محلهم أبناءُ الله وأحباؤه، شعب الله المختار. لأنهم قد حفظوا عهد الله معهم كما أوصت التوراة: «**وقال الله لإبراهيم وأما أنت فتحفظ عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك. يُختَنُ منكم كل ذكر. فتُختنون في لحم غرلتكم. فيكون علامةَ عهدٍ بيني وبينكم. ابن ثمانية أيام يُختَنُ منكم كل ذكر في أجيالكم. يُختَن ختاناً وليدُ بيتك والمبتاع بفضتك. فيكون عهدي في لحمكم عهداً أبدياً. وأما الذكر الأغلف الذي لا يختنُ في لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها أنه قد نكث عهدي**». (سفر التكوين، الإصحاح ١٧ : ٩ ــ ١٤).

كل الجرائم تهون عند هذا الرب الذي تصفه التوراة المحرفة، ما عدا دم الختان ولحم الغرلة فهو مغرم جداً به وباللحم المشوي. ومستعد أن يضحي بكل شيء ما دام اللحم المشوي يقدم في المواعيد المحددة، وما دام الختان جارياً، وعلامة الدم مستمرة في لحم الغرلة. ولا يهم بعد ذلك أن يعبد اليهود ــ أبناءُ الله وأحباؤه ــ الأوثان، كما لا يهم أن يقتلوا أو يسرقوا أو يزنوا. كل الجرائم تهون ما دام لحم الغرلة يقطع علامة على العهد الوثيق مع الله. أما النفس التي ترفض الختان أو لا تختن لأي سبب، فتقطع تلك النفس من شعبها لأنها نكثت العهد.

وعندما أتم إبراهيم تنفيذ الختان، أعلن الله له أن ساراي ستلد له ولداً «وسقط إبراهيم على وجهه وضحك. **وقال في قلبه: هل يولد لابن مئة سنة؟ وهل تلد سارة وهي بنت تسعين؟! وقال إبراهيم لله: ليت إسماعيل يعيش أمامك. فقال الله بل سارة تلدُ لكَ ابناً وتدعو اسمه إسحاق. وأقيم عهدي معه عهداً أبدياً لنسله من بعده... عهدي أقيمه مع إسحاق الذي تلده لك سارة في هذا الوقت من السنة الآتية. فلما فرغ من الكلام معه صعد الله عن إبراهيم**» (سفر التكوين ١٧ : ١٨ ــ ٢٢).

وهكذا تصور التوراة المحرفة المولى سبحانه وتعالى بأنه شخص يتجسد في صورة بشرية، ويتكلم مع الأنبياء ويتصارع معهم أحياناً، ــ كما تصارع مع يعقوب طوال الليل حتى طلوع الفجر ــ. ويحب اللحم المشوي جداً، وهو مغرم بدم الختان لدرجة مزعجة جداً. وليس له من عمل إلا إقامة العهد مع ابنه البكر إسرائيل!!! وكثيراً ما يظهر الرب بصورة بشرية للأنبياء، كما يختلط تعبير الرب بالملاك اختلاطاً شديداً في جميع أسفار العهد القديم.. فقد جاء في قصة إبراهيم (سفر التكوين، الإصحاح ١٨).

«**وظهر له ــ أي إبراهيم ــ الرب عند بلوطات ممرا، وهو جالس في باب الخيمة وقت حَرِّ النهار، فرفع عينيه ونظر وإذا ثلاثة رجال واقفين لديه. فلما نظر، ركض لاستقبالهم من باب الخيمة، وسجد إلى الأرض. وقال يا سيد إن كنتُ قد وجدت نعمة في عينيك فلا تتجاوز عبدك. ليؤخذ قليل ماء واغسلوا أرجلكم، واتكئوا تحت الشجرة، فآخذ كسرة خبز فتسندون قلوبكم ثم تجتازون، لأنكم قد مررتم على**

عبدكم. فقالوا: **هكذا نفعل كما تكلّمت**. فأسرع إبـراهيم إلى الخيمة، إلى سـاراي. وقال: أسرعي بثلاث كيلات دقيقاً سميداً. اعجني واصنعي خبز مَلّة. ثم ركض إبراهيم إلى البقر، وأخذ عجلاً رخصاً وجيـداً، وأعطاه للغـلام، فأسـرع ليعمل. ثم أخـذ زبداً ولبنـاً والعجل الـذي عمله ووضعها قـدامهم. **وإذ كان هـو واقفاً لـديهم تحت الشجـرة أكلوا»**.

وهكذا يختلط الحابـل بالنـابل، ويتخيـل كاتب التـوراة المحرفـة ــ عليه لعنـات الله ــ أن الله يقف في صورة بشر، ثم تختلط الرؤية فـإذا هم ملائكـة في صورة بشـر. لكنهم أيضاً يحبون السمن والخبـز والعجل، فيـأكلون منه، ويـرتاحـون تحت الشجرة، ويسندون قلوبهم بأكلة ترد الروح!!.

وبعد الوجبة الدسمة، قال الرجال: أين سارة؟ فجاءت سـارة، وبشروهـا بغلام. فضحكت سارة في سرها من هذا الكلام. «وقال الرب لإبراهيم: لمـاذا ضحكت سارة قائلة: أفبالحقيقة ألد وأنـا قد شخت؟! هـل يستحيل على الـرب شيء؟ فأنكـرت سارة قائلة: لم أضحك لأنها خافت. فقال: لا بل ضحكت». (التكوين ١٨: ٩ ــ ١٥).

«ثم قام الرجال وتطلعوا نحو سـدوم، وكان إبـراهيم ماشيـاً معهم ليشيّعهم. فقال الرب: هل أخفي عن إبراهيم ما أنا فاعله؟» وقـرر الرب أن لا يخفي حسب زعمهم أي شيء عن إبـراهيم. لأن إبراهيم قـد ارتبط بعهد الختـان مـع الـرب. ختـان في غـرلـة اللحم... مع جميع نسله.. دم.. دم.. لهـذا لا يستطيـع الرب ــ حسب زعمهم ــ أن يخفي أي شيء عن إبـراهيم.. وتكلم إبراهيمُ مـع الرب قـائلاً: أفتهلك البـار مـع الأثيم؟ عسى أن يكـون خمسون بـاراً في المدينـة. أفتهلك المكان ولا تصفـح عنه من أجـل الخمسين؟ فقال الـرب: إن وجـدت في سـدوم خمسين بـاراً فـإني أصفـح عن المكـان من أجلهم. وبدأ إبـراهيم ينقص العدد خمسـة خمسـة، حتى وصلوا لعشـرة. فقـال الرب: لا أهلك من أجـل العشـرة. **وذهب الـربُّ عنـدمـا فـرغ من الكـلام مـع إبراهيم، ورجع إبراهيم إلى مكانه»**. (سفر التكوين ١٨: ١٦ ــ ٣٢).

وسنذكر قصة لوط في مكانها فيما بعد، إن شاء الله تعالى.

سارة تحمل وتلد إسحاق حسب الوعد والعهد:

«وافتقد الرب سارة كما قال. ــ ما معنى هذه الجملة؟ ــ وفعل الرب لسارة كما تكلم. وولدت لإبراهيم ابناً في شيخوخته. في الوقت الذي تكلم الله عنه. وختن إبراهيم إسحاق ابنه وهو ابن ثمانية أيام كما أمره الله. وقالت سارة: قد صنع الله إليّ ضحكاً. كل من يسمع يضحك لي». وغضبت سارة على هاجر وابنها عندما رأت إسماعيل يمزح مع إسحاق. وقالت لإبراهيم: اطرد هذه الجارية وابنها كما تقدم معنا. وسمع إبراهيم لقولها لأن الرب قال له: في كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها، لأنه بإسحاق يدعى لك نسل.

وأخذ إبراهيم هاجر وابنها، وأعطاها خبزاً وقربة ماء وصوفها. فمضت هاجر وتاهت في برية بئر سبع. ولما فرغ الماء من القربة، طرحت الولد تحت الأشجار، ومضت وبكت. فسمع الله صوت الغلام. وأبصرت هاجر بئر ماء، فذهبت وملأت القربة وسقت الغلام. وكان الله مع الغلام، فكبر وسكن في البرية. وكان ينمو رامي قوس. وسكن في برية فاران. وأخذت له أمه زوجة من مصر (وهذه القصة مخالفة لما في القرآن والسنة من قصة إسماعيل في كثير من التفاصيل).

وتذكر التوراة أن الملك أبيمالك وقائد جيشه فيكول، كلّما إبراهيم قائلين: «احلف لنا بالله أنك لا تغدر بنا ولا بنسلنا» وهو أمر غريب جداً أن يحدث هذا من الملك لهذه الأرض وقائد جيشه، إذ إن إبراهيم غريب في أرضهم وهم المحسنون إليه. وحفر إبراهيم بئراً، وأعطى أبيمالك سبع نعاج، وقال له: «إنك سبع نعاج تأخذ من يدي لكي تكون لي شهادة بأني حفرت هذه البئر. لذلك دعا ذلك الموضع بئر سبع. لأنهما حلفا هناك كلاهما وقطعاً ميثاقاً» (سفر التكوين، الإصحاح ٢١).

وهو أمر يتناقض مع ما ذكر قبل عدة أسطر فقط، من أن بئر سبع نبعت عندما صرخ إسماعيل من العطش، وأمه معه في البرية، بعد أن تركهما إبراهيم هناك حسب زعمهم.

ذبح إسحاق:

وظهر الرب كما تذكر التوراة، وقال لإبراهيم: «خذ ابنك وحيدك الذي تحبه

إسحاق واذهب إلى أرض المُريَّا، وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال». وأخذ إبراهيم حطباً للمحرقة، وصعد الجبل، وقال إسحاق لأبيه: «يا أبي هوذا النار والحطب، ولكن أين الخروف للمحرقة؟ فقال إبراهيم: الله يرى له الخروف للمحرقة يا بني». واستعد إبراهيم لذبح ابنه إسحاق فناداه ملاك الرب: «لا تمد يدك إلى الغلام. وأخذ إبراهيم الكبش وأصعده محرقة، عوضاً عن ابنه. فدعا إبراهيم اسم ذلك الموضع يهوه يراه.

وقال الرب: إني من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك. أباركك مباركة وأكثّرُ نسلك تكثيراً كنجوم السماء، وكالرمل الذي على شاطىء البحر، ويرث نسلك باب أعدائه» (التكوين ٢٢).

موت سارة:

ماتت سارة عندما بلغ عمرها ١٢٧ سنة كما تقول التوراة، في قرية أربع، التي هي حبرون ــ أي مدينة الخليل ــ «فأتى إبراهيم ليندب سارة ويبكي عليها. وقام إبراهيم من أمام ميته وكلم بني حثّ قائلاً: أنا غريب ونزيل عندكم، فأعطوني مُلك قبرٍ لأدفن ميتي من أمامي، فأجاب بنو حث: اسمعنا يا سيد! أنت رئيس من الله بيننا. في أفضل قبورنا ادفن ميتك. لا يمنع أحدٌ منا قبره عنك حتى لا تدفن ميتك. فقام إبراهيم وسجد لشعب الأرض لبني حث». (سفر التكوين ٢٣). وهكذا كان بنو حث في منتهى النبل والأخلاق والكرم مع إبراهيم عليه السلام. وكذلك كان معه ملك الفلسطينيين أبيمالك. ولكن التوراة لا تظهر لهم إلا الغل والحقد والذبح والقتل، رغم كل ما فعلوه من إكرام لإبراهيم وإسحاق ويعقوب. وهكذا تزعم التوراة المحرفة أن أخلاق الأنبياء حقيرة مثلهم. وتقابل المعروف بالشر. . فكم خادع إسحاق وكم خادع يعقوب ــ حسب زعمهم ــ وكم قتل من أهل تلك الأرض الطيبة المعطاءة!! وكم وكم قتل موسى وتلميذه يشوع (يوشع بن نون). . . وكم من الجرائم المروعة ارتكباها حسب زعم التوراة المحرفة، حتى أنهم لم يتركوا طفلاً ولا شيخاً ولا امرأة. قتلوا الكل، حتى الحيوانات أبادوها.

وتزعم التوراة أن داود أيضاً قام بنفس المهمة، وأقام الحرائق ونشر المناشير،

وقتل النساء والأطفال والشيوخ والرضع مع جميع البهائم. حرَّمها جميعاً أي إبادة أبادها كما أمر الرب!!!

وتنتهي قصة حياة سارة بدفنها في مغارة المكفيلة من حبرون ـ مدينة الخليل ـ تلك المغارة التي تزعم التوراة أن إبراهيم عليه السلام أصرَّ على أن يشتريها من بني حث ليدفن زوجته، ولتكون له ولأولاده من بعده مدفناً..

زواج إبراهيم من قطورة:

وما يكاد إبراهيم ينتهي من دفن سارة حتى يتخذ له زوجة اسمها قطورة. وولدت له حسب زعم التوراة ستة من الأبناء هم زمران ويتشان ومدان ومديان ويشباق وشوحا.. كما كان له عدد آخر من الأبناء والبنات من السراري. وهؤلاء جميعاً لا يدخلون في نسل إبراهيم!! لأنه بإسحاق وحده يدعى له نسل!!!

وقام إبراهيم وأعطى أبناءه هؤلاء أعطيات وصرفهم عن إسحاق ابنه إلى أرض المشرق، وهو بعد حي. وعاش إبراهيم ١٧٥ سنة. «وأسلم إبراهيم روحه ومات بشيبة صالحة وشبعان أياماً». كما تقول التوراة. ودفنه ابناه إسحاق وإسماعيل في مغارة المكفيلة في أرض بني حث بجانب سارة امرأته.

وهكذا تنتهي قصة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام في التوراة المحرفة. فلا نجد فيها إلا لمحات قليلة تضيء هنا وهناك. وما عدا ذلك فركام وغثاء ومزبلة تثير التقزز من رجل يكذب، ويتزوج أخته، ثم يقدمها للملوك لأجل العثور على الأموال. وعلاقته بربه وطيدة، بسبب اللحم المشوي والقرابين التي يقدمها، ولهذا يأخذ بالمقابل عهوداً له ولأولاده بأخذ أراضي الغير من النيل إلى الفرات، عهداً أبدياً موثقاً بالدم.. دم الختان.. دم الغرلة التي تقطع عند اليوم الثامن من الولادة. عهد رهيب.. من لم يختن يموت موتاً. وتنقطع هذه النفس من شعب إسرائيل. لأن الرب قد وضع علامة يعرف بها أبناءه. فإذا ذهبت تلك العلامة لم يعرفهم!! الدم.. الختان.. الغرلة.. المحارق.. اللحم المشوي.. إلخ... هذه هي قصة الأنبياء. وتتكثف بصورة خاصة في أيام إبراهيم وأبنائه.. ولا يدعى له نسل إلا من إسحاق.. ولا يدعى لإسحاق نسل إلا من يعقوب المخادع الكذاب حسب وصفهم وهكذا دواليك.

وهي كلها توضح أحقاد أحبار يهود الذين كتبوا هذه التوراة المحرفة ﴿فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾.

إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم:

نرى الصورة مغايرة كل المغايرة لتلك التي ترسمها لنا التوراة عن شخصية إبراهيم. القرآن الكريم يصور إبراهيم عليه السلام رجلاً كامل النقاء، كامل الصفاء، كامل الحب لله ولعباد الله. ﴿إن إبراهيم لحليم أواه منيب﴾. إبراهيم الذي عاش عمره المدين كله في حب الله والدعوة إليه. إبراهيم عليه السلام الذي يواجه الابتلاء إثر الابتلاء بصبر عجيب ورضا كامل. صورة فذة لا تكاد تتملاها العين حتى تمتلىء بها حباً وإعجاباً. صورة الحلم الكامل، والأناة الكاملة، والحب الكامل لله، الذي يصغر أمامه كل حب، حتى حب الشيخ الفاني لولده وأي ولد!!! ولد كله أناة ومحبة ووداعة وشجاعة وثبات. تأتيه رؤيا ــ يمكن أن يعتذر عنها بأنها مجرد رؤيا ــ بأن يقتل ابنه فلذة كبده، فيبادر لتنفيذ الأمر، ولكنه لا يحب أن يفجأ هذا الغلام البار، فيخبره بالرؤيا ويقول: ﴿إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى؟﴾ فيرد الغلام على الفور ﴿يا أبت افعل ما تؤمر. ستجدني إن شاء الله مع الصابرين﴾. ها هنا تتجلى المحنة والبلاء في أقسى ما يمكن أن يتصوره إنسان. يأخذ إبراهيم السكين. ويكبُّ الغلام على وجهه، وتتحرك يداه للذبح، ولكن السكين تفقد قدرتها على القطع تماماً كما فقدت النار قدرتها معه على الإحراق. انتهى الابتلاء لأن إبراهيم ذبح كل شيء في قلبه لا يخفق بالحب لله، حتى حب الولد الذي يأتي بعد طول انتظار، يذبحه إبراهيم من قلبه، ويبقى ذلك القلب متجرداً للحب الإلهي بصورته الكاملة النقية التي لا يشبهها أي حب. لذا كان إبراهيم خليل الله. ومن نسل إبراهيم ومن نسل الذبيح إسماعيل يبرز محمد صلى الله عليه وآله وسلم ليكون حبيب الله وخليله أيضاً. هذه هي القمة التي لم يصل إليها أحد قط من البشر سوى محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام.

وترد قصة إبراهيم عليه السلام متفرقة في سور كثيرة من القرآن الكريم كما هو معهود في المنهج القرآني. حيث ترد فقرات من القصة تليق بالمقام وتؤدي الغرض المطلوب، فتأتي بالعبرة والموعظة والتثبيت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وترد ملامح من حياة إبراهيم عليه السلام المديدة في سور عديدة: في سورة البقرة، وآل عمران، والأنعام، والتوبة، وهود، ومريم، وطه، والأنبياء، والحج، والشعراء، والعنكبوت، والفرقان، والصافات.

ولد إبراهيم عليه السلام لأب (أو عم) يصنع الأوثان ويعبدها ويتكسب من ورائها الأموال والمكانة في المجتمع. ولا تقبل نفس إبراهيم عليه السلام أن يرى هذه الآلهة التي تصنع في البيت من الطين ومن الخزف ومن النحاس ومن غيرها من المواد، ثم ينحني الناس لها بالعبادة ويتقدمون إليها بالقرابين.

دعوة أبيه:

ويوماً بعد يوم اتضحت الحقيقة كاملة في نفس إبراهيم عليه السلام. إن أباه آزر وقومه في ضلال مبين. وتقدم الفتى اليافع إلى أبيه بكل الحب والأدب والإخلاص، ينبهه إلى ما هو فيه من الضلال وعبادة الأوثان، وأن على والده أن يتجه لعبادة الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد.

قال تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾. (مريم: ٤١ ــ ٤٨).

دعوة قومه لترك عبادة الأوثان:

وانتقل إبراهيم عليه السلام من دعوة أبيه إلى دعوة قومه. قال تعالى:

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ

﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا
يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾
وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ
يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾
يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا
فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ
قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾. (العنكبوت: ١٦ ــ ٢٤).

وترد قصة إبراهيم عليه السلام وتحطيمه للأصنام إلا كبيراً لهم في سورة الأنبياء، وفي سورة الشعراء، ، وفي سورة الصافّات. وفي كل سورة ترد مقاطع وإشارات لا ترد في السور الأخرى، تحقيقاً للغرض الأسمى من عرض القصة. وهو الموعظة والعبرة والتثبيت، حسبما يقتضيه جو السورة وسياقها.

قال تعالى في سورة الأنبياء:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا
هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ
أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ
رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ
أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ
﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ
إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا

بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

(الأنبياء: ٥١ ــ ٧٠).

وهكذا نجد الفتى إبراهيم عليه السلام يحاجّ قومه بالحكمة، فلما رأى أن ذلك لم يُجْدِ معهم فتيلاً، عمد إلى أصنامهم في يوم عيد من أعيادهم، حيث يضعون القرابين والطعام أمام تلك الآلهة، فضربها جميعاً بالفأس إلاّ كبيرهم وهو يسخر من هذه الآلهة الصماء العمياء قائلاً لها ﴿ألا تأكلون﴾. وجعلها إبراهيم عليه السلام جُذاذاً وحطاماً، وعلّق الفأس على عنق كبير الآلهة. وصدم القوم عند عودتهم. هذه الآلهة التي يعبدونها محطمة مجندلة ﴿قالوا من فعل هذا بآلهتنا، إنه لمن الظالمين. قالوا سمعنا فتىً يذكرهم يقال له إبراهيم﴾ على سبيل التصغير والتحقير لشأن هذا الذي حطَّم آلهتهم. وجاءوا بإبراهيم عليه السلام على مشهدٍ من الملأ، وبدأوا التحقيق معه: ﴿أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟ قال: بل فعله كبيرهم هذا﴾ ــ ولا يزال الفأس معلقاً في عنقه ــ ﴿فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾. إنهم يعلمون تمام العلم أنَّ هذه الآلهة لا تنطق، بل هي بكماء صماء عمياء خرساء، لا تدفع عن نفسها أذى. وسُقِط في أيديهم. واعترفوا بأنهم هم الظالمون، لأنهم يعبدون هذه الآلهة التي لا تدفع عن نفسها الضُرَّ، فكيف تدفعه عن غيرها!!؟ ثم عادوا وانتكسوا على رؤوسهم، وامتلأت قلوبهم ظلماً وظلاماً وتعصباً لهذه الآلهة التي يرتزق من ورائها الكهان والسدنة. وقالوا لإبراهيم عليه السلام في عناد غبي وقح ﴿لقد علمتَ ما هؤلاء ينطقون. قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضرّكم. أفٍ لكم ولما تعبدون من دون الله﴾ ها هنا انتهى الجدل. لم يعد لديهم ما يقولونه. انتهى المنطق والعقل، ولا بد إذن من اللجوء إلى القوة، كما يفعل

الطواغيت دائماً في كل مكان وزمان. ﴿قالوا حَرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين. قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾.

وضعوه في المنجنيق وأججوا النار العظيمة. واجتمع الملأ والشعب ليشهدوا منظر إحراق إبراهيم عليه السلام. وكانت المفاجأة. وكانت المعجزة. جاء جبريل عليه السلام ــ وإبراهيم في الهواء معلق في المنجنيق قبيل قذفه إلى النار مباشرة ــ وقال له: ألك حاجة؟ فقال إبراهيم أمَّا لكَ فلا. لأنه لا حاجة به إلى مخلوق مهما كان هذا المخلوق. فتوكله التام الكامل، على الله وحده. فجعل الله النار برداً وسلاماً على إبراهيم. أفقدها قدرتها على الإحراق، وجعلها نعيماً، وهواء منعشاً، وسلاماً لإبراهيم عليه السلام. وكان القوم يرون النار تتلظَّى وتقذف بالحمم، وتشوي وجوههم من على البعد، وتَرهَقُهم منها قترة، ومن دخانها ظلمة تسودُّ منها الوجوه. وإبراهيم عليه السلام يتنعم فيها. ويروى أن إبراهيم عليه السلام قال بعد خروجه من النار: «ما كنت أياماً وليالي أطيب عيشاً إذ كنت فيها. ووددت أن عيشي وحياتي كلها مثل إذ كنت فيها»[1].

وما أن خمدت النار، وخرج إبراهيم منها سالماً، إلا وانعقدت الألسن وتجمدت الكلمات على الشفاه، ودارت الأعين في محاجرها من فرط الدهشة وهول المفاجأة. ها هو إبراهيم يخرج من النار المتلظية سليماً معافى، لم تحرق منه سوى الوثاق الذي أوثقوه به عند رميه في النار.

محاجَّةُ إبراهيم عليه السلام لعبدة الكواكب والنجوم والشمس والقمر:

وانتقل إبراهيم عليه السلام من هذه الفرقة التي كانت تعبد الأوثان إلى فرقة أخرى تعبد الكواكب والنجوم والشمس والقمر. وكعادته في التلطف إلى دعوة قومه، وتنبيههم إلى الباطل الذي يعيشون فيه، بالحكمة والأدب الجم، بدأ إبراهيم عليه السلام دعوته، بأن خرج إلى قومه معلناً لهم ــ من باب المنهج العقلي في الاحتجاج على الخصم ــ أن هذا الكوكب المضيء الشديد اللمعان هو ربه. وكان فريق من قومه يعبدون الزُهرة ويسمونها عشتروت ــ ويسميها اليونان والرومان فينوس ــ، وبقي معهم حتى أفلت الزهرة، فلما أفلت، قال

(١) ابن كثير: «قصص الأنبياء»، ص ١٤٠.

لهم: إني لا أحب الآفلين. ولا يمكن أن يكون إلّهي يظهر ويغيب، فربي باقٍ دائم الحضور. وبدأ الإيمان بالزهرة لدى قومه يهتز. وفي الليلة التالية خرج مع فريق من قومه يعبدون القمر ﴿فلما رأى القمر بازغاً. قال: هذا ربي. فلما أفل، قال: لئن لم يهدني ربي لأكونَنَّ من القوم الضالين﴾. واهتز الإيمان بالقمر لدى هذه الفرقة أيضاً. فلما طلع الصبح وبزغت الشمس، قال إبراهيم عليه السلام ﴿هذا ربي هذا أكبر. فلما أفلت، قال: يا قوم إني بريء مما تشركون. إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرضَ حنيفاً وما أنا من المشركين﴾. وهكذا تساقطت الآلهة الكونية واحدةً وراء الأخرى: الزُهرة والقمر والشمس. واجتمع الملأ من القوم، وعرفوا أن إبراهيم يهدد عقيدتهم ومصالحهم في الصميم.

وبدأوا في محاجته وتخويفه وإرعابه من هذه الآلهة:

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾..

وخرست الألسن أمام هذه الحجج الناصعة، وجاء التعقيب من المولى سبحانه وتعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ ۖ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾. (الأنعام: ٨٠ ــ ٨٣).

محاجة إبراهيم للنمروذ:

كان مجتمع إبراهيم عليه السلام يعبد آلهة متعددة متنوعة. أنواعٌ مختلفة من التماثيل، وأنواع من الكواكب والنجوم. عبّاد للشمس والقمر، وعبّاد للنمروذ الملك الطاغية الجبار. وليس هذا الأمر غريباً، فهذه المجتمعات الوثنية تحتمل تعدد الآلهة

المختلفة. ورغم ما يكون بين هذه الآلهة نفسها من صراع ومعارك إلا أن عبّادها رغم اختلافهم تتسع صدورهم لعبادة آلهة كثيرة مخالفة لآلهتهم. بل لا يجدون غضاضة في مشاركة الآخرين عبادة هذه الآلهة الجديدة. لهذا فإن المجتمعات الوثنية تعج بمئات الآلهة. هذا إلٰه للخصب، وهذه الإلٰهة للمطر، وهذا إلٰه للحرب، وهذا إلٰه للحب، وهذا إلٰه للخمر، وهذه الآلهة للصيد، وهذه للشفاء من أمراض معينة، وتلك تُعبد حتى يفيض النهر، وأخرى يقربون إليها القرابين لاتقاء شرها وأذاها، وهكذا... وللنجوم دور في العبادة وللقمر والشمس مكان في قلوبهم. وللبشر الآلهة مكان وأي مكان. فكما تزعم التوراة أن الجبابرة هم من نسل أبناء الله، فكذلك يزعم أولئك الطغاة منذ أقدم الأزمنة إلى يومنا هذا... وهكذا كان يزعم الفراعنة في مصر، وهكذا كان يزعم أباطرة الروم، وهكذا كان يزعم ملوك بابل، وأكاسرة الفرس، وأباطرة الصين، وملوك الهند، وآخرهم أباطرة اليابان.

الغريب حقاً أن ماوتسي تونج مفجر الثورة الشيوعية الإلحادية في الصين وقائدها، قال لمراسل الأوبزرفر «Observer» البريطانية، في عام ١٩٧٠ م بعد إجراء تحقيق طويل معه: «إذا لم يكن هناك إلٰه، ولا بد للشعب من إلٰه يعبده، فلماذا تعيبون عليّ أن أكون هذا الإلٰه؟! لقد قدّمت لشعب الصين من الخدمات ما لم يقدمه إنسان، وغيّرتُ معالم الصين بصورة لا مثيل لها، فمن حقي إذن أن يعبدني هذا الشعب. لماذا إذن تنكرون عليّ أنني جعلت نفسي إلٰهاً لشعب الصين؟!».

الموقف ذاته كان موجوداً منذ أربعة آلاف عام تقريباً في زمن إبراهيم عليه السلام. جعل النمروذ نفسه إلٰهاً، واستغرب جداً أن يقف واحد من شعبه، من عبيده، يقول له: إنك لست بإلٰه. يا للهول!! كيف يجرؤ هذا الرجل على نكران ألوهيته مع أن جميع الشعب يراها واضحة جلية؟! ولو كان رجلاً عادياً لأمر بقتله على الفور، ولكنه إبراهيم الذي رُمي في النار وخرج منها سالماً. لهذا تحلّى الملك بالصبر، وتذرَّع بالحكمة، وبدأ بالمحاجّة والمماحكة. قال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ

فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾.
(البقر: ٢٥٨)

وقف إبراهيم عليه السلام أمام هذا الطاغية وقال له: أنت بشر. أنت لست بإله. واحمرّت حدقتا النمروذ، ولكنه تماسك، وقال له: ما هذا الذي تقول يا إبراهيم؟ فقال إبراهيم: ﴿ربيَ الذي يحيي ويميت﴾ وعلم النمروذ أنه لا يحيي ولا يميت، ولكنها المكابرة والعناد وإظهار قدرته أمام رعيته وعبيده. قال: ﴿أنا أحيي وأميت﴾ آمر بقتل إنسان ثم آمر بالعفو عنه، فأنا قد أَمَتُّهُ في الأولى وأحييته في الثانية. وعلم إبراهيم عليه السلام أن لا فائدة من الجدل بهذه الصورة مع هذا المتعالي المعاند، فعمد إلى دليل لا يتمكن معه النمروذ من الإجابة. قال إبراهيم عليه السلام: ﴿فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب﴾. فوجىء النمروذ بهذا الجواب المفحم. ﴿فبهت الذين كفر، والله لا يهدي القوم الظالمين﴾. ولم يحر نمروذ جواباً وظل فاغراً فاه طوال اليوم من هول الصدمة. وتنبهت عقول العبيد الذين أعماهم سلطان النمروذ وجبروته، وبدأت النفوس تتململ من عبادة هذا الذي لا يكاد يبين.

قامت الحجة على قوم إبراهيم بكل فرقهم وأوثانهم وعباداتهم المختلفة، الكواكب والنجوم والشمس والقمر، والأوثان المختلفة، وعبادة النمروذ، كلها انهارت تحت نصاعة حجة إبراهيم عليه السلام...

واستخدم الملأ وسائل الإرهاب والبطش، ومدوا يد الإغراء والمال لمنع التحول عن هذه الآلهة. واستمرأ قوم إبراهيم الذل وعبادة الأصنام المختلفة. أصنام البشر، وأصنام الكواكب، وأصنام الأحجار.

هجرة إبراهيم عليه السلام:

وجاء الأمر الإلهي لإبراهيم عليه السلام بالهجرة إلى ربه. خرج مهاجراً من وطنه وقومه. ولم يكن معه في هجرته إلا زوجته سارة وابن أخيه لوط بن هاران. قال تعالى:

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ

﴿ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ۖ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

(الأنبياء: ٧١ ــ ٧٣)

لم يؤمن له سوى لوط عليه السلام وسوى زوجته سارة.

قال تعالى:

﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾. (العنكبوت: ٢٦ ـ ٢٧).

هاجر إبراهيم عليه السلام إلى أرض الشام، إلى بيت المقدس. فوجد هناك الأمن والأمان. وعامله أهل تلك البلاد بكل تجلّة واحترام. وحتى التوراة المحرفة تقول لنا: إن الكنعانيين وملكهم أبيمالك عاملوا إبراهيم بكل الحب والود وأعطوه أرضاً يعيش فيها. وعندما ماتت زوجته سارة طلب منهم إبراهيم عليه السلام مكاناً ليدفنها فيه، فخرجت المدينة (حبرون = مدينة الخليل) كلها تقول له: «اسمعنا يا سيد. أنت رئيس من الله بيننا. في أفضل قبورنا ادفن ميتك. لا يمنع أحدٌ منا قبره عنك» (سفر التكوين ٢٣).

مولد إسماعيل والأمر بذبحه:

في هذه الأرض المباركة رزقه الله بإسماعيل من هاجر جارية سارة التي أعطتها له. وجاء أمر الله أن يذهب بهاجر وابنها إلى وادٍ غير ذي زرع من مكان البيت العتيق في مكة المكرمة، التي لم يكن فيها إنسان في ذلك الوقت. وحدثت المعجزة، تفجرت الأرض ماءً زُلالاً مباركاً، بعد أن كاد الرضيع إسماعيل يموت من العطش في تلك البرية. واجتمع الناس حول الماء، ونشأ الغلام رامياً بالقوس، قوي الجسم، صارم العزم، مع حلمٍ وعلمٍ ورثهما من أبيه. فلما بلغ معه الغلام السعي جاء البلاء الأكبر الذي لم يتعرض إبراهيم عليه السلام لبلاء مثله من قبل.

رأى في المنام أنه يذبح ابنه فلذة كبده. لم يتشكك إبراهيم عليه السلام لحظة

واحدة. لم يقل هذا حلم. لو أراد الله ذلك لأمرني به صراحة بواسطة جبريل مثلما تأتي بقية أوامر الوحي.

انتهى إبراهيم من قراره الأليم بذبح أحب المخلوقات إليه. وانطلق إلى ابنه الحليم العليم وقال له:

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾.

وعرف إسماعيل مقصد أبيه. أدرك مقدار الألم الذي يعانيه الشيخ الجليل الذي قارب المئة أو كاد. وأسرع بالرد:

﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ ﴾. (الصافات: ١٠٢ ــ ١٠٦).

وأنزل الله كبشاً من السماء ليذبح بدلاً من إسماعيل.. وجعل الله سبحانه وتعالىٰ ذلك اليوم عيداً. عيد التضحية والفداء، وهو أكبر الأعياد لدى المسلمين، حيث ذبح إبراهيم في ذلك اليوم من قلبه حب ابنه إسماعيل الذي رُزقه على كبر ولم يبق في قلبه شيء سوى الحب الخالص لله. وصار حب إسماعيل بعد ذلك تابعاً لحبه لله تعالىٰ.

وجعل الله سبحانه وتعالى من قصة إسماعيل ومشي هاجر بين الصفا والمروة، ثم الأمر بالذبح، وتعرض إبليس لإبراهيم وإسماعيل ليغريهما بالتوقف عن ما سماه جريمة القتل والذبح بدون مبرر، ورمي إبراهيم له بالحجارة في ثلاثة مواضع ــ هي الجمرات الموجودة في منى ــ، جعل الله سبحانه وتعالى هذه القصة وما دار فيها من شعائر الحج ومناسكه.

الأمر ببناء البيت العتيق:

وأمر الله إبراهيم ببناء البيت ورفع القواعد. يساعده في ذلك إسماعيل:

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ

إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾. (البقرة: ١٢٧ ــ ١٢٩).

ويأمر الله إبراهيم عليه السلام بأن ينادي بالحج، فيسمعه كل من في الأرض، ومن في الأرحام، إلى يوم الدين. ويلبي النداء من كتب الله له الحج. قال تعالى:

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾. (الحج: ٢٦ ــ ٢٧).

مولد إسحاق:

في أرض الشام ــ بمعناها الواسع ــ المباركة رزقه الله أيضاً بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب. وحملت سارة العجوز العقيم، وأنجبت ذلك الغلام العليم. وعاش إسحاق وتزوج وأنجب يعقوبَ في حياة أبويه. وستأتي قصة إسحاق ومولده العجيب من أبوين بلغا من العمر عِتِيّاً. وتأتي البشارة من الملائكة بمولد إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب. وعاش إسحاق رجلاً كاملاً داعياً القوم الذين عاش بين ظهرانيهم إلى عبادة الله وحده:

﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ ﴾. (الصافات: ١١٢ ــ ١١٣).

العهد.. لمن؟

وفي أرض الشام زاد حب إبراهيم لربه، حبٌ ملك عليه كل شغاف قلبه. وابتلاه ربه بكلماتٍ. وكلما جاء الابتلاء كلما ازداد إبراهيم نوراً، تماماً كما تصقل الماسة وتزيل عنها بعض الأتربة التي علقت بها. قال تعالى:

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾. (البقرة: ١٢٤).

وجعل الله في ذريته النبوة والكتاب. قال تعالى:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾. (العنكبوت: ٢٧).

وقال تعالى:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ كُلًّا هَدَيْنَا ۖ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾. (الأنعام: ٨٤ ــ ٨٧).

والضمير في قوله: ﴿ومن ذريته﴾ كما يقول ابن كثير، عائد على إبراهيم على المشهور، ولوط وإن كان ابن أخيه، إلا أنه دخل في الذرية تغليباً. وهكذا جعل الله تعالى في ذرية إبراهيم النبوة والكتاب. وكل الأنبياء بعده عليه الصلاة والسلام من ذريته. وظهر من فرع إسحاق الأنبياء العديدون. وظهر من إسماعيل عليه السلام محمد صلى الله عليه وآله وسلم، خاتم الأنبياء والمرسلين، وحبيب رب العالمين، وأفضل الخلق أجمعين.

قصة الطيور الأربعة:

وفي أرض الشام سأل إبراهيمُ ربَّهُ أن يريه كيف يحيي الموتى، قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾. (البقرة: ٢٦٠).

اشتد الشوق بإبراهيم ليرى القدرة وهي تتحرك رأي العين. سأل ربه كيف يحيي الموتى؟ وجاء الجواب: ﴿أَولم تؤمن؟ قال: بلى﴾.

وفي السؤال والجواب تعليم للبشرية على مدى أجيالها ليتضح لها مدى الحركة النفسية والشوق الذي كان يكابده إبراهيم عليه السلام، لينتقل من الإيمان واليقين إلى عين اليقين وحق اليقين. وجاء الأمر بأن يعمد إلى أربعة من الطير، فمزقهنَّ وخلطهن وقسمهنَّ أقساماً، وجعل على كل جبل جزءاً ودعاهنَّ بأمر الله، فإذا عضو يطير إلى صاحبه، وإذا كل ريشة تأتي إلى أختها وتلتصق بها، حتى اجتمع بدن كل طائر على ما كان عليه، وهو ينظر. تجتمع الأبدان إلى الرؤوس دون أن تختلط عضلة أو ريشة بعضلة الآخر وريشته. هنالك بلغ الإيمان إلى عين اليقين وحق اليقين.

بعض الفروق بين قصة التوراة المحرفة وقصة القرآن الكريم:

إن الفرق الأساسي بين ما يرد في التوراة المحرفة وبين ما ورد في القرآن الكريم من قصة إبراهيم عليه السلام، لا يكمن في الاختلاف في التفاصيل وفي بعض الوقائع التي ذكرها القرآن ولم تذكرها التوراة، أو ذكرتها التوراة المحرفة ولم يذكرها القرآن الكريم، وإنما يكمن الفرق الأساسي في المنهج والتصور والمغزى من إيراد القصة في الكتابين الكريمين، الذي حُرفّ أحدهما وهو التوراة من قبل أحبار يهود، وبقي الآخر محفوظاً.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾. (الحجر: ٩).

فإبراهيم عليه السلام في التوراة (المحرفة) رجل كل همّه الحصول على المال والثروة والولد والعهد من الرب، بأن يعطيه ونسله أرض كنعان. ومن أجل ذلك يقدم القرابين والمحارق. وتصوره التوراة (المحرفة) بأنه جبان وديوث وناكح أخته ــ **لعائن الله المتتابعة على اليهود أبد الدهر** ــ، كما تصوره في صورة شخص يبحث عن الثروة بكافة الوسائل، ولو كانت تلك الوسيلة تقديم زوجته سارة لفرعون ملك مصر أو أبيمالك ملك الفلسطينيين.

ولا يرد في التوراة المحرفة شيء عن دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه للإيمان بالله. لا ترد في هذه التوراة قصة تحطيمه للأصنام، ورميه في النار، ومحاجّته لعبدة الكواكب والشمس والقمر ومحاجّته للنمروذ.

وترد قصة سارة وهاجر في صورة منفّرة. حيث تجعل التوراة المحرفة سارة

شديدة العدوان والظلم لهاجر وابنها. وعندما يهمُّ إبراهيم بالاحتجاج على هذا الظلم البيّن يأتيه أمر الرب «لزوجتك سارة تسمع لكل ما تقوله لك»، ولو كان ما تقوله هو الظلم والبغي والعدوان. «لأنه من سارة يدعى لك نسل». أما إسماعيل فليس من نسلك.

ثم تزعم التوراة أن إسحاق هو الذبيح وشتّان بين قصة الذبيح في القرآن وقصته في التوراة. لا شيء يرد عن الرؤيا التي رأى فيها إبراهيم عليه السلام أنه يذبح ابنه، ولا شيء يرد عن هذا الحوار الحاني بين الأب الممتلىء إيماناً وبين الفتى اليافع الذي يقول لأبيه: ﴿يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾.

ولا يرد شيء عن أمر الله تعالى بإخراج إسماعيل وأمه هاجر إلى وادٍ غير ذي زرع، ولا عن رحمة الله وظهور ماء زمزم في التوراة الموجودة بين أيدينا، ولكن التوراة تشير إلى أن إسماعيل وأمه كانا في برية بئر سبع كما تشير أيضاً إلى ظهور الماء من البئر هناك. ولا يرد شيء مطلقاً عن بناء الكعبة، ودعوة إبراهيم الناس للحج إلى بيت الله في التوراة المحرفة.

وترد قصة الملائكة الذين نزلوا ضيوفاً بإبراهيم في التوراة بصورة مغايرة لما في القرآن. ففي التوراة يختلط الأمر على كاتب التوراة المحرفة، فتارة يتحدث عن الملائكة بأنهم الرب نزل في صورة بشر، وتارة يتحدث عنهم بصفتهم ملائكة، ولكنهم يأكلون ويشربون.

وترد في التوراة قصص لم ترد في القرآن الكريم. ومن ذلك زواج إبراهيم بعد وفاة سارة من قطّورة، وأن قطّورة ولدت له ستة من الأبناء. وإذا علمنا أن التوراة تذكر أن سارة توفيت وعمرها ١٢٧ سنة وعمر إبراهيم آنذاك ١٣٧ سنة وأن إبراهيم بقي فترة دون زواج جديد.. ثم تزوج قطّورة وهو قد شارف على ١٥٠ عاماً ثم أنجب بعد ذلك ستة من البنين.. وجدنا أنه أمر مستبعد.. ولم يرد في القرآن ولا في السنة شيء عن ذلك، ومع هذا لا نستطيع الجزم بنفيه.

وتصرّ التوراة على أن أهم ما فعله إبراهيم هو إقامة العهد مع الرب لإعطاء إبراهيم ونسله جميع الأرض من النيل إلى الفرات.. وتكون علامة العهد دم الختان.

«وقال الله لإبراهيم وأما أنت فتحفظ عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك. يختن منكم كل ذكر. فتختنون في لحم غرلتكم فيكون علامة عهد بيني وبينكم». (سفر التكوين ١٧).

لهذا كله نجد البون شاسعاً والفرق هائلاً بين قصة إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم وفيما ورد في التوراة المحرفة.

* * *

إسماعيل (عليه السلام)

قصة إسماعيل في التوراة:

سبق أن أشرنا إلى مقاطع من حياة إسماعيل كما وردت في التوراة المحرفة عند استعراض قصة إبراهيم عليه السلام. وكانت تلك الإشارات سريعة جداً. وسنحاول ها هنا أن نذكر بعض التفاصيل.

رغم أن التوراة تعترف بأن إسماعيل هو ابن إبراهيم البكر، ورغم أن التوراة تجعل العهد دائماً للابن البكر، إلا أنها في هذا الموضع تنكر أهمية البكورية التي تتمسك بها. وتجعل العهد من الله لإسحاق دائماً أبدياً، لأنه بإسحاق فقط يدعى لإبراهيم نسل!!

تبدأ قصة إسماعيل في سفر التكوين الإصحاح ١٦ بأن تقوم سارة العاقر بتقديم هاجر جاريتها لإبراهيم حتى تلد له. «وأما ساراي امرأة أبرام فلم تلد له. وكانت لها جارية مصرية اسمها هاجر. فقالت ساراي لأبرام: هوذا الربُّ قد أمسكني عن الولادة. ادخل على جاريتي. لعلي أرزق منها بنين. فسمع أبرام لقول ساراي... فدخل على هاجر فحبلت. ولما رأت أنها حبلت صغرت مولاتها في عينيها. فقالت ساراي لأبرام ظُلمي عليك. أنا دفعتُ جاريتي إلى حضنك. فلما رأت أنها حبلت صَغُرتُ في عينيها. يقضي الرب بيني وبينك. فقال أبرام لساراي: هوذا جاريتك في يدك افعلي بها ما يحسن في عينيك، فأذلتها ساراي، فهربت هاجر من وجهها. فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البريّة، على العين التي في طريق شور. وقال: يا هاجر جارية ساراي من أين أتيت؟ وإلى أين تذهبين؟ فقالت أنا هاربة من وجه مولاتي ساراي.

فقال لها ملاك الرب: ارجعي إلى مولاتك، واخضعي تحت يديها. وقال لها ملاك الرب: تكثيراً أُكثّر نسلك فلا يُعدُّ من الكثرة. وقال لها ملاك الربّ: ها أنت حبلى فتلدين ابناً وتدعين اسمه إسماعيل لأن الربَّ قد سمع لمذلتك. وإنه يكون إنساناً وحشياً. يده على كل واحد، ويدُ كل واحد عليه. وأمام جميع إخوته يسكن. فدعت اسم الرب الذي تكلم معها أنت إيل رُئي. لأنها قالت: أههنا أيضاً رأيت بعد رؤية؟! لذلك دُعيت البئر بئر لحي رئي... فولدت هاجر لأبرام ابناً ودعاه أبرام إسماعيل.. وكان أبرام ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل» (سفر التكوين، الإصحاح ١٦: ١ ــ ١٦).

وهكذا تزعم التوراة أن ساراي قدمت جاريتها هاجر لإسماعيل ولكنها غارت منها جداً بعد أن حملت هاجر بإسماعيل، وأذلتها ساراي إذلالاً شديداً. ووافقها إبراهيم على هذا الظلم حسب زعم التوراة، كما وافقها الملاك أيضاً على هذا الظلم، الذي قال لهاجر: ارجعي إلى مولاتك واخضعي لها.

وتلد هاجر إسماعيل، وتصبر على أذى سارة وتعنتها، حسب مزاعم التوراة. «وقال إبراهيم لله ليت إسماعيل يعيش أمامك. فقال الله: بل سارة امرأتك تلد لك ابناً وتدعو اسمه إسحاق. وأقيم عهدي معه عهداً أبدياً لنسله من بعده. وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه. ها أنا أباركه وأثمّره وأكثرّهُ كثيراً جداً. اثنيْ عشر رئيساً يلد وأجعله أمة كبيرة. ولكن عهدي أقيمه مع إسحاق الذي تلده لك سارة في هذا الوقت في السنة الآتية. فلما فرغ من الكلام معه صعد الله عن إبراهيم». (سفر التكوين ١٧: ١٨ ــ ٢١).

ورغم أن التوراة تجعل لإسماعيل شيئاً من البركة، إلا أن العهد كله يذهب لإسحاق عهداً أبدياً له ولنسله. ولا يدعى لإبراهيم نسل إلا بإسحاق فقط.

وأما إسماعيل فتصفه التوراة بأنه كان وحشياً يده على كل واحد ويد كل واحد عليه. ليس فيه من صفات إسماعيل الحقيقية التي وردت في القرآن شيء، ذلك الغلام العليم الذي يقول لأبيه ﴿يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ في ذلك الموقف الرهيب الذي تضطرب لهوله الجبال.

طرد إسماعيل وهاجر كما تزعم التوراة:

تذكر التوراة (المحرفة) أن إسماعيل كان يمزح مع أخيه إسحاق. وها هنا تثور ثائرة سارة بدون أي مبرر، وتقرر طرد هاجر وابنها إسماعيل.

جاء في سفر التكوين (الإصحاح ٢١ : ٩ ــ ١٢) ما يلي:

«ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذي ولدته لإبراهيم يمزح، فقالت لإبراهيم: اطرد هذه الجارية وابنها، لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحاق. فقبح الكلام جداً في عيني إبراهيم بسبب ابنه. فقال الله لإبراهيم: لا يقبح في عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك. **في كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها لأنه بإسحاق يدعى لك نسل**» وهي صورة قبيحة جداً حيث تصور أن الله ــ تعالى الله عن ذلك ــ يحابي سارة ويقرها على ظلمها لهاجر وابنها اسماعيل، ويأمر إبراهيم بأن يطيع سارة في كل ما تقول له سارة. وهي هي مزاعم اليهود التي افتروها على الله وملأوا بها التوراة. حيث نجد في كل سفر عشرات المقولات بأن الله جعلهم شعبه المختار، وأنهم بمنزلة الابن من أبيه، وأن العهد كان لإبراهيم وإسحاق ويعقوب إلى أبد الآبدين، ليجعل بني إسرائيل يستعبدون جميع الأمم ويذلونها، لأن الله لم يكن ليخلق الكون كله إلا من أجل ابنه البكر وحبيبه إسرائيل!!

وتذكر التوراة هذا العهد الأبدي الموثق بالختان.. تزعم التوراة أن الله قال لإبراهيم «وأقيم عهدي بيني وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهداً أبدياً. لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك. وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك، كل أرض كنعان، ملكاً أبدياً، وأكون إلههم». «وقال الله لإبراهيم: وأما أنت فتحفظ عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك، يختن منكم كل ذكر، فتختنون في لحم غرلتكم، فيكون علامة عهد بيني وبينكم. يُختن ختاناً وليد بيتك والمبتاع بفضتك. فيكون عهدي في لحمكم عهداً أبدياً. وأما الذكر الأغلف الذي لا يختن في لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها. إنه قد نكث عهدي». (سفر التكوين ١٧ : ٩ ــ ١٤).

ورغم أن إبراهيم ختن إسماعيل وعمر إسماعيل آنذاك ١٣ عاماً إلا أن هذا

الختـان لم يعط إسماعيـل الحق في العهد. كـان مثل العبـد المبتاع بفضـة يختن حتى يمكن أن يعيش في بيت إبراهيم ومع نسله، ولكن لا حق له في الميراث. ومع هذا قام إبراهيم بطرد هـاجر وابنهـا إسماعيـل حسب أوامر سـارة. وتزعم القصـة المتناقضـة أن إبراهيم صرف هاجر وابنها بعد أن أعطاها قربة مـاء وخبزاً، فتـاهت هاجـر في بريـة بئر سبع. وتصور القصة أن إسماعيل كان طفلاً صغيراً، وأن الماء نفذ من هاجر، ووضعت هاجر إسماعيل تحت شجـرة وجلست مقابلة وبكت. «وسمـع الله صوت الغـلام ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها: مالك يا هاجر؟ لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو. قومي احملي الغلام وشدي يدك به لأني سأجعله أمـة عظيمـة. وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة مـاءً وسقت الغلام».

وتتنـاقض قصة التـوراة، فتارة تـذكر أن إسمـاعيل كـان طفلاً رضيعـاً عندمـا طرد إبراهيم هاجر بناء على أوامر سارة، وتارة تزعم أن إبـراهيم ختن إسماعيل أولاً وقد تم الختان ولإسماعيل ١٣ عاماً.

وتزعم التوراة أن هاجر تاهت في برية بئر سبع (صحراء النقب)، وتـارة تزعم أن إسماعيل كبر ونما في برية فـاران (مكة). وتـزعم التوراة أن هـاجر أخـذت لإسماعيـل زوجة من أرض مصر.

وتذكر التوراة أن إسماعيل شب رامياً بالقوس ــ وهذا أمر تذكره الأحاديث النبويـة الصحيحـة، حيث كـان النبي يحث أصحـابـه على الـرمي ويقـول لهم: «ارمـوا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً».

ولكن التوراة تزعم أنه كان وحشياً، يده على كل أحد ويـد كل أحـد عليه. وهي صفات مناقضة لصفات الصبر والحلم والأدب التي تحلّى بها إسماعيل عليه السلام.

وينتهي ذكر إسماعيل من التوراة بذكر أبنائه. وتتفرغ التوراة لمولد إسحـاق وأخذ العهد له. وتزعم أنه هو الذبيح وإن كانت تعـرض قصة الـذبح بصـورة مشوشـة ومسيئة لإسحـاق عليه السـلام. وتفصّل بعـد ذلك في قصـة زواج إسحاق من رفقـة، وما فعله إسحاق في حياته إلى أن مات.

قصة إسماعيل عليه السلام في القرآن الكريم:

يذكر القرآن الكريم ثلاثة مشاهد من حياة إسماعيل عليه السلام:

● **الأول**: إسكان إبراهيم عليه السلام لزوجه هاجر وابنها الرضيع إسماعيل في وادٍ غير ذي زرع، في موقع البيت العتيق حسب أمر الله تعالى.

● **الثاني**: عندما شبَّ إسماعيل وبلغ مع أبيه السعي. وقال له إبراهيم ﴿إني أرى في المنام أني أذبحك﴾.

● **الثالث**: بناء الكعبة ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾.

وقد ورد في غير هذه المشاهد الثلاثة ذكر لإسماعيل مع جملة الأنبياء. ووصفه الله بالعلم، كما وصفه بالصبر والحلم، وأنه كان يأمر أهله بالصلاة.

● **المشهد الأول**:

جاء إبراهيم عليه السلام إلى هاجر، فأخذها هي وابنها الرضيع، وسافر بهما من أرض الشام حتى وصل إلى وادٍ غير ذي ذرعٍ عند موقع البيت العتيق. ومكة آنذاك صحراء جرداء، لا حياة فيها ولا أنيس بها. ووضع إبراهيم مع هاجر قربة من الماء وبعض الطعام، ثم قفّى منطلقاً فتبعته هاجر قائلةً: يا إبراهيم. أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي لا حياة به ولا أنيس؟ وإبراهيم لا يرد عليها، وهي تكرر مقولتها، وإبراهيم لا يريها وجهه حتى لا ترى دمعة تريد أن تطفر من عينه. ثم قالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيّعنا، ثم رجعت. فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه مكان البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوة ورفع يديه وقال:

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾.

(إبراهيم: ٣٧).

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفدَ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها. وجعلت تنظر إليه يتلوى. فانطلقت كراهية أن تنظر إليه.

فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها. فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً. فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت بطن الوادي، رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها، ونظرت هل ترى أحداً؟ فلم ترَ أحداً. فعلت ذلك سبع مرات[1]. قال ابن عباس: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «فلذلك سعى الناس بينهما».

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً، فقالت: صه. تريد نفسها، ثم تسمّعت، فسمعت أيضاً. فقالت: قد أسمعت إن عندك غواث. فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه، أو قال: بجناحه، حتى ظهر الماء. فجعلت تحوضه، وتقول بيدها هكذا. وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف.

قال ابن عباس: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يرحم الله أم إسماعيل! لو تركت زمزم، أو قال: لو لم تغرف من الماء، لكانت زمزم عيناً معيناً». قال: فشربت وأرضعت ولدها. فقال لها الملك: «لا تخافي الضيعة فإن ها هنا بيتاً لله يبنيه هذا الغلام وأبوه» وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله. فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم، أو أهل بيت من جرهم، مقبلين من طريق كُداء، فنزلوا في أسفل مكة. فرأوا طائراً عائفاً[2]، فقالوا: «إن هذا الطائر ليدور على ماء. لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء. فأرسلوا رسولاً فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا».

واستأذن القوم من أم إسماعيل أن ينزلوا عندها، فأذنت لهم بعد أن أوضحت

---

(١) ذكر القصة بطولها ابن كثير في كتاب «قصص الأنبياء» نقلاً عن البخاري، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) معنى عائفاً: أي أنَّ الطير كانت تحوم على الماء وتتردَّد ولا تمضي تريد الوقوع. جاء ذلك في «الصحاح»، لإسماعيل بن حمّاد الجوهري ـ تحقيق أحمد عبد الغفور العطار (ج ٤/ ١٤٠٨)، قال: عافت الطير تعيف عيفاً: تحوم على الماء أو على الجيف وتتردد ولا تمضي تريد الوقوع، فهي عائفة. منه قول أبي زبيد:

كأن أوب مساحي القوم فوقهم ... طير تعيف على جون مزاحيف

شرطها قائلة: «لا حقّ لكم في الماء عندنا». واجتمع لدى أم إسماعيل جماعة من أهل جرهم.

وشب إسماعيل بينهم وتعلّم منهم العربية كما تعلم الرماية. وكان ماهراً بالرمي وتزوج فيما بعد منهم.

● **المشهد الثاني:**

الذي يعرضه القرآن الكريم من حياة إسماعيل، هو مشهد الابتلاء الثاني المبكر في حياة هذا النبي الكريم. يبدأ المشهد بهجرة إبراهيم عليه السلام وهو يخرج من وطنه مهاجراً إلى الله فيبشره الله بغلام حليم. فلما بلغ الغلام مبلغ السعي، رأى إبراهيم في المنام أنه يذبح هذا الغلام العليم الحليم. ويقرر إبراهيم أن يذبح ابنه لأن رؤيا الأنبياء حق، ولكنه يتلطف إلى ابنه ويقول له: ﴿يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى﴾؟ ويكون الجواب من الغلام العليم الحليم ﴿يا أبتِ افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾.

قال تعالى:

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾. (الصافات: ٩٩ ــ ١٠٧).

وهو مشهد تمتلأ النفوس فيه انبهاراً حين ترى هذا الشيخ الجليل الذي قارب المئة أو كاد، وهو يهم بذبح فلذة كبده الذي لم يكن له غيره. غلام وأي غلام، كله علم وحلم وأدب وذكاء وفطنة، غلام ترين عليه مخايل النبوة في هذه السن الغضة. ويعلم الشيخ الجليل أن هذا ابتلاء من الله، وأن عليه أن يذبح ابنه. ويظهر له الشيطان في صورة بشر يريد أن يثنيه ويثني الغلام عن هذا العزم. يقول الشيطان لإبراهيم: أتذبح ابنك من أجل رؤيا؟! والله قد حرم قتل النفس البريئة! أتقتل إسماعيل دون ذنب

جناه؟! أتقتل هذا الغلام الزكي دون جريرة؟! فيدفعه إبراهيم ويرميه بسبع حصيات في موقع جمرة العقبة. ويختفي الرجل ليظهر مرة أخرى عند الجمرة الوسطى في منى. ويلتفت مرة أخرى إلى إبراهيم وإلى الغلام: أي جريمة تريدان اقترافها؟! أيُذبح إسماعيل الحليم العليم من أجل رؤيا من الشيطان؟! ويغضب إبراهيم عليه السلام فيدفع هذا الرجل الغريب ويرميه بسبع حصيات أخريات. ويختفي الرجل ليظهر عند الجمرة الصغرى لينال سبع حصيات تنهال عليه مرة ثالثة.

حياة إسماعيل وأبيه تصبح مشاعر الحج ومناسكه. حركة هاجر وهي تسعى بين الصفا والمروة بحثاً عن الماء، تتحول بأمر الله إلى السعي بين الصفا والمروة الذي يقوم به الحجاج والمعتمرون على مدى الأزمنة وتطاول القرون.

انطلاقة إبراهيم في وادي منى لذبح ابنه إسماعيل، تتجسد على مدى التاريخ في حركة الملايين من البشر، وهم يتحركون في منى يرمون الجمرات، ثم يقومون بذبح الهدي والأضاحي.

ذبح إبراهيم عليه السلام لابنه هو ذبح لكل حب سوى حب الله، فإذا تحقق ذلك أنزل الله كبشاً من السماء ليفتدي إسماعيل. ويقوم الملايين من البشر منذ أربعة آلاف عام تقريباً بإعادة القصة ليتملّوا ما فيها من عبر وعجائب. حيث يرون ذلك الإيمان الشامخ، والبلاء الذي تنهدّ له الجبال ولا ينهدُّ له إبراهيم عليه السلام وابنه إسماعيل. حقاً ﴿إن هذا لهو البلاء المبين﴾ بلاء لا يستطيع أحدٌ أن يصمد له إلا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ليبقيا للبشرية نبراساً ونوراً تهتدي به في ظلمات الحياة، ولترى كيف يكون الحب الإلهي الكامل الخالص، الذي يذبح من أجله حب الولد، ومن شيخ فانٍ أتاه هذا الولد وقد بلغ من العمر أرذله. وأي ولد!! غلام عليم حليم تتراءى مخايل النبوة والنبل في جميع تصرفاته وسكناته وحركاته. حقاً إن هذا لهو البلاء المبين الذي ينبغي أن تحني له البشرية رأسها إجلالاً وإكباراً ومحبة وتوقيراً.

● **أما المشهد الثالث الذي يعرضه القرآن الكريم من حياة إسماعيل فهو مشهد بناء البيت:**

قال تعالى:

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾. (البقرة: ١٢٥ ــ ١٢٩).

أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام أن يرفع القواعد من البيت الذي قال الله عنه:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾. (آل عمران: ٩٦، ٩٧).

وقد ورد في الأخبار أن آدم عليه السلام بناه، وأن الملائكة قالوا له: قد طفنا قبلك بهذا البيت. والكعبة بحيال البيت المعمور، كما رُوي عن علي كرم الله وجهه وغيره من الصحابة. واندثر البيت ولم تبق منه إلا القواعد. قال تعالى: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾.

ووقف إبراهيم على حجر عندما ارتفع البناء وابنه إسماعيل يناوله حتى أتما البناء كما أمرهما الله سبحانه وتعالى. وكان هذا المقام الذي قام عليه إبراهيم ملتصقاً بحائط الكعبة، حتى جاء عمر رضي الله عنه فأخرّه قليلاً لئلا يشغل المصلين. ولا تزال آثار إبراهيم الخليل باقية على هذه الصخرة التي وقف عليها إلى يومنا هذا. فقد كانت الصخرة رطبة فغرزت فيه قدم إبراهيم وبقيت آثارها إلى اليوم. وقد ذكرها في شعره أبو طالب في لاميته المشهورة التي نافح فيها عن النبي صلى الله عليه وسلم وأعلن إيمانه فيها بصدق النبي وأنه صادق لم يكذب قط. وقد نعى فيها على قريش تكذيبها

لابن أخيه محمد صلى الله عليه وسلم، وأنها فقدت رشدها بذلك. قال يذكر البيت والمقام:

وبالبيت حق البيت من بطن مكة ... وبالله إن الله ليس بغافل
وبالحجر المسود إذ يمسحونه ... إذ اكتنفوه بالضحى والأصائل
وموطىء إبراهيم في الصخر رطبة ... على قدميه حافياً غير ناعل

وما أن أتم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بناء البيت حتى توجها إلى الله العلي القدير بالدعاء ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم. ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، إنك أنت العزيز الحكيم﴾ ويستجيب الله لدعائهما ويظهر محمد صلى الله عليه وآله وسلم بعد مرور أكثر من أربعة آلاف على هذا الدعاء الخاشع المتبتل..

ويقوم إبراهيم عليه السلام ومعه إسماعيل ابنه بتطهير البيت وإعداده للطائفين والقائمين والركع السجود. قال تعالى:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾. (الحج: ٢٦، ٢٧).

وطهر إبراهيم البيت ومعه ابنه إسماعيل، وأعده للحجيج الذين سيأتون على مدى الأزمنة وتطاول الأيام. ورفع صوته بالنداء كما أمره الله تعالى، فجاوبته الجبال والوديان، ومَنْ كتب الله له الحج ممن كان في عالم الظهور أو لم يزل في عالم الكمون.

ويذكر الله إسماعيل فيبقى ذكره إلى أبد الآبدين. قال تعالى:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾. (مريم: ٥٤، ٥٥).

تبرز صفات هذا الغلام العليم الحليم عند شبابه، فإذا بنا أمام رجل قوي الإيمان، قوي الشكيمة، قوي الصبر، صادق الوعد، أرسله الله تعالى إلى القوم الذين عاش بين أظهرهم، وهم جرهم وما حولهم من العرب. وكان يأمرهم بعبادة الله وحده، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة. واستجاب له القوم فعاشوا في سعادة وهناء. ثم اجتالتهم الشياطين وبدأوا الانحراف رويداً رويداً حتى عبدوا الأوثان والأصنام، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً. فأدركتهم دعوة إبراهيم وإسماعيل ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾. واستجاب الله لهذه الدعوة الصادقة من نبيين كريمين ورسولين مطهرين. فظهر محمد صلى الله عليه وآله وسلم، استجابة لهذه الدعوة. وسعد به العرب.. وسعدت به البشرية.

لم يظهر من نسل إسماعيل أنبياء عديدون كما ظهر من نسل أخيه إسحاق ولكن الله جعل من نسله من يرجح الكفة كلها. جعل فيها محمداً صلى الله عليه وآله وسلم. وكان ذلك من نصيب إسماعيل صلى الله عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين.

ولن نقارن بين ما ذكرته التوراة عن إسماعيل وبين ما ذكره القرآن فشتان ما بين الصورتين. ونكتفي بما ذكرناه فيهما لأن الصورة واضحة جلية.

ففي إحداهما غبش وترهات بسبب إضافات الأحبار وتحريفاتهم، وفي الثانية نقاء وصفاء ومثل أعلى للبشرية تقتدي به وتهتدي بنوره. والله يهدي لنوره من يشاء. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

* * *

إسحاق (عليه السلام)

قصة إسحاق عليه السلام في التوراة:

مولد إسحاق:

تقدم ذكر بشارة الملائكة لإبراهيم وسارة بمولد إسحاق في قصة إبراهيم عليهم السلام جميعاً. كما تقدم ذكر الرؤيا التي رآها إبراهيم قبل ذلك، وأن الله كلمه وأخبره بأن ساراي «ستلد له ولداً. فقال إبراهيم في قلبه: هل يولد لابن مئة سنة وهل تلد سارة وهي بنت تسعين؟! وقال إبراهيم لله: ليت إسماعيل يعيش أمامك. فقال الله بل سارة تلدُ لك ابناً وتدعو اسمه إسحاق، وأقيم عهدي معه، عهداً أبدياً لنسله من بعده. عهدي أقيمه مع إسحاق الذي تلده لك سارة في هذا الوقت في السنة الآتية». (التكوين، الإصحاح ١٧).

وبالفعل ولدت سارة وهي في التسعين وإبراهيم في المائة.. وختن إبراهيم إسحاقَ وهو ابن ثمانية أيام. وقامت سارة بطرد هاجر وابنها إسماعيل لأن إسماعيل كان يمزح ويضحك مع أخيه إسحاق. وقال الرب حسب زعمهم لإبراهيم: في كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها لأنه بإسحاق يدعى لك نسل.

وتقص علينا التوراة قصة ذبح إسحاق. وأن إبراهيم أخذ ابنه إلى أرض المُريّا ليذبحه ويجعله محرقة على أحد الجبال. ولا يرد في هذه القصة أن الذبيح علم بما يراد منه، بل كان يسأل أباه: يا أبي هوذا النار والحطب ولكن أين الخروف للمحرقة؟! وأين ذلك من القصة العظيمة التي يرويها لنا القرآن الكريم، حيث يقول إبراهيم عليه السلام:

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾. (الصافات: ١٠٢ ــ ١٠٧).

ولا شك أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام. وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أنا ابن الذبيحين» ــ أي إسماعيل وعبدالله ــ[1].

تزويج إسحاق من رفقة:

تذكر التوراة أن إبراهيم استحلف كبير عبيده أن يذهب إلى أور الكلدانيين ويأخذ لابنه إسحاق زوجته من هناك، من بلده وعشيرته، وأن لا يأخذ لإسحاق زوجة من الكنعانيين الذين كان يعيش بين أظهرهم، والذين أحسنوا إليه إحساناً متواصلاً. جاء في سفر التكوين الإصحاح ٢٤ مايلي: «وشاخ إبراهيم وتقدم في الأيام. وبارك الرب إبراهيم في كل شيء. وقال إبراهيم لعبده كبير بيته المستولي على كل ما كان له، ضع يدك تحت فخذي. فأستحلفك بالربّ إلـه السماء وإلـه الأرض أن لا تأخذ زوجةً لابني من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم، بل إلى أرضي وعشيرتي تذهب وتأخذ زوجةً لابني إسحاق. فقال له العبد: ربما لا تشاء المرأة أن تتبعني إلى هذه الأرض. هل أرجع بابنك إلى الأرض التي خرجت منها؟ فقال له إبراهيم: احترز من أن ترجع بابني إلى هناك. الربُّ الذي أخذني من بيت أبي ومن أرض ميلادي والذي كلمني والذي أقسم لي قائلاً لنسلك أعطي هذه الأرض. هو يرسل ملاكهُ أمامك فتأخذ زوجة لابني من هناك».

وبالفعل أخذ العبد جمالاً وأموالاً وذهب إلى مدينة ناحور. وخرجت الفتيات يستقين ويملأن الجرار. فقال العبد لإحداهنَّ اسقني قليل ماء من جرتك، فقالت: اشرب يا سيدي. وسقته، وسقت جماله أيضاً. وسألها بنت من أنت؟ فقالت: أنا بنت بتوئيل ابن ملكه الذي ولدته لناحور ــ أخي إبراهيم ــ. وأعطاها العبد خزامه من

(١) انظر تفصيل ذلك في فصل (إسماعيل عليه السلام).

الـذهب وسوارين من الـذهب وطلب المبيت عندهم، فـركضت رفقة وأخبـرت أخـاهـا لابان. فانطلق لابان وأتى بالرجـل الغريب. فلمـا دخل الـدار أخبرهم أنه عبـد إبراهيم وأنه قد قدم ليأخذ زوجة لإسحاق بن إبراهيم من بيته. ووافقت رفقة وأخـوها على هـذا الزواج وأعطاهم العبد مزيداً من الذهب والهدايا. وأخذ رفقة معه زوجة لإسحاق وسافر بها حتى وصلا إلى أرض كنعان وأخذ إسحاق رفقة زوجة له.

«وكـان إسحاق ابن أربعين سنـة لما اتَّخـذ لنفسه زوجـة رفقة بنت بتـوئيـل ــ بن ناحور أخو إبراهيم عليـه السلام ــ الآرامي، أخت لابـان الآرامي. وصـلى إسحاق إلى الرب لأجل امرأته لأنها كانت عاقراً. فاستجاب له الرب فحبلت رفقـة امرأتـه، وتزاحم الولدان في بطنها. فقالت: إن كان هكذا فلماذا أنا؟! فمضت لتسأل الـرب، فقال لهـا الربُّ: في بطنك أمتان. ومن أحشـائك يفتـرق شعبان. شعب يقـوى على شعب وكبير يُستذَل لصغير» (سفر التكوين ٢٥ : ٢٠ ــ ٢٣). يا للصورة الـزرية تـذهب رفقة وتكلم الرب مباشرة وكأنه بشر، ويخبرها أنهـا حامـل بتوأمين وأن الكبـير منهمـا سيكون عبـداً للصغيـر. والكبير هـو عيسو الـذي خرج أولاً من بـطنها وهـو أحمـر وكله فـروة شعـر. والصغير هو يعقوب لأنه خرج قابضاً بعقب عيسو فدُعي يعقوب. ويعقوب هو إسرائيل. ولهذا ينبغي أن يستعبد لـه الجميع بمـا في ذلك أخـاه عيسو ويكـون نسل عيسـو عبيداً لنسل إسرائيل.

«وكان إسحاق ابن ستين سنة لما ولدتهما». (سفر التكوين، الإصحاح ٢٥).

«وحدث جوع آخر غير الجوع الأول الذي كان في أيام إبراهيم. فذهب إسحـاق إلى أبيمـالك ملك الفلسـطينيين إلى جرار. وظهـر له الـربُّ وقال: لا تنـزل إلى مصر. اسكن في الأرض التي أقول لك. **تغرّب في هذه الأرض فأكون معك وأباركـك. لأني لك ولنسلك أعطي جميع هذه البلاد وأفي بالقسم الذي أقسمت لإبراهيم أبيـك. وأكثّرُ نسلك كنجوم السماء وأعطي نسلك جميع هذه البلاد**». نفس الكلام المكرر الممجوج الذي لا يمل مؤلفـو التوراة المحـرفة من تكـراره في كل سفـر عشرات المـرات. حتى يثبتوا لأنفسهم الحق المطلق في أرض فلسطين. رغم أن الفلسطينيين عـاملوهم حسب اعتراف هؤلاء المؤلفين بكل كـرم وأريحية نفس.

إسحاق يقول إن رفقة أخته:

ولما نزل إسحاق إلى جرار وسكن بين أهلها، سأله أهل المدينة عن رفقة التي كانت معه، فقال: «هي أختي. لأنه خاف أن يقول: امرأتي. لعلَّ أهل المكان يقتلونني من أجل رفقة لأنها كانت حسنة المنظر» نفس الحجة التي زعموا أن إبراهيم قالها عندما قدّم امرأته لفرعون، ثم عندما قدمها مرة أخرى لأبيمالك.. «وحدث إذ طالت له الأيام هناك أن أبيمالك ملك الفلسطينيين أشرف من الكوة ونظر، وإذا إسحاق يلاعب رفقة امرأته. فدعا أبيمالك إسحاق وقال: إنما هي امرأتك، فكيف قلت: هي أختي؟ فقال له إسحاق: لأني قلت لعلي أموت بسببها. فقال أبيمالك: ما هذا الذي صنعت بنا؟! لولا قليل لاضطجع أحد الشعب مع امرأتك فجلبت علينا ذنباً. فأوصى أبيمالك جميع الشعب قائلاً: الذي يمسُّ هذا الرجل أو امرأته موتاً يموت». (سفر التكوين، الإصحاح ٢٦).

فأنظر إلى نبل أبيمالك وكرم خلقه وخوفه من الله، وأنظر إلى الصورة الحقيرة التي تصور بها التوراة أنبياء الله إبراهيم وإسحاق ويعقوب وجميع الأنبياء، وتجعلهم جبناء كذبة، يقدمون زوجاتهم للملوك خوفاً وطمعاً في الأموال والهدايا.

وبقي إسحاق في جرار وتعاظم ملكه حتى صار عظيماً جداً كما تقول التوراة. فكان له مواشي من الغنم ومواشي من البقر وعبيداً كثيرين. فحسده الفلسطينيون، وقال له أبيمالك: «اذهب من عندنا لأنك صرت أقوى منا جداً». (سفر التكوين ٢٦: ١٣ ــ ١٧).

ولسنا ندري كيف استطاع إسحاق الغريب في أرض الفلسطينيين أن يكوّن له قوة أضخم وأقوى من قوة الملك نفسه!!

وتزعم التوراة إن إسحاق حفر آباراً كثيرة، ثم ذهب إلى بئر سبع، وهناك ظهر له الرب، وكرر له الوعد بتكثير نسله، حتى يصبحوا مثل عدد الرمال ومثل عدد النجوم، ووعده بالأرض التي أقسم أنه يعطيها له ولنسله. فبنى إسحاق هناك مذبحاً للرب، وقدم له مجموعة كبيرة من الخرفان والأبقار المشوية، والتي يغرم بها الرب حسب زعمهم.

وتزعم التوراة أن أبيمالك وقواده ذهبوا إلى إسحاق وترضّوه. لأن الرب كان معه. وعقدوا معه عهداً وحلفاً، أن لا يصنع بهم شراً. ــ غريب جداً أن يخاف الملك ومعه جيش قوي من إسحاق الذي لم يكن معه إلا حفنة من العبيد ورفقة زوجته ــ .

بئر سبع :

تذكر التوراة أن بئر سبع سميت كذلك لأن إبراهيم حفر بئراً وأعطى أبيمالك سبع نعاج. وقال له: «إنك سبع نعاج تأخذ من يدي لكي تكون لي شهادة بأني حفرت هذه البئر. لذلك دعا ذلك الموضع بئر سبع لأنهما حلفا هناك كلاهما. (سفر التكوين، الإصحاح ٢١).

وتزعم التوراة أيضاً أن إبراهيم صرف ابنه إسماعيل وزوجته هاجر بناءً على أوامر زوجته سارة، التي أمره الرب بأن يسمع لها ويطيع. فمضت هاجر وتاهت في برية بئر سبع. ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار، لأنها قالت: لا أنظر موت الولد. فجلست مقابله ورفعت صوتها وبكت، فسمع الله صوت الغلام، ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها: مالك يا هاجر؟ لا تخافي. لأن الله قد سمع لصوت الغلام. وفتح الله عينها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة ماءً وسقت الغلام» (سفر التكوين ٢١) وسمت المكان بئر سبع.

ويرد في التوراة مرة أُخرى (سفر التكوين ٢٦ : ٢٢ ــ ٢٣) أن عبيد إسحاق حفروا بئراً فسمى إسحاق المكان بئر سبع. لذلك اسم المدينة بئر سبع إلى اليوم!!

وتنتهي حياة إسحاق بأن يخدعه يعقوب ويأخذ منه البركة بدلاً من أخيه عيسو، كما سنستعرضه بعد قليل في ترجمة حياة يعقوب كما تذكرها التوراة المحرفة. ومات إسحاق بشبعان أياماً كما تقول التوراة، ودفنه ابنه يعقوب في مغارة المكفيلة في حقل عفرون في حبرون ـ مدينة الخليل في الضفة الغربية لنهر الأردن ـ وكان عمره عند وفاته ١٨٠ سنة.

قصة إسحاق عليه السلام في القرآن الكريم :

لا يرد في القرآن الكريم عن حياة إسحاق عليه السلام إلا نبذ مختصرة في آيات قليلة متفرقة، ما عدا ما ورد عن مولده عليه السلام وما صاحبه من بشارات جاءت بها

الملائكة. حيث إن مولده كان معجزة من المعجزات. فقد بلغ أبواه الجليلان عمراً مديداً قبل ولادته، وكانت أمه سارة قد بلغت التسعين كما تذكر التوراة، وهي عجوز عقيم كما جاء في القرآن الكريم. وكان إبراهيم عليه السلام شيخاً كبيراً قد بلغ المئة عام عندما حملت به سارة، ولكنها قدرة الله تعالى التي تقول للشيء كن فيكون.

وتأتي قصة مرور الملائكة عليهم السلام بإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه في سور عديدة من القرآن الكريم: منها سورة هود، وسورة الحجر، وسورة الصافات، وسورة الذاريات، وسورية مريم.

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾.
(هود: ٦٩ ــ ٧٣).

في أرض الشام المباركة استقر إبراهيم عليه السلام وزوجته سارة. ومضت الأيام والسنين وسارة عاقر، انقطع عنها الدم، وانقطع الأمل. مات البصيص الذي بقي في قلبها، وتقدمت لزوجها تطلب منه أن يتزوج جاريتها هاجر، لعل الله يرزقها بولد منها. وأحبت سارة إسماعيل ــ على عكس ما تصفها التوراة ــ ورأت أن الله قد عوضها بذلك عن فقدان الولد. وإن بقيت في النفس حشاشة تتطلع إلى الولد.. ومع مضي الأيام مات الحزن على فقدان الولد والشوق للعثور عليه.

وجاء ذات يوم رجال ثلاثة، ظهروا فجأة، لا يرى عليهم أثر السفر، فرآهم إبراهيم عليه السلام في حقله. لم ينتظر النبي الكريم ليسألهم من أين جاءوا؟! بل انطلق مسرعاً ليكرم ضيفه. رحّب بهم أجمل ترحيب، وأدخلهم داره، ومع هذا كان مستغرباً لهيئتهم الجميلة التي لا يرى عليها أثر السفر. قال تعالى:

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ﴾.

(الذاريات: ٢٤ ــ ٣٠).

استنكرهم إبراهيم عليه السلام في نفسه، ولكنه التزم آداب الضيافة، وهو قمة في الكرم. فراغ من مجلسه معهم وأحضر عجلاً سميناً وقرّبهُ إليهم. رأى الأيدي ممتنعة عن الوصول إليه. ومن عادة الضيوف أن يأكلوا عندم يُقدَّم لهم الأكل، فإن امتنعوا فتلك علامة شر. وازداد توجس إبراهيم من هؤلاء القوم ذوي الهيئة الجميلة والطلعة البهية الذين لا يرى عليهم أثر السفر ولا يعرف كيف وصلوا إليه وإلى مكانه فجأة كأنما هبطوا من السماء، هنا قال لهم إبراهيم عليه السلام: ألا تأكلون؟! الملائكة لا تأكل يا إبراهيم. ازداد التوجس والخوف في نفس إبراهيم عليه السلام. انفرجت أسارير الملائكة وأخبروه بأنهم ليسوا بشراً حتى يأكلوا. وضحكت سارة من انزعاج زوجها وخوفه. وقيل ضحكت أي حاضت، لأن من أسماء الحيض الضحك. وأعلن الملائكة البشارة. ستلد سارة غلاماً. ليس غلاماً عادياً، إنه نبي من الأنبياء، وستشهد سارة وإبراهيم مولده وزواجه وولادة يعقوب ابنه.

وعقدت الدهشة لسان سارة برهة، ثم انطلق لسانها يصيح يا ويلتى أألد وأنا عجوز عقيم؟! وأقبلت في صرة وضجيج.. وصكت وجهها وهي تقول: عجوز عقيم!! وتحدث الملائكة قائلين: ﴿أتعجبين من أمر الله، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾. وفي سورة الذاريات: ﴿قالوا: كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم﴾.

وفي سورة الحجر تعجب إبراهيم أيضاً من هذه البشارة كما تعجبت سارة:

﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

يـا لها من بشـارة عظيمـة بمولـد نبي عظيم بعـد هذا العمـر المديـد. ليس ذلك فحسب ولكن الشيخين يبشران بأنهما سيعيشان حتى يتزوج إسحاق ويولد له يعقوب.

وهذا يختلف مع مـا ورد في التوراة من أن سـارة ماتت قبـل أن يتزوج إسحـاق. وتزعم التوراة أن إسحاق هو الذبيح. ورغم اختـلاف قصة الـذبيح في القـرآن عما هي عليه في التوراة، إذ يرين الغبش على قصة التـوراة، ولا يرد فيهـا استسلام الغـلام لأمر ربه، وحثه أباه على أن يمتثل لأمر الله ﴿يا أبت افعل ما تؤمـر ستجدني إن شـاء الله من الصـابرين﴾، بـل يرد في التـوراة أن إسحاق سـأل والـده «هـذا الحـطب والنـار فـأين الخروف؟» وأن إبراهيم فاجأة بتقييـده ومحاولـة ذبحه، والفتى يحـاول التخلص. ولكن نزول خروف من السمـاء ينهي القصة حيث يـأخذ إبـراهيم الخروف ويـذبحه بـدلاً من ابنه.

وهناك أدلة من القرآن والسنة تدل على أن الذبيح هو إسمـاعيل. والـرسول صلى الله عليـه وسلم يقول: «أنـا ابن الذبيحين» أي عبـد الله وإسماعيـل. وقد استـدل أهل التفسير من بشارة الملائكة لإبراهيم وسارة بولادة إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب بـأن إسحـاق لا يمكن أن يكون هـذا الذبيـح. إذ إن إبـراهيم قـد علم مسبقـاً بـأن إسحـاق سيعيش ويولد له ولد يدعى يعقوب.

قال تعالى:

﴿فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾.

وقال تعالى:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ ﴿٨٤﴾﴾. (الأنعام: ٨٤).

وقال تعالى:

﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ ﴿٤٩﴾﴾.

(مـريـم: ٤٩).

وبانتهاء قصة مولد إسحاق عليه السلام يسدل الستار على قصته، حيث لا يرد في القرآن الكريم شيء عن حياته سوى أنه نبي كريم. ولا عن تزوجه من رفقة ابنة ابن أخ

أبيه، ولا يذكر مزاعم التوراة في أنه قال عن زوجته أنها أخته، كما لا يذكر القرآن الكريم الثروة الكبيرة التي حصل عليها إسحاق أثناء مقامه في أرض الفلسطينيين. لأن هذا كله ليس له قيمة إن صح في القصص القرآني. وأما التوراة المحرفة فكل همها هو إيراد كيف استطاع إبراهيم وإسحاق ثم يعقوب من بعد ذلك أن يجمعوا ثروات هائلة!! وكيف استطاعوا أن يأخذوا العهد من الرب بامتلاك أرض الغير الذين أكرموهم أيما إكرام. ولكي يأخذوا العهد من الرب ويجددوا ذلك الميثاق فإن عليهم أن يقوموا بشيئين اثنين لا ثالث لهما وهما: تقديم المحارق واللحم المشوي للرب الذي يحب اللحم المشوي جداً، وعملية الختان لأن رؤية الدم وإزالة الغرلة هي التي ترضي الرب. ولا يهم بعد ذلك أن يكون اللحم المشوي المقدم للرب مسروقاً كما فعل يعقوب عندما سرق أغنام خاله لابان ــ في زعمهم ــ أو مأخوذاً عنوة وقسراً من الآخرين، كما فعل يعقوب في مرحلة متأخرة من حياته.

* * *

لوط (عليه السلام)

قصة لوط في التوراة المحرفة :

إن قصة لوط عليه السلام في التوراة المحرفة تمثل منتهى الإسفاف والحقارة التي وصل إليها الأحبار الذين حرّفوا التوراة ولوثوا صور الأنبياء عليهم السلام. وتبلغ هذه الحقارة والدناءة أقصى دركاتها حطة، في قصة لوط الذي تزعم التوراة المحرفة أنه زنى بابنتيه، وأنجب من كل واحدة منهما ولداً، أحدهما يدعى بن عمون والآخر موآب، وتزعم التوراة المحرفة أن ذلك حدث بعد أن أهلك الله قرى سدوم وعمورة نتيجة لفسادها، ونجّا الله لوطاً عليه السلام مع ابنتيه. فلما أنجاهم الله من القوم الفاسقين، التجأ لوط وابنتاه إلى مغارة في الجبل، وهناك تقدمت الفتاتان وسقتا أباهما خمراً، واضطجعت معه الكبرى في الليلة الأولى، فلم يشعر باضطجاعها ولا بقيامها، لأنه كان مخموراً لدرجة لا يميز فيها الأشياء. وفي الليلة التالية سكر أيضاً واضطجعت معه الصغرى، ولم يشعر باضطجاعها ولا بقيامها. وحبلت الفتاتان وأنجبت الكبرى موآب وهو أبو الموآبيين ــ الذين عاشوا في منطقة الأردن ــ وأنجبت الصغرى بن عمون، وهو أبو بني عمون الذين عاشوا أيضاً في الأردن.

صورة حقيرة موغلة في البذاءة والشر.

وتبدأ القصة بمواليد تارح والد إبراهيم عليه السلام وناحور وهاران. وولد هاران لوطاً. ومات هاران قبل تارح أبيه في أرض ميلاده في أور الكلدانيين ــ في العراق ــ. واتخذ أبرام ــ أي إبراهيم ــ وناحور لأنفسهما امرأتين... وأخذ تارح أبرام ابنه،

ولوطاً بن هاران ابن ابنه، وساراي كنته امرأة أبرام ابنه، فخرجوا من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان. فأتوا إلى حاران ـ في الشام ـ وأقاموا هناك». (سفر التكوين ١١: ٢٧ ـ ٣٢).

وهذه القصة تختلف عما هو في القرآن الكريم، حيث إن إبراهيم خرج من وطنه في العراق بعد أن قذفوا به في النار، وبعد أن أصرّوا على الكفر. وكان آزر والد إبراهيم كما يسميه القرآن كافراً. ولم يخرج مع إبراهيم سوى زوجته سارة، ولوط ابن أخيه. وهاجروا إلى الأرض المباركة أرض الشام. كما قد مر معنا في قصة إبراهيم عليه السلام.

وتذكر التوراة أن لوطاً صعد مع إبراهيم إلى أرض مصر. وعندما عادا منها محملين بالثروات الهائلة من فرعون، حصل شقاق ونزاع بين رعاة إبراهيم ورعاة لوط. وقال إبراهيم للوط لا تكن مخاصمة بيني وبينك وبين رعاتي ورعاتك. لأننا أخوان. أليست كل الأرض أمامك؟ اعتزل عني. إن ذهبت شمالاً فأنا يميناً وإن يميناً فأنا شمالاً». (سفر التكوين ١٣: ٥ ـ ٩).

«فرفع لوط عينيه ورأى كل دائرة الأردن أن جميعها سقي. فاختار لوط لنفسه كل دائرة الأردن، وارتحل لوط شرقاً. فاعتزل الواحد عن الآخر. أبرام سكن في أرض كنعان ولوط سكن في مدن الدائرة، ونقل خيامه إلى سدوم. وكان أهل سدوم أشراراً وخطاة لدى الرب جداً» (سفر التكوين ١٣: ١٠ ـ ١٣).

ذهاب الملائكة إلى لوط عبر إبراهيم:

ظهر ثلاثة رجال لإبراهيم فجأة عند بلوطات ممرا. فأكرمهم إبراهيم وجاء لهم بعجل سمين. وتزعم التوراة أنهم أكلوا وسندوا قلوبهم بتلك الوجبة الدسمة!! أكلة ترد الروح!! ثم قام الملائكة وبشروا إبراهيم بمولد إسحاق كما أخبروه أنهم ذاهبون إلى سدوم لإهلاكها. فجادلهم إبراهيم حتى لا يهلكوها. وطبعاً تخلط التوراة المحرفة خلطاً شديداً بين الملائكة وبين الرب كما قد أشرنا إليه من قبل[1].

---

(١) انظر: قصة إبراهيم عليه السلام، في التوراة ص ٧٩ وما بعدها.

وذهب الملائكة إلى سدوم، ووصلوا في المساء. «فجاء الملاكان ــ كانوا ثلاثة قبل سطرين فقط ــ إلى سدوم مساء، وكان لوط جالساً في بابَ سدوم. فلما رآهما لوط، قام وسجد بوجهه إلى الأرض. ــ دائماً تصور التوراة الأنبياء وهم يسجدون للملوك وللأضياف ولكل من توسموا فيه مصلحة ــ. وقال يا سيديّ ميلا إلى بيت عبدكما، واغسلا أرجلكما، ثم تبكران وتذهبان في طريقكما. فقالا: لا بل في الساحة نبيت، فألحَّ عليهما جداً. فمالا إليه ودخلا بيته، وصنع لهما ضيافة خبزاً وفطيراً فأكلا». (سفر التكوين ١٩: ١ ــ ٣).

وهذه الرواية تناقض ما جاء في القرآن الكريم من أن لوطاً عليه السلام ضاق بهم ذرعاً، وقال هذا يوم عصيب. لما يعرفه من قومه المجرمين الذين يعتدون على الأضياف، وخاصة أن هؤلاء كانوا في منتهى الجمال. وقومه مغرمون بالرجال. فكان لوط في منتهى الحرج والضيق، وودَّ لو أن هؤلاء الأضياف لم يأتوا إليه.

والشيء الذي تكرره التوراة هو أن الملائكة يأكلون ويحبون الفطير وخاصة مع الزبد واللحم!!

وتستمر التوراة المحرفة في القصة فتقول: إن رجال سدوم أحاطوا بمنزل لوط بمجرد أن سمعوا الخبر ــ لعل زوجة لوط هي التي دلتهم عليهم ــ ونادوا لوطاً: أخرج لنا الرجلين. وأسرع لوط يغلق باب بيته ويحكم رتاجه، وقال لهم: «لا تفعلوا شراً يا أخوتي، هوذا لي ابنتان لم تعرفا رجلاً. أخرجهما إليكم فافعلوا بهما كما يحسن في عيونكم ــ حاشا للوط عليه السلام أن يقدم بناته ليزني بهما أهل سدوم ــ وأما هذان الرجلان فلا تفعلوا بهما شيئاً، لأنهما قد دخلا تحت ظل سقفي، فقالوا: ابعد إلى هناك. ثم قالوا: جاء هذا الإنسان ليتغرب وهو يحكم حكماً، والآن نفعل بك شراً أكثر منهما. وتقدموا ليكسروا الباب، فمد الرجلان ــ الملكان ــ أيديهما وأدخلا لوطاً إليهما إلى البيت وأغلقا الباب. وأما الرجال الذين على باب البيت، فضربهم بالعمى، من الصغير إلى الكبير. فعجزوا أن يجدوا الباب». (سفر التكوين ١٩: ٤ ــ ١١).

«وقال الرجلان ــ أي الملكان ــ للوط من لك أيضاً ههنا؟ أصهارك وبنوك وبناتك وكل من لك في المدينة أخرج من المكان، لأننا مهلكان هذا المكان... وكلم لوط أصهاره الآخذين بناته».

والغريب حقاً أن التوراة نفسها قبل سطرين فقط قالت على لسان لـوط: إن ابنتاه لم تعرفا رجلاً، ثم ها هي تقـول: إن ابنتيه متـزوجتان، وإن لديه أصهـاراً. وأن أصهاره رفضوا أن يخرجوا معه، وكانوا يسخرون منه. كـذلك تـزعم التوراة أن للوط ابنـاً. وفي نفس الإصحاح تنفي أن له أبناءً، وتذكر أنه لم يكن معه سوى ابنتيه فقط.

وأُخـرج لوط مـع ابنتيه وزوجتـه، واستـأذن من المـلائكـة أن يـذهب إلى مـدين صوغر، لأنه لا يستطيع أن يهرب إلى الجبـل، لعل الشـرَّ يدركـه فيموت!! ودخـل لوط إلى صوغر فـأمطر الـرب على سدوم وعمـورة كبريتـاً وناراً من عنـد الرب من السمـاء، **وقلب تلك المدن وكل الـدائرة، وجميـع سكان المـدن وبنات الأرض.** ــ كـلام فارغ لأن العـذاب إنما نـزل بقرى قـوم لوط فقط ــ ونـظرت امرأتـه من ورائه فصـارت عمود ملح. ــ لا تذكر التوراة أنها كانت كافرة وكانت تؤازر قومها ــ.

الطامّة الكبرى:

انتهت قـرى قوم لـوط من الأرض، وغـارت في الأرض، وأصبحت في مـوضـع البحر الميت مدفونة فيه. وتأتي التوراة المحرفة بطامَّة كبرى حيث تـزعم أن لوطـاً سكر وزنى بابنتيه.

«وصعد لوط من صـوغر، وسكن في الجبـل، وابنتاه معـه، لأنه خـاف أن يسكن في صوغر ــ لا يوجد أي مبرر لهذا الخوف ــ فسكن في المغارة وابنتـاه. وقالت البكـر للصغيرة: أبونا قد شاخ، وليس في الأرض رجل ليـدخل علينـا كعادة كـل الأرض. هلم نسقي أبـانا خمـراً ونضطجـع معه فنحيي من أبينـا نسلاً. فسقتـا أباهمـا خمراً في تلك الليلة، ودخلت البكر واضطجعت مـع أبيها، ولم يعلم بـاضطجـاعها ولا بقيـامها ــ من شـدة سكره حسب زعمهم ــ. وحـدث في الغـد أن البكـر قـالت للصغيـرة: إني قـد اضطجعت مع أبي. فـأسقِهِ خمـراً الليلة أيضاً فـادخلي اضطجعي معـه فنحيي من أبينا نسـلاً. فسقتا أبـاهما خمـراً في تلك الليلة أيضاً، وقـامت الصغيرة واضـطجعت معـه، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. فحبلت ابنتا لوط من أبيهما فولدت البكر ابنـاً ودعت اسمه موآب. وهو أبو الموآبيين إلى اليوم، والصغيرة أيضاً ولدت ابناً ودعت اسمه ــ بَنْ عَمّي ــ وهو أبو بني عمون إلى اليوم». (سفر التكوين، الإصحاح ١٩: ٣٠ ــ ٣٨).

وهكذا تنتهي قصة لوط عليه السلام في التوراة المحرفة بهذه الصورة المخزية، حيث يصورون نبياً من أنبياء الله بأنه يسكر حتى لا يعلم ما يفعل، ويصورون بناته بهذا الشبق المخجل والمخيف لدرجة أنهن يسعين لأن يزنين مع أبيهن الشيخ!!.

وبصرف النظر عن التناقضات الكثيرة في قصة لوط من أولها لآخرها، حيث تزعم التوراة المحرفة تارة أن بناته لم يعرفن رجلاً، وبعد سطرين أو ثلاثة تزعم أنهن متزوجات. ثم تزعم التوراة أن لوطاً طلب من الملكين أن يذهبا به إلى مدينة صوغر، وفجأة يترك المدينة بدون أي سبب ليذهب إلى مغارة في الجبل مع ابنتيه، وكان في إمكان البنتين النزول من المغارة والاتصال بالرعاة المنتشرين في المنطقة، ولكن مؤلفي التوراة المحرفة من الأحبار أصروا على تلويث الأنبياء بصورة مقززة مقرفة.

فقد أصرَّ هؤلاء الأحبار الذين حرّفوا التوراة على تلويث جميع الأنبياء عليهم السلام. فإبراهيم وإسحاق يعرضان زوجتيهما على الملوك من أجل الحصول على المال، ويعقوب كما سيأتي يخدع أباه، ويسرق خاله، ويأخذ العهد بحيلة ومكر. وإبراهيم يتزوج من أخته سارة، ونوح يسكر حتى يتعرى، ولوط يسكر ويزني بابنتيه، وأبناء يعقوب زناة فجرة، فراؤبين يزني بامرأة أبيه بلهة، ويهوذا يزني بكنته ــ زوجة ابنه ــ ثمارا، وداود عليه السلام يزني بحليلة جاره، ثم يدبر مكيدة لاغتيال زوجها والتخلص منه. وهارون يصنع العجل ويعبده، وأمنون بن داود يزني بأخته، وسليمان يتزوج ألف امرأة ويعبد معهن آلهتهن الكثيرة، ويصنع لها المعابد والتماثيل، ويوشع ــ يشوع ــ بن نون يتزوج راحاب الزانية، وينجب من نسلها ثمانية أنبياء. والأنبياء جميعاً عندهم لصوص وكذبة وفسقة وزناة، وجبناء وقتلة، وشاربو خمر، وفي كثير من الأحيان عبدة أوثان. فإذا كان الأنبياء بهذه الحقارة والدناءة، وكانت كل الرذائل جائزة لهم، فلا شك أنها من باب أولى تكون جائزة لليهود. لهذا فإن اليهود على مدار التاريخ يمثلون أحقر ما في تاريخ البشر. كل صفات الخسة والجبن والكذب والخداع فيهم. لا يتورعون عن أي جريمة إذا تمكنوا منها: الزنى، شرب الخمر، اللواط، السرقة، الربا، الغش، القتل، كلها موجودة بصورة مكثفة فيهم. عليهم فقط أن يرتكبوا جرائمهم مع الشعوب الأخرى، التي لم يخلقها الله على هيئة بشر إلا من أجل أن يخدموا اليهود. فإن الله كما يقول التلمود: قد خلق نوعين من البهائم لخدمة الإنسان:

الخيل والبغال والحمير، والبهائم التي على صورة إنسان، وهي جميع البشر من غير اليهود. وذلك ليكونوا لائقين لخدمة ابنه البكر إسرائيل. لذا يجب على اليهودي أن لا يقرض غير اليهودي إلا بالربا، ويجب عليه دِيناً أن يغشَّ غير اليهودي، وأن يسرقه، لأن غير اليهودي ملك لليهودي، فكيف بماله!! وأن عليه أن يصل إلى غرضه بكل وسيلة ممكنة، وأن يتذلل إذا اقتضى الأمر ذلك. وعليه أن يقدم بنته الجميلة للحصول على مآربه. ولهذا يقدس اليهود أستير ويجعلون لها سفراً كاملاً في التوراة المحرفة. وأستير هذه فتاة جميلة لعوب، استطاعت أن تستولي على قلب كسرى ملك فارس، وبهذه الطريقة استطاعت أن تنقذ اليهود من الأسر والهوان والتعذيب، وأن تفتح لهم جميع مناصب الدولة الفارسية، وأن تجعل كسرى يأمر بإعادتهم إلى فلسطين، وبناء الهيكل مرة أخرى من أجلهم.

لهذا فإن كل الوسائل التي تؤدي إلى تمكن اليهود وسيطرتهم على العالم تعتبر مباحة، بل مفروضة عليهم فرضاً. ولذا فإن اليهود مجموعة من البشر الملوثين الحاقدين على الإنسانية، ويسعون سعياً حثيثاً لامتطاء صهوة البشر جميعاً، وجعلهم لهم عبيداً. إذ إن بني إسرائيل مخلوقون من روح الله، أما بقية البشر فهم من أرواح الشياطين!! والإسرائيلي جزء من الله، كما أن الابن جزء من أبيه، كما تزعم تعاليم التلمود!! لذا فلا يحق لأحد أن يعترض على أن يكون عبداً للإسرائيلي، بل إن ذلك هو الفخر الحقيقي، حيث يرتفع الإنسان طواعية لخدمة ابن الله البكر إسرائيل.

ويحق لليهود حسب تعاليم التوراة، بل يجب عليهم أن يبيدوا جميع الشعوب الموجودة في فلسطين، وأن يحرِّموهم تحريماً، أي أن يقتلوا الشيخ والرضيع، المرأة والرجل، الإنسان والحيوان... وعلى أقل تقدير عليهم أن يطردوهم طرداً من الأرض التي جعلها الله لهم، والتي حلف الرب فيها لإبراهيم وإسحاق ويعقوب أن يجعلها لهم ولنسلهم أبد الآبدين، من النيل إلى الفرات.

قصة لوط عليه السلام في القرآن الكريم:

شتان ما بين ما يعرضه القرآن الكريم من صور الأنبياء الناصعة وبين ما تعرضه التوراة المحرفة، من صور مخزية تزعم أنها تحكي حياة الأنبياء.

ويأتي ذكر لوط عليه السلام لأول مرة عند خروج إبراهيم عليه السلام من وطنه وهجرته إلى الأرض التي بارك الله فيها، أرض الشام. . حيث لم يؤمن به من قومه إلا لوط عليه السلام ــ ابن أخيه ــ وزوجته سارة. قال تعالى:

﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾. (العنكبوت: ٢٦ ــ ٢٧).

وقال تعالى:

﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾.

(الأنبياء: ٧١).

واستقر إبراهيم عليه السلام في أرض كنعان، واستقر لوط في دائرة الأردن. وكان القوم الذين سكن بينهم لوط وأصهر إليهم قوم سوء فاسقين. كانوا يقطعون السبيل ويفعلون في ناديهم المنكر، ويأتون الرجال شهوة من دون النساء. وهي جريمة ابتكرها قوم لوط، جريمة لم يسبقهم بها أحد من العالمين.

قال تعالى:

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾. (الأعراف: ٨٠ ــ ٨٤).

دعاهم لوط عليه السلام إلى الله سبحانه وتعالى: وأنكر عليهم فعلتهم الشنعاء وجريمتهم النكراء وانتكاس فطرتهم وجبلّتهم، وكان القوم قد ولغوا في الرذيلة، وأصبح المنكر لديهم معروفاً والمعروف منكراً. إن التطهر جريمة عندهم، ينبغي التبرؤ منها، وطرد المتطهرين من أرضهم النجسة، قالوا عن لوط وأهله: ﴿أخرجوهم من

قريتكم إنهم أناس يتطهرون﴾. إنها جريمة في عرفهم أن يكون لوطاً ومن معه من المتطهرين. وصبر لوط عليه السلام على هؤلاء القوم المجرمين الذين جمعوا رذائل الأمم الأخرى وأضافوا إليها جريمة لم تعرفها البشرية من قبل قط، وهي إتيان الذكور.

ويئس لوط من هدايتهم. وجاءه الخبر من الله الجبار المنتقم بأن هؤلاء القوم مُهلكون. وأرسل الله ملائكة في صورة بشر، جميلي الطلعة. فمروا بإبراهيم عليه السلام أولاً كما قد ذكرنا في قصة إبراهيم، وبشروه بولادة إسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب. وأخبروه أن الله قد أرسلهم لمعاقبة قوم لوط. فاستمهلهم إبراهيم الأواه المنيب الحليم. وبدأ في محاولة إقناع الملائكة بإرجاء العذاب وإعطائهم فرصة أخرى. فلما أخبروه أن القوم قد استمرأوا الرذيلة والفساد، وأن لا بد من تطهير الأرض من رجسهم، قال: إن في تلك القرى لوط عليه السلام. قال الملائكة: نحن أعلم بمن فيها، لننجينّه وأهله إلا إمرأته كانت من الغابرين.

قال تعالى في سورة العنكبوت (٢٨ ــ ٣٥):

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

وفي سورة هود نرى إبراهيم عليه السلام، وهو يجادل الملائكة. قال تعالى:

﴿فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط. إن إبراهيم لحليم أواه منيب يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود﴾.

وخرج الملائكة من عند إبراهيم عليه السلام، وإذا هم عند لوط عليه السلام في سدوم. انزعج سيدنا لوط انزعاجاً شديداً لرؤية هذه الوجوه الجميلة الصباح. إنه يعرف أن قومه لا يتركون رجلاً يمر دون أن يعتدوا عليه، فكيف بهؤلاء الفتيان الذين لم يَرَ أصبحَ منهم ولا أنضر في حياته.

قال تعالى:

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۚ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾. (هود: ٧٧ ــ ٨٣).

عندما ظهر الملائكة فجأة أمام لوط عليه السلام ﴿سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب﴾ لأنه يعرف قومه وفسقهم وحقارة أخلاقهم. وحاول لوط أن يوضح لهؤلاء الفتيان المرد أن هذه القرية فاسدة، وأنها حقيرة، وأن عليهم أن يبتعدوا عنها، لكن ضيوفه لم يبدوا أي اهتمام لما يقول. فلما قال لهم: ﴿إنكم قوم منكرون﴾ صرحوا له بحقيقة مهمتهم، وأنهم ملائكة لن يصلوا إليهم قط. وقالوا له:

﴿بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾. (الحجر: ٦٣ ــ ٦٦).

وما أن دخل الضيوف بيت لوط حتى تسللت امرأة لوط، التي كانت كافرة على دين قومها، تخبرهم أن فتياناً ما خلق الله أجمل منهم قد دخلوا بيت لوط. وسرعان ما تجمع أهل سدوم يدكّون باب بيت لوط ويصرخون: أَخْرِجْ الضيوف إلينا يا لوط. ولوط عليه السلام في منتهى الحرج والضيق، لأنه لم يكن يعلم حتى تلك الساعة أن ضيوفه ليسوا من البشر بل ملائكة مكرمون. وتقدم لوط يخاطب فطرهم التي قلبوها ﴿يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم﴾. الفطرة السليمة تناديكم أن تتزوجوا النساء اللاتي خلقهن الله لكم. وتواقح القوم في ردهم على لوط ﴿قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد﴾. إنهم يعلمون أن لوطاً عليه السلام لم يعرض بناته إلا على سبيل الزواج، ولتذكيرهم بما تدعو إليه الفطر السليمة من التفكير في الزواج من الجنس الآخر. ولكنهم لووا الكلام كعادتهم وقالوا له: ﴿لقد علمت ما لنا في بناتك من حق﴾ ثم أوجزوا طلبهم ﴿وإنك لتعلم ما نريد﴾ والدنيا كلها تعلم ما نريد. إننا نريد هؤلاء الفتيان الذين دخلوا بيتك.

إننا قوم نفتخر بأننا أول من مارس هذا الشذوذ، وأول من اخترع هذه الجريمة وباشرها على الأرض. وهنا تفجّر حزن لوط وغضبه المكتوم ﴿قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد﴾. تحدث لوط عليه السلام بأسىً. إنه غريب في هذه الأرض، وليس له عشيرة تنصره، ولا ولدٌ يناصره، ولا صديق يلجأ إليه. بلغ به الأسى والحزن مداه. ها هنا التفت إليه الملائكة وأخبروه بحقيقتهم ﴿قالوا يا لوط إنّا رسلُ ربك لن يصلوا إليك﴾.

ازداد هياج قوم لوط. كأن استعطافه لهم يزيد من سعارهم. أخذوا يزأرون، أخرج إلينا ضيوفك يا لوط! ولوط يرتعد خوفاً وفرقاً على ضيوفه. هجموا على الباب وكسروه عنوة، دخلوا بالعشرات وها هنا تحركت يد جبريل تطمس على أعينهم، فإذا هم جميعاً قد فقدوا أبصارهم، كما فقدوا بصيرتهم من قبل.

قال تعالى: ﴿ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر﴾. وخرجوا يتصايحون، وهم لا يدرون إلى أين يتجهون. واطمأنت نفس لوط عليه السلام

في تلك اللحظة، وأعلن الملائكة أن الله قد أرسلهم لإهلاك هؤلاء القوم الفسقة. فقال لوط: متى؟ قالوا: ﴿إن موعدهم الصبح﴾، قال لوط عليه السلام، وقد نفذ صبره على هؤلاء القوم المجرمين: أريد أعجل من ذلك. قال الملائكة: أليس الصبح بقريب؟!

وخرج لوط عليه السلام وابنتاه وزوجته معهم. سرى بأهله ليلاً وأمرهم أن لا يلتفت منهم أحد. فلما بعدوا عن القرية، بدأت تباشير الفجر تظهر، وجاء عذاب الله. رفع جبريل أرضهم إلى السماء ثم قلبها عليهم، وأمطرتهم السماء بحجارة مسومة ـ معلمة ـ كل واحدة منها تقتل شخصاً بعينه. فلما سمعت زوجة لوط الجلبة، التفتت وصاحت: واقوماه، فأصابها حجر من تلك الحجارة فأهلكها على الفور.

وانطلق لوط عليه السلام من تلك الأرض التي لوثها هؤلاء القوم الفسقة، ذوي الطبائع الغريبة الشاذة، والتي تصر على فسادها وشذوذها، وتتفاخر بذلك الشذوذ والفساد، وترى أنها قد اخترعت ما لم تعرفه البشرية من قبل، فهو محل اعتزازها وفخرها.

وتنتهي قصة لوط عليه السلام بهذه الخاتمة:

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾.

وفي سورة الحجر، قال تعالى:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾. (الحجر: ٧٣ ـ ٧٧).

ذهب قوم لوط، وبقيت العبرة والعظة. إن في ذلك لآية للمتوسمين الذين ينظرون في العواقب، ويفكرون في نتيجة تصرفاتهم وأعمالهم. وقد جعل الله قرى قوم لوط في مكان تمر به قوافل قريش والعرب في رحلتهم إلى الشام. إنها لبسبيل مقيم، بطريق واضح معروف مطروق. وهم يعرفون ما حل بهؤلاء القوم المجرمين، فلماذا

لا يتعظون ويعتبرون؟! إن في ذلك لآية وعبرة للمؤمنين.

وشتان ما بين نهاية قصة لوط وقومه في القرآن الكريم، ونهاية قصة لوط وبناته في التوراة المحرفة. تنتهي القصة في القرآن الكريم بالموعظة والعبرة، وتنتهي القصة في التوراة المحرفة بدعوة إلى الفجور، وإلى شرب الخمور، وإلى اعتداء الإنسان على محارمه. تنتهي بصورة حقيرة بالغة الخسة تفوق خسة قوم لوط وشذوذهم. تنتهي بأن تزعم هذه التوراة المحرفة أن نبياً كريماً من أنبياء الله قد قارف الفاحشة مع ابنتيه بعد أن شرب الخمر. ويا لها من صورة تثير التقزز والاشمئزاز. ولكنها عقلية أحبار يهود الذين لوثوا الأنبياء جميعهم، ليسهل لهم اقتراف جرائمهم التي لا يدانيها جرائم أي قوم آخرين، ولو كانوا قوم لوط.

* * *

يعقوب (عليه السلام) وبنوه

قصة يعقوب عليه السلام في التوراة المحرفة:

يعقوب عليه السلام هو إسرائيل. وإسرا تعني عبد وئيل تعني الله، أي عبد الله. وقيل: إن إسرا معناها القوي ــ أي الشديد الأسر ــ وئيل الله، أي القوي بالله. وترد قصة يعقوب في التوراة المحرفة بشيء من التفصيل. ذلك لأن يعقوب هو الذي تنتسب إليه أسباط بني إسرائيل جميعاً. وقد عمدت التوراة المحرفة إلى تشويه صورة يعقوب كما شوهت صور كثير من الأنبياء من قبل ومن بعد، ولكنها جعلت ليعقوب صفات المكر والخداع والكذب والغش التي يتميز بها اليهود، عليهم لعائن الله أبد الدهر. كما إنه لا يخلو من البطش وسفك الدماء عندما تحين له الفرصة. وهي هي صفات يهود في كل زمان ومكان ألصقوها ظلماً وكذباً وزوراً وبهتاناً بأنبياء الله. أما أبناء يعقوب، فقد ألصقوا بهم تهماً شنيعة أخرى مثل: أن يزني راؤبين الابن البكر ليعقوب بزوجة أبيه بلهة، في حياة أبيه، ثم يباركه يعقوب أبوه بعد ذلك!!! كما يزني يهوذا أسد إسرائيل بكنته ثمارا زوجة ابنه!! هذا بالإضافة إلى جرائم القتل والغش والخداع والسرقة.

مولد يعقوب:

تزوج إسحاق عليه السلام من رفقة أخت لابان ــ من نسل ناحور والد إبراهيم ــ. وبقيت رفقة عشرين سنة عاقراً ثم حملت، وكان حملها توأمين. جاء في سفر التكوين (الإصحاح ٢٥: ١٠ ــ ٢٣): «وكان إسحاق ابن أربعين سنة لما اتخذ

لنفسه زوجة رفقة بنت بتوئيل الآرامي، أخت لابان من فـدّان آرام. وصلى إسحاق إلى الرب لأجل امرأته لأنها كانت عاقراً، فاستجاب له الربُّ، فحبلت رفقة امرأتـه. وتزاحم الولدان في بطنها فقالت: إن كان هكذا فلماذا أنا؟ ــ تقصد إن كان الأمر بهذه الشدة، وأموت في هذا الجبل، فلماذا أنا حبلت إذن ــ فمضت لتسأل الرب، فقال لهـا الرب: في بطنك أمتان، ومن أحشائـك يفترق شعبـان. شعب يقوى على شعبٍ وكبيـر يُستعبَدُ لصغيرٍ. أي إن يعقـوب الصغيـر سيستعبـد أخـاه الكبيـر عيسـو. وإن أبنـاء يعقـوب سيحكمون ويستعبدون أبناء عيسو. هكذا قضى الرب حسب زعمهم.

«فلما كملت أيامهـا لتلد، إذا في بطنهـا توأمـان. فخرج الأول أحمـر كله كفروة شعر، فدعوا اسمه عيسو، وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو، فدعي اسمه يعقوب. وكان إسحاق ابن ستين سنة لما ولدتهما».

وهكذا تعقب يعقوب بكورية أخيـه عيسو، ثم اشتـراها منـه بعد ذلـك كما تـزعـم التوراة، التي تجعل للبكورية مقاماً عظيماً، وأنه لا يرث من الأب إلا الابن البكر. وكبر الغـلامان وكـان عيسو إنسـاناً يعـرف الصيد فـأحب إسحاق عيسـو لأن في فمه صيـداً. ــ سبب غريب للحب ــ وأما رفقة فكانت تحب يعقوب الذي لم يكن يعرف أن يصطاد والذي سكن الخيام، «وطبـخ يعقوب ذات يـوم طبيخاً فـأتى عيسو من الحقـل وهو قـد أعيا، فقال ليعقوب أطعمني من هذا الأحمر لأني قد أعييت... لذلك دعى اسمه أدوم ــ أي إدام ــ فقـال يعقوب: بعني اليـوم بكوريتـك. فقال عيسـو: هـا أنـا مـاضي إلى الموت، فلماذا لي بكورية!! فقال يعقوب: احلف لي اليوم، فحلف له، فباع بكوريته ليعقوب، فأعطى يعقوب عيسو خبزاً وطبيخ عدس، فـأكل وشـرب وقام ومضى فـاحتقر عيسو البكورية». (سفر التكوين ٢٥ : ٢٧ ــ ٣٤).

وهكذا تزعم التوراة أن عيسو كان هو الذي يصطاد، وهـو الذي يـذهب للحقل، بينما كان يعقوب خاملاً يقوم بأعمال المنزل في بعض الأحيان. وكأنه فتاة. ثم تزعم أن يعقـوب رفض أن يعطي أخـاه قليلاً من إدام العـدس والخبز إلا بعـد أن باع لـه عيسـو بكوريته. كان عيسو مجهداً جداً، وجائعاً جداً، لدرجـة أنه أحس بـأنه سيمـوت، لهذا تنازل عن بكوريته، وأعطاها ليعقوب في مقابل وجبة من الخبز والعدس.

زواج عيسو من الفلسطينيين:

«ولما كان عيسو ابن أربعين سنة اتخذ زوجةً: يهوديت ابنة بيري الحِثي، وبسمة ابنة إيلون الحثّي. فكانتا مرارة نفسٍ لإسحاق ورفقة» (سفر التكوين ٢٦).

قصة إعطاء العهد ليعقوب بالمكر والخداع:

تزعم التوراة «أن إسحاق لما شاخ وكلّت عيناه عن النظر، دعا ابنه عيسو ــ ابنه الأكبر ــ وقال له: إنني قد شخت، ولست أعرف يوم وفاتي، فالآن خذ جعبتك وقوسك واخرج إلى البرية وتصيّد لي صيداً، واصنع لي أطعمة كما أحب، وائتني بها لآكل حتى تباركك نفسي قبل أن أموت». (سفر التكوين، الإصحاح ٢٧: ١ ـ ٤). وهكذا ذهب عيسو لإحضار الصيد.

ولسنا ندري لماذا لا تحدث البركة إلا بعد أن يأكل من الصيد ويشرب من الخمر؟!! على أي حال كانت رفقة تسمع كلام إسحاق مع عيسو. وبما أن رفقة لا تحب ابنها عيسو، وخاصة بعد زواجه من بني حثّ الفلسطينيين، وبما أنها تحب يعقوب حباً جماً فقد ساءها أن تذهب البركة لعيسو. لهذا دعت ابنها يعقوب وأخبرته بما قال أبوه إسحاق، وقالت له: «اسمع لقولي. اذهب إلى الغنم وخذ لي من هناك جديين جيدين من المعزى فأصنعهما أطعمة كما يحب، فتحضرها إلى أبيك ليأكل حتى يباركك قبل وفاته. فقال يعقوب لرفقة أمه: هوذا عيسو أخي رجل أشعر وأنا أملس، ربما يجُسُّني أبي فأكون في عينيه كمتهاون، وأجلب على نفسي لعنة لا بركة. فقالت له أمه: لعنتك عليَّ يا ابني». ذهب يعقوب وأحضر الجديين، وصنعت أمه الأطعمة التي يحبها إسحاق، ولبس يعقوب في يديه وعنقه جلد الجدي، ولبس أفخر ألبسة عيسو التي أعطتها له أمه، ودخل يعقوب على أبيه «وقال يا أبي! فقال ــ إسحاق ــ ها أنذا. من أنت يا بني؟ فقال يعقوب: أنا عيسو بكرك، قد فعلت كما كلمتني. قم اجلس وكل من صيدي لكي تباركني نفسك» ــ لا تأتي البركة إلا بعد الأكل ــ واستغرب إسحاق سرعة عودة عيسو، وشكَّ في الصوت، فالصوت صوت يعقوب، لهذا قال له: تقدم لأجسّك يا ابني. فتقدم يعقوب فجسه فقال: «الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو. لأن يدي يعقوب كانتا مشعرتين كيدي عيسو»..

وأراد إسحاق أن يتأكد من أن الذي يخاطبه هو عيسو لا يعقوب، فأخذه وقبّله، فوجد ريح ثياب عيسو، فاطمأنت نفسه. وقام ليأكل جديين كاملين!! يا للهول رجل قد تجاوز المائة يأكل جديين كاملين في وجبة واحدة، **ثم لا يكتفي بذلك بل يأكل معهما خبزاً ويشرب كمية كبيرة من الخمر**، حتى تحل البركة وتنزل على يعقوب. لأن البركة لا تنزل إلا بعد الأكل والوجبات الدسمة، وبعد شرب الخمر. وإذا كان الرب كما يزعمون لا يعطي بركته إلا بعد أن يقدم له عدة خرفان مشوية، فمن باب أولى كذلك أن أنبياءه لا يعطون بركتهم إلا بعد تناول جديين من الماعز مع قنينة من الخمر المعتق!! لعنات الله على اليهود أبد الآبدين. أكل إسحاق وشرب وارتوى من الخمر المعتق. حينئذ بارك ابنه يعقوب وقال له: «**فليعطك الله من ندى السماء، ومن دسم الأرض، وكثرة حنطة وخمر، ليستعبد لك شعوب، وتسجد لك قبائل، كن سيداً لإخوتك. وليسجد لك بنو أمك. ليكن لاعنوك ملعونين. ومباركوك مباركين**» (سفر التكوين، الإصحاح ٢٧).

هذه هي البركة.. أموال وحقول، وحنطة وخمر، ولتستعبد لك شعوب وتسجد لك قبائل، لتكن إلـهاً من دون الله ــ والعياذ بالله ــ. هذه هي مزاعم يهود وفلسفاتهم التي تنضح بالحقد على كل البشر، وأن الله قد جعل لهم كل البشر عبيداً إلى أبد الآبدين، لأنهم أبناؤه وأحباؤه، لا على المعنى المجازي بل على المعنى الحقيقي. فكما أن الابن جزء من أبيه، كذلك فإن الاسرائيلي جزء من الله ــ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ــ.

فضيحة يعقوب كما ترويها التوراة المحرفة:

وتزعم التوراة المحرفة أن إسحاق ما كاد ينتهي من إعطاء البركة ليعقوب الكاذب المخادع، الذي زعم أنه عيسو، حتى جاء عيسو بصيده وقدمّهُ إلى أبيه قائلاً: «ليقم أبي ويأكل من صيده، حتى تباركني نفسك. فقال له إسحاق أبوه: من أنت؟ قال: أنا ابنك بكرك عيسو. فارتعد إسحاق ارتعاداً عظيماً جداً، وقال: فمن هو الذي اصطاد صيداً وأتى به إليّ فأكلت من الكل قبل أن تجيء وباركته؟ نعم ويكون مباركاً». فعندما سمع عيسو كلام أبيه صرخ صرخة عظيمة جداً ومُرَّةً جداً، وقال لأبيه: «باركني أنا أيضاً

يـا أبي». فقـال إسحـاق: «**قـد جـاء أخـوك بمكـر وأخـذ بـركتـك**». (سفـر التكوين ٢٧: ٣٠ ــ ٣٥).

عيسو يسأل أباه: أما بقيت لك بركة؟

طلب عيسو من أبيه أن يباركه أيضاً. وبما أن البركة لا تأتي إلا بعد أكـل الطعـام وشـرب الخمر، وبمـا أن إسحاق قـد أكل جـديين كاملين مـع قنينـة كـاملة من الخمـر المعتقة وكمية من الخبز الجيد، فإن عملية إنزال البركـة مرة أخـرى أمر متعـذر تمامـاً. لأن بطن إسحاق قد امتلأت لحماً وخبزاً وخمراً، حتى وصل الأكل إلى أعلى المريء. وبما أن عيسو لا يفهم في شؤون الأكل هذه ولا في شؤون البـركة، فقـد بقي المسكين يلحّ على أبيه أن يعطيه ولو قليـلاً من البركـة، ووالده يحـاول عبثاً أن يفهمـه أن البركـة لا يمكن أن تنزل إلا بعد وجبة رهيبة. وبمـا أنه شبعـان فإنـه لا يستطيـع أن يعطيـه أي بركة!!

«صاح عيسو: **أما أبقيت لي بركـة؟ فأجـاب إسحاق: إني قـد جعلته سيـداً لك، ودفعت إليه جميع إخـوته عبيـداً وعضّدتـه بحنطة وخمـر** ــ ما دام قـد عضده بـالحنطة والخمر فإن الأمر قد انتهى تماماً ــ فماذا أصنع لك يا بني؟» القضية منتهية، ولا مجـال فيها للنقاش. البركة نزلت بعد أكل جديين كاملين وبعد شرب قنينة من الخمر المعتقة، وقـد عضّد يعقـوب بخمر وحنـطة. مسألـة مهمة جـداً حكايـة الخمـر والحنـطة هـذه. فلا يمكن فك البركة أو إلغاؤها بأي وسيلة من الوسائل.

وبما أن عيسو رجل متواضع جداً، وليس لديه حقد حتى مع من سرق بكوريتـه، وسرق بركته، فإنه لم يطلب سوى أن يأخذ ولو شيئاً يسيراً من هـذه البركـة. ولهذا ظـل يردد على مسامع أبيه: «باركني أنا أيضاً... ألك بـركة واحـدة فقط يا أبي»... ولكن أبـاه إسحاق أجـابه أخيـراً ببركـة أشبه بـاللعنـة، قـال: «هـوذا بـلا دسم الأرض يكـون مسكنك. وبلا ندى السماء من فوق. وبسيفك تعيش ولأخيك تُستعبَد».

هذه هي البركة!! اللعنة التي حصل عليها عيسو من أبيه إسحـاق بعد إلحـاح منه ومماطلة من أبيه.

صرخ عيسو صرخة عظيمة وبكى بكـاءً مرّاً، وحقـد على أخيه يعقـوب، وحُقَّ له

أن يحقد، ولكن رفقة أدركت ذلك كله، ولهذا نصحت ابنها يعقوب بأن يسافر من أرض كنعان، ويذهب إلى خاله لابان في أرض الآراميين في أور كلدان، حتى ينسى عيسو ويذهب حقده على أخيه، لأنها تعرف أن قلب عيسو نقي، مهما أسيء إليه يعفو ويصفح، وهو ليس حقوداً ولا ماكراً كيعقوب أخيه، حسب زعمهم.

سفر يعقوب وأخذه البركة مرة أخرى:

خرج يعقوب من أرض كنعان وتوجه إلى أرض خاله لابان، بعد أن أوصته أمه أن يخرج خوفاً من بطش عيسو، كما طلبت منه أن يتزوج من بنات خاله. وفعل إسحاق الشيء ذاته قبل سفر يعقوب، وأوصاه بأن لا يأخذ له زوجة من بنات كنعان، وأن يأخذ زوجة من بنات خاله لابان الآرامي. ودعا له مرة أخرى بالبركة «**والله القدير يباركك ويجعلك مثمراً ويكثرك فتكون جمهوراً من الشعوب. ويعطيك بركة إبراهيم لك ولنسلك معك. لترث أرض غربتك التي أعطاها الله لإبراهيم**» (سفر التكوين ٢٨ : ١ ــ ٥).

والبركة كما لاحظنا في التوراة هي عبارة عن أرض ومال وكثرة أبناء، وسيطرة على الشعوب الأخرى، وجعلهم عبيداً لهم. إبراهيم كما تزعم التوراة حصل على هذه البركة بواسطة الأغنام التي قدمها محرقة قرباناً للرب. وإسحاق فعل الشيء ذاته. ويعقوب حصل على البركة بخدعة، بعد أن قدم اللحم المشوي لأبيه إسحاق.

لا يوجد ذكر في التوراة من أولها لآخرها لليوم الآخر والقيامة والجنة والنار. لا شك أن التوراة الحقيقية كانت مليئة بذكر اليوم الآخر والجنة والنار. ودليل ذلك أن اليهود في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يزعمون أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة.

قال تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴿٨٠﴾﴾. (البقرة: ٨٠).

ومعنى هذا ببساطة أن التوراة المحرفة الموجودة في أيام النبي صلى الله عليه وسلم كان فيها ذكر الجنة والنار. أما التوراة التي بين أيدينا فقد مُحي منها ذكر الجنة والنار واليوم الآخر. كل ما يذكر في التوراة من نعيم فهو في الدنيا، وكل ما يذكر فيها

من عـذاب وشقاء فهـو في الدنيـا أيضاً. ألغى أحبـار اليهود عقيـدة اليوم الآخـر والجنة والنار من التوراة مطلقاً.

جعلوا البـركـة تتحقق في الحصـول على الأمـوال والأنعـام، والحـرث والأولاد، والخيـل المسومـة، والقناطيـر المقنطرة من الـذهب والفضة. ولا يهم بعـد ذلـك كيف حصلوا عليهـا، ولا من أي طـريق وصلوا إليهـا!! المهم أن يصلوا إليهـا ويكنـزوهـا ويتحكموا بواسطتها في شعوب الأرض. «لتستعبد لك شعوب وتسجد لك قبائل».

ومهمـا فعل اليهـود من ذنوب وجـرائم فـإن الله لا يغضب عليهم إلا كمـا يغضب الأب على ابنه البكر الأثير لديه. يغضب عليه ساعة ثم يعود إليه بالهبات والعطايا. أمـا الآخرون فليسوا أبناءه، ولا يمكن أن ينالوا رضاه مهمـا فعلوا من خير، فهـو لم يخلقهم أساساً إلا لخدمة ابنه البكر إسرائيل!!

وفي الـطريق إلى أرض الآراميين رأى يعقوب الـرب واقفاً، فقـال له الـرب: «أنا الـرب إلـه إبراهيم وإسحـاق. الأرض التي أنت مضطجع عليهـا أعـطيهـا لـك ولنسلك ويكون نسلك كتراب الأرض، وتمتد شرقاً وغرباً وشمالاً وجنـوباً، وأنـا معك أحفظك حيثما تذهب وأردك إلى هذه الأرض». (سفر التكوين ٢٨ : ١٠ ــ ١٥).

زواج يعقوب:

ذهب يعقوب إلى أرض الآراميين كما أوصاه أبوه إسحاق وأمه رفقة. وهناك وجد بعض الـرعاة مجتمعين حـول بئر مغـطاة بحجر ثقيـل، فقال لهم: مـا لكم لا تسقـون؟ قالوا: الحجر ثقيل، ولا نقدر أن نحركهـا حتى يجتمع الـرعاة. فلمـا رأى يعقوب فتـاة جميلة مقبلة هي وأغنـامها، دحـرج الحجر عن فم البئـر وسقى لها. وعـرف يعقوب أن الفتاة الجميلة هي راحيل ابنة خالـه لابان فـاحتضنها وقبّلهـا ــ موقف غـرامي من أفلام هوليود ــ وجاء لابان وسُرَّ جداً بمقدم ابن أخته. وبقي يعقوب عند خـاله لابـان يخدمـه ويرعى له في مقابل أن يزوجه راحيل الجميلة جداً.

ولما أتم يعقوب مدة خدمته أدخل له لابان البنت الكبـرى ليتة في الـظلام، فبنى بها يعقوب. ولمـا أصبح الصبـاح عاتب خـاله لابـان قائـلاً: «ما هـذا الذي صنعت بي

أليس براحيل خدمت عندك؟ فقال لابان: لا يفعل هكذا في مكاننا أن تعطى الصغيرة قبل الكبيرة. أكمل أسبوع فنعطيك تلك أيضاً بالخدمة التي تخدمني أيضاً سبع سنين أُخر. ففعل يعقوب هكذا، فأكمل أسبوع هذه، فأعطاه لابان راحيل زوجة له». (سفر التكوين، الإصحاح ٢٩).

تنافس ليتة وراحيل:

«ورأى الربُّ أن ليتة مكروهة ففتح رحمها، وأما راحيل فكانت عاقراً، فحبلت ليتة وولدت ابناً ودعت اسمه راؤبين، ثم ولدت آخر وسمّته شمعون «لأن الرب سمع لي»، وولدت ثالثاً وسمته لاوي، وتأكدت أن زوجها يعقوب سيحبها الآن بعد أن أنجبت له ثلاثة من البنين. ثم ولدت رابعاً وسمته يهوذا، وقالت هذه المرة أحمدُ الرب.

وغارت راحيل غيرة شديدة، وقالت ليعقوب: «هب لي بنين وإلا فأنا أموت». فقال يعقوب: ألعلّي مكان الله الذي منع عنك ثمرة بطنك؟ فقالت: هوذا جاريتي بلهة ادخل عليها فتلد لك. فدخل عليها يعقوب وأنجبت ابناً سمته راحيل دانا، لأن الله قضى لها ودان، وولدت بلهة ابناً ثانياً سمته راحيل نفتالي، وقالت: مصارعات الله قد صارعتُ أختي.

وحمى الوطيس بين الأختين، وقامت ليتة بتقديم جاريتها زلفة وأعطتها ليعقوب وولدت له جاد وأشير. وولدت ليتة ابناً خامساً دعت اسمه يساكر وسادساً أسمته زبولون وبنتاً أسمتها دينة..

وأخيراً حملت راحيل وولدت يوسف.

انصراف يعقوب وعودته إلى أرض كنعان:

قرر يعقوب أن ينصرف ويعود بزوجتيه وأولاده العديدين إلى بيت أبيه في أرض كنعان. واحتال يعقوب حيلة ساذجة ليسرق أغنام خاله ـ حسب زعمهم ـ اتفق مع خاله على أن يأخذ يعقوب كل شاة رقطاء وبلقاء، وكل شاة بلقاء ورقطاء بين المعز، وكل شاة سوداء بين الخرفان. وأخذ يعقوب الأغنام وجعل قضباناً من أشجار اللوز والدلب وقشّر فيها خطوطاً، وأوقف القضبان في مساقي الماء، حيث كانت الغنم تجيء لتشرب، لتتوحم

عند مجيئها للشرب، فتوحمت الغنم عند القضبان، وولدت الغنم مخططات ورقطاء وبلقاء. وأفرز يعقوب الخرفان، وكلما توحمت الخرفان، وضع القضبان أمام عيون الغنم في الأجران. «فاتسع الرجل أي يعقوب كثيراً جداً. وكان له غنم كثير وجوار وعبيد وجمال وحمير». (سفر التكوين ٣٠: ٢٢ ــ ٤٢).

وغضب أبناء لابان وقرر يعقوب أن يرحل سراً «فقام يعقوب وحمل أولاده ونساءه على الجمال وساق كل مواشيه وجميع مقتناه الذي اقتنى. وأما لابان فكان قد مضى ليجزَّ غنمه، **فسرقت راحيل أصنام أبيها، وخدع يعقوب قلب لابان الآرامي إذ لم يخبره** بأنه هارب. فهرب هو وكل ما كان له، وقام وعبر النهر وجعل وجهه نحو جبل جلعاد».

ولما عرف لابان بالخبر أسرع يغذُّ السير وراء يعقوب، فلما أدركه أو كاد، جاءه الرب وقال له: «احترز من أن تكلم يعقوب بخير أو شر» فخاف لابان جداً. وكلم يعقوب عندما أدركه قائلاً: «ماذا فعلت وخدعت قلبي وسُقت بناتي كسبايا السيف؟ لماذا هربت خفية وخدعتني ولم تخبرني حتى أشيّعك بالفرح والأغاني والدف والعود، ولم تدعني أقبّل بناتي وبنيّ؟! في قدرة يدي أن أصنع بكم شراً، ولكن إله أبيكم كلمني البارحة قائلاً: احترز من أن تكلم يعقوب بخير أو شر... **ولكن لماذا سرقت آلهتي؟؟!!**». (سفر التكوين ٣١: ٣٠).

وأقسم يعقوب أنه لم يسرق آلهة لابان، لأن الذي سرقها هو راحيل. وأظهر يعقوب الغضب لهذه التهمة وقال: «**إله إبراهيم وآلهة ناحور وآلهة أبيهما يقضون بيننا**». (سفر التكوين ٣١: ٥٢). **وهكذا تتهم التوراة يعقوب بأنه كان مشركاً يحلف بالآلهة الكثيرة التي كان يعبدها ناحور وتارح ــ آزر ــ كما تتهمه بأنه كان مخادعاً وكاذباً ومحتالاً وسارقاً وغشاشاً، كذب على أبيه واحتال على أخيه عيسو، وأخذ العهد والبركة بمكر، ثم احتال على خاله، وكذب عليه وسرق أمواله وأغنامه، وسرقت زوجته راحيل آلهة الذهب الكثيرة.**

ويا لها من صورة مقززة ترسمها التوراة لنبي كريم من أنبياء الله فتتهمه بكل نقيصة وكل جريمة، ابتداء من الشرك، وانتهاء بالكذب، والخداع، والمكر، والسرقة، **وتزعم التوراة أن الرب بارك يعقوب، وأقسم له بالأيمان المغلظة بأن يعطيه الأرض**

التي وعدها لأبيه إسحاق وجده إبراهيم، كما وعده أن يكثر نسله حتى يكون أكثر من نجوم السماء، ومن تراب الأرض ورمل البحر، وذلك في مقابل محرقة ولحم مشوي قدَّمه يعقوب للرب إلـهه من جملة الأغنام التي سرقها من خاله لابان.

وذهب يعقوب إلى أرض كنعان، وقدم لأخيه عيسو المخدوع هدية مئتي عنز، ومئتي نعجة، وثلاثين ناقة مرضعة، وأربعين بقرة، وعشرة ثيران، وعشرين أتانا، وعشرة حمير، وعشرين كبشاً، وعشرين تيساً. وأمر يعقوب غلامه بأن يجتاز بها إلى أرض أخيه عيسو، حتى إذا صادف عيسو الغلام وسأله: لمن أنت ولمن هذا الذي قدامك؟ تقول: لعبدك يعقوب. هو هدية مرسلة لسيدي عيسو من عبده يعقوب. وأمر جميع الغلمان بأن يقولوا نفس الكلام..». (سفر التكوين، الإصحاح ٣٢: ١٣ ــ ٢١).

وهكذا انخدع عيسو بالكلام المعسول من يعقوب المخادع الماكر حسب مزاعم التوراة المحرفة، وازداد انخداعاً عندما رأى أخاه يعقوب يسجد له إلى الأرض سبع مرات عندما لاقاه، وزعم له أنه عندما رآه فكأنما رأى الله وأصرَّ على أن يأخذ منه الهدية لأنه عبده.

يعقوب يصارع الله ويأخذ منه العهد مرة أخرى عنوة حسب زعم التوراة:

لم يكتف الأحبار الذين كتبوا التوراة ــ عليهم لعائن الله ــ بما اجترحته أيديهم واقترفوه من الكذب على يعقوب عليه السلام وعلى جميع الأنبياء حتى أتوا بفرية أعظم وبهتان أكبر. زعموا أن يعقوب بقيَ وحده في الوادي، فرأى الرب على هيئة إنسان، فصارعه يعقوب طوال الليل حتى طلع الفجر. فقال الرب ــ حسب زعمهم ــ ليعقوب: ها قد طلع الفجر. أطلقني. فرفض يعقوب أن يطلقه حتى يأخذ العهد مرة أخرى، وهذه المرة بالعنوة والقوة. فقال له الرب: لا يدعى اسمك بعد الآن يعقوب، بل إسرائيل، لأنك جاهدت مع الرب وقدرت، فباركه الرب هناك!!!

وإليك نص ما جاء في سفر التكوين (الإصحاح ٣٢: ٢٤ ــ ٣٢):

«فبقي يعقوب وحده وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر. ولما رأى أنه لا يقدر عليه ــ أي على يعقوب ــ ضرب حُقَّ فخذه. فانخلع حُقَّ فخذ يعقوب في مصارعته معه. وقال ــ الرب ــ أطلقني لأنه قد طلع الفجر. ــ وهو يخشى الفضيحة، وأن يراه

الناس يصارع يعقوباً ــ فقال يعقوب: لا أطلقك إن لم تباركني. فقال له ــ الرب ــ : ما اسمك؟ فقال: يعقوب. فقال ــ الرب ــ لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل ــ أي القوي بالله ــ لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت. وسأل يعقوب ــ الرب ــ وقال أخبرني باسمك، فقال: لماذا تسأل عن اسمي؟ وباركه هناك. فدعى يعقوب اسم المكان فنيئيل قائلاً: لأني نظرت الله وجهاً لوجه ونجيت نفسي. وأشرقت الشمس وهو يخمع على فخذه. لذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النَّسا الذي على حُقِّ الفخذ إلى هذا اليوم، لأنه ــ أي الله ــ ضرب حُقَّ فخذ يعقوب على عرق النسا».

يعقوب يخدع أخاه عيسو مرة أخرى حسب زعمهم:

وذهب يعقوب بعد ذلك لمقابلة أخيه عيسو، وقدَّم له الهدايا الكثيرة من الإبل والغنم والأبقار والحمير، وسجد له سبع مرات إلى الأرض، وأمر زوجتيه وأبناءه بأن يسجدوا جميعاً لعيسو. واعتذر عيسو عن قبول الهدايا الكثيرة، حتى لا يرزأ أخاه. فقال يعقوب: خذ هذه الهدايا من عبدك، لأجد نعمة في عيني سيدي. إن وجدت نعمة في عينيك تأخذ هديتي من يدي، **لأني رأيت وجهك كما يُرى وجه الله فرضيت عليّ. خذ بركتي التي آتي بها إليك.** وألحَّ على عيسو حتى أخذ الهدايا. (سفر التكوين ٣٣: ١ ــ ١٢).

وهكذا تقع التوراة في تناقضات كثيرة، فتارة تزعم أن إسحاق جعل يعقوب سيداً لعيسو، وتارة تزعم أن يعقوب قال لعيسو: أنا عبدك وأولادي عبيدك، وكل ما عندي هو لك. وسجد له سبع مرات، وقال له: إنه عندما يراه فكأنما رأى الله ذاته ــ تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ــ. وتبرر ذلك أن كل ما فعله يعقوب هو من باب الخداع والمكر، حتى يستطيع أن يمتلك أرض أخيه وأمواله. وما أخبث ما يزعمون.

سكنى يعقوب في أرض شكيم واقترافه جريمة القتل حسب زعم التوراة:

تزعم التوراة أن يعقوب ذهب إلى أرض شكيم ــ هي الآن مدينة نابلس في الضفة الغربية ــ وأقام هناك مذبحاً للرب ودعاه إيل إلـه إسرائيل!!

«وخرجت دينة ابنة ليتة التي ولدتها ليعقوب لتنظر بنات الأرض، فرآها شكيم بن

حمور الحوي رئيس الأرض، وأخذها واضطجع معها وأذلها. وتعلقت نفسه بدينة ابنة يعقوب، وأحب الفتاة ولاطف الفتاة. فكلم شكيم حمور أباه قائلاً: خذ لي هذه الصبية زوجة».

وذهب حمور إلى يعقوب وخطب ابنته دينة لابنه شكيم قائلاً: شكيم ابني قد تعلقت نفسه بابنتكم، أعطوه إياها زوجة، وصاهرونا، تعطوننا بناتكم وتأخذون لكم بناتاً. وتسكنون معنا وتكون الأرض قدامكم. اسكنوا واتجروا فيها وتملكوا بها». وعرض عليهم أن يدفع لهم أي مهر يطلبونه مهما غلا هذا المهر.

«فأجاب بنو يعقوب شكيم وحموراً أباه بمكر وتكلموا، لأنه كان قد نجَّس دينة أختهم. فقالوا لهما: لا نستطيع أن نفعل هذا الأمر، أن نعطي أختنا لرجل أغلف، لأنه عار لنا، غير أننا بهذا نواتيكم إن صرتم مثلنا بختنكم كل ذكر، نعطيكم بناتنا ونأخذ لنا بناتكم، ونسكن معكم ونصير شعباً واحداً.

«فحسن الكلام في عيني حمور وفي عيني شكيم بن حمور. ولم يتأخر الغلام أن يفعل الأمر لأنه كان مسروراً بابنة يعقوب. وكان أكرم جميع بيت أبيه». اختتن شكيم وحمور وجميع أهل القرية.

«فحدث في اليوم الثالث إذ كانوا متوجعين، أن ابني يعقوب: شمعون ولاوي أخوي دينة، أخذ كل واحد سيفه وأتوا على المدينة بأمن وقتلا كل ذكر، وقتلا حمور وشكيم ابنه بحد السيف. وأخذا دينة من بيت شكيم. ثم أتى بنو يعقوب على القتلى ونهبوا المدينة، لأنهم نجَّسوا أختهم. غنمهم وبقرهم وحميرهم وكل ما في المدينة وما في الحقل أخذوه، وسبوا ونهبوا كل ثروتهم، وكل أطفالهم ونسائهم وكل ما في البيت» (سفر التكوين ٣٤).

وهكذا تزعم التوراة أن دينة زنت مع شكيم بن حمور برضاها، ثم جاء الشاب يريد الزواج منها، وتظاهر الأب يعقوب وأبناؤه بالرضى والقبول، بشرط واحد هو أن يختتن شكيم وحمور وجميع الذكور، وعندما قبل شكيم وأهل القرية بهذا الشرط وكانوا متوجعين في الختان، هجم عليهم أبناء يعقوب وقتلوهم، ثم نهبوا القرية وأخذوا كل ما فيها من أموال وأخذوا النساء سبايا.

وهي صورة توضح إلى أي مدى بلغ اليهود الذين كتبوا التوراة من الحقارة والخسة، حيث زعموا أن يعقوب وبنيه كانوا مثلهم في منتهى الجبن والخسَّة والنذالة والحقارة.

يعقوب يسترضي الرب بمحرقة حسب زعمهم:

عندما قام يعقوب وبنوه بهذه الجريمة الخسيسة، خشي يعقوب على نفسه من انتقام سكان أرض فلسطين. وقال لأبنائه: إننا نفر قليل، والآن يجتمع علينا أهل هذه الأرض فيبيدونني. لهذا اتجه يعقوب إلى الله وأقام مذبحاً في بيت إيل وقرب له مجموعة من الأغنام المشوية شيّاً جيداً فتنسم الرب رائحة الرضا، وطلب يعقوب لبيته ولكل من كان معه: اعزلوا الآلهة الغريبة التي بينكم وتطهروا. فأعطوا يعقوب كل الآلهة التي في أيديهم. فطمرها يعقوب تحت البطمة التي عند شكيم ــ نابلس ــ. وتقدم للرب في بيت إيل، فباركه الرب وزرع الخوف في قلب أهل فلسطين وما حولها، فلم يسعوا للانتقام من يعقوب وبنيه. (سفر التكوين، الإصحاح ٣٤ و ٣٥).

وهكذا تزعم التوراة أن بيت يعقوب، وأبناءه وزوجاته، كانوا يعبدون الأوثان وهو راضٍ وساكت. فلما بدت له حاجة من الرب كي يحميه من سخط الفلسطينيين على فعلته الشنعاء وجريمته النكراء، تقرب للرب وترك الأرباب الأخرى التي كانت معه ومع أهله وبنيه، وطمرها تحت البطمة في قرية شكيم. وسرَّ الرب جداً برائحة اللحم المشوي، ونزل وخاطب يعقوب وجهاً لوجه، ووعده بتكثير نسله وجعلهم مثل رمل البحر وتراب الأرض ونجوم السماء، وأن أبناءه سيكونون ملوك الأرض وسادتها. وأعطاه العهد والمواثيق بذلك. «ثم صعد الرب فنصب يعقوب في المكان الذي تكلم فيه الرب عموداً من حجر وسكب عليه سكيباً وصبَّ عليه زيتاً، ودعا يعقوب اسم المكان الذي فيه تكلم الله معه بيت إيل». (سفر التكوين ٣٥).

صورة مزرية أخرى من صور الوثنية. يضع يعقوب نصباً ويصب عليه الزيت ثم يعبد بعد ذلك هذا النصب والوثن.

مصائب أبناء يعقوب:

تزعم التوراة المحرفة أن يعقوب رحل من بيت إيل، وأن راحيل ولدت ابنها

الأخير بنيامين ثم ماتت أثناء النفاس وذلك في موقع مدينة بيت لحم ونصب لها يعقوب عموداً على قبرها. ثم رحل إلى مجدل يمدر.

رأوبين يزني بإمرأة أبيه:

«وحدث إذ كان إسرائيل ساكناً في تلك الأرض أن رأوبين ــ بكر يعقوب ــ ذهب واضطجع مع بلهة سرية أبيه وسمع إسرائيل». (سفر التكوين ٣٥: ٢١ ــ ٢٢).

لم يعلن إسرائيل ــ يعقوب ــ غضبه على هذه الفعلة الشنعاء، بل سكت عليها وبارك ابنه البكر رأوبين، الذي قال له: «رأوبين أنت بكري قوتي وأول قدرتي. فضل الرفعة وفضل العز، فائراً كالماء لا تتفضّل لأنك صعدت على مضجع أبيك. حينئذ دنسته. على فراشي صعد». ثم تكلم يعقوب عن كل واحد من بنيه.. «جميع هؤلاء هم أسباط إسرائيل الإثني عشر. وهذا ما كلمهم به أبوهم وباركهم. كل واحد بحسب بركته باركهم وأوصاهم. وقال لهم: أنا الغنم إلى قومي. ادفنوني عند آبائي في المغارة التي في حقل عفرون الحثي» ــ في حبرون = مدينة الخليل ــ. وهناك دفنوا يعقوب مع أبويه إسحاق وإبراهيم.

يهوذا يزني بكنته ثمارا زوجة ابنه عير:

(سفر التكوين، الإصحاح ٣٨: ٦ ــ ٢٧):

يهوذا هو أحد الأسباط وأشجع أبناء يعقوب. وقد جاء في سفر التكوين الإصحاح ٣٨ قصة زنى يهوذا بكنته ثامارا. وإليك نص ما ورد في التوراة المحرفة:

«وأخذ يهوذا زوجة لعير بكره. وكان عير شريراً في عيني الرب فأماته الرب. فقال يهوذا لأونان ــ إبنه الثاني ــ ادخل على امرأة أخيك وتزوج بها وأقم نسلاً لأخيك. فعلم أونان أن النسل لا يكون له. فكان إذا دخل على امرأة أخيه أنه أفسد على الأرض لكيلا يعطي نسلاً لأخيه. ــ ومعنى ذلك أن أونان كان يعزل، لأنه لو أنجب من ثامارا لدعي النسل لعير. وهو منطق غريب كل الغرابة وسخيف كل السخف ــ. فقبح في عيني الرب ما فعله أونان (لماذا ؟) فأماته أيضاً (غريب جداً هذا التصرف). فقال يهوذا لثامارا كنته اقعدي أرملة في بيت أبيك حتى يكبر شيلة ابني.. فمضت ثامارا وقعدت في بيت أبيها ــ وهكذا كانت المرأة تحبس على الصبي حتى يكبر فإن شاء

تزوجها، وإن شاء زوجها من أراد وأخذ مهرها ــ وهي نفس عادات العرب في الجاهلية التي أبطلها الإسلام ــ . ولما طال الزمان ماتت امرأة يهوذا، فصعد يهوذا إلى جُزاز غنمه إلى تمنة . . فأُخبرت ثامارا وقيل لها هوذا حموك صاعد إلى تمنة ليجز غنمه، فخلعت عنها ثياب ترملها، وتغطت ببرقع وتلففت وجلست في مدخل عينايم التي على طريق تمنة . لأنها رأت أن شيلة قد كبر وهي لم تعط له زوجة . فنظرها يهوذا وحسبها زانية، لأنها كانت قد غطت وجهها ــ عجيب!! الزواني فقط هُنَّ اللائي يغطين وجوههن ــ فمال إليها على الطريق، وقال هاتي أدخل عليك . لأنه لم يعلم أنها كنّته ــ يا للوقاحة المتناهية ــ فقالت: ماذا تعطيني لكي تدخل علي؟ فقال: إني أرسل جدي معزى من الغنم . فقالت: هل تعطيني رهناً حتى ترسله؟ فقال: ما الرهن الذي أعطيك؟ فقالت خاتمك وعصابتك وعصاك التي في يدك . فأعطاها ودخل عليها فحبلت منه . ثم قامت ومضت وخلعت عنها برقعها ولبست ثياب ترملها .

ولما كان نحو ثلاثة أشهر أُخبر يهوذا، وقيل له قد زنت ثامارا كنتك، وها هي حبلى من الزنى . فقال يهوذا: أخرجوها فتحرق ــ يا للهول ــ . أما هي فلما أخرجت أرسلت إلى حميها قائلة: من الرجل الذي هذه له أنا حبلى . وقالت: حقق لمن الخاتم والعصابة والعصا هذه . فتحققها يهوذا وقال: هي أبرُّ مني لأني لم أعطها لشيلة ابني» .

صورة بشعة ووقحة وقذرة، تجمع أخلاق يهود من التظاهر بالدين، حيث يطلب يهوذا المجرم الزاني أن تخرج ثامارا وتحرق لأنها زانية، فلما تحقق أنها حبلى نتيجة زناه هو بها، قال: هي أبرُّ مني . والأصح أن يقول: أنا أفجر منها وأفسق . فهو فاجر فاسق متظاهر بالدين حسب نصوص التوراة المحرفة .

وولدت ثامارا من زناها بيهوذا المجرم توأمين: أحدهما فارص، والآخر زارح . وتحدّر من فارص ولد الزنى داوود كما يزعمون . أما سليمان بن داوود فكان أيضاً حسب قولهم ابن زنى، عندما قام داوود ــ حسب زعمهم ــ بالاعتداء على حليلة جاره أوريا الحثي وقائد جيشه . وأنجبت من زناها بداوود حسب افترائهم سليمان .

* * *

يوسف (عليه السلام)

تذكر المصادر التاريخية أن دخول يوسف إلى مصر كان في القرن السابع عشر قبل الميلاد، في عهد الرعاة الهكسوس الذين احتلوا مصر سنة ١٧١٠ قبل الميلاد. والهكسوس من العرب القدماء. وقدم بنو إسرائيل إلى مصر حيث أكرمهم الهكسوس. وكان عددهم سبعين شخصاً عند دخولهم مصر، وعندما طُرد الهكسوس من مصر عام ١٥٨٠ ق. م اشتد الأذى على بني إسرائيل.

تعرض التوراة المحرفة قصة يوسف عليه السلام بصورة مغايرة في الهدف والغاية لما هو موجود في القرآن الكريم. وليس يوسف الذي تصوره التوراة المحرفة مشابهاً ليوسف الصديق، النبي الكريم، الذي يتحدث عنه القرآن المجيد. لا نجد تلك النصاعة والأمانة والبراءة والقوة في دين الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد، بل على العكس من ذلك نجد صورة مغايرة، فيها لمحات من قصة يوسف الحقيقية.

تبدأ القصة بأن يعقوب أحب يوسف حباً جماً أحفظ إخوة يوسف عليه. وجاء يوسف وقص على إخوته أنه رأى في المنام أنه حزم حزمة في الحقل فانتصبت حزمته، وجاءت حزم إخوته وسجدت له. ثم حلم مرة أخرى وقص ذلك على إخوته، وقال لهم: إن الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً رأيتهم لي ساجدين. فنهره أبوه وازداد إخوته غيظاً. (سفر التكوين ٣٧).

وذهب إخوة يوسف يرعون أغنامهم. فقال يعقوب: اذهب وارعى الغنم مع

إخوتك وأخبرني بسلامة إخوتك وسلامة الغنم ورد لي خبراً. فلما وصل يوسف إلى إخوته قالوا: «هوذا صاحب الأحلام قادم. فالآن هلم نقتله».. فسمع رأوبين وأنقذه من أيديهم وقال: لا تسفكوا دماً، اطرحوه في هذه البئر. وإذا بقافلة من الإسماعيليين قادمة، فقرر يهوذا الاستفادة من ذلك، واتفق مع إخوته على بيع يوسف لهم. وعندما ذهب إلى البئر لم يجد يوسف لأن جماعة من أهل مديان سبقوهم إليه وباعوه لقافلة الإسماعيليين.

أخذ الإخوة قميص يوسف وغمسوه في دم تيس من المعزى، وقالوا لأبيهم: وحشٌ رديء أكل يوسف. **فمزَّق يعقوب ثيابه، ووضع مسحاً على حقويه، وناح على ابنه أياماً كثيرةً. فقام جميع بنيه وبناته ليعزوه، فأبى أن يتعزى، وقال: إني أنزل إلى الهاوية نائحاً على ابني»**[1]. وأما يوسف فاشتراه فوطيفار رئيس شرط فرعون. وأحبه سيده وجعل ثقته الكاملة فيه. وكان فوطيفار مخصيّاً، ورغم ذلك كانت له زوجة. وأعجبت السيدة بجمال يوسف، وقال له اضطجع معي! فرفض. فأمسكت بثوبه، فترك ثوبه في يدها وهرب خارجاً. فغضبت وصرخت وكلمت أهل بيتها قائلة: إن يوسف جاء ليضطجع معها، فلما صرخت هرب منها وترك ثوبه إلى جانبها. وأخبرت زوجها بذلك. فغضب زوجها، ووضع يوسف في السجن.

وحدث أن ساقي ملك مصر وخبازه أذنبا إلى سيدهما ملك مصر، فغضب عليهما وأدخلهما السجن مع يوسف. وحلم كل واحد منهما حلماً. قال رئيس السقاة: رأيت كرمة، وفي الكرمة ثلاثة قضبان أفرخت وأنضجت عناقيدها عنباً. وكانت كأس فرعون في يدي، فأخذت العنب وعصرته في الكأس وقدمته لفرعون. فقال يوسف: الثلاثة قضبان هي ثلاثة أيام، في ثلاثة أيام يرفع فرعون رأسك ويردك إلى مقامك، وتعود ساقياً لفرعون كما كنت. اذكرني عند سيدك فرعون، لأني لم أفعل شيئاً حتى وضعوني في السجن.

وقال رئيس الخبّازين: إني رأيت ثلاث سلالٍ حوارى على رأسي، والطيور تأكل

---

(١) هذه صورة زرية لشخص لا إيمان له. ومستحيل أن يكون ذلك قد صدر من يعقوب عليه السلام.

من السلة التي على رأسي. فقال يوسف: في ثلاثة أيام أيضاً يرفع فرعون رأسك عنك، ويعلقك على خشبة وتأكل الطيور لحمك عنك.

وبالفعل حدث الأمر تماماً كما أخبر به يوسف. لكن رئيس السقاة لم يذكر يوسف لفرعون. وبعد مرور سنتين حلم فرعون حلماً، وإذا هو واقف عند النهر، وإذا سبع بقرات سمان يأكلهن سبعٌ عجاف. وحلم ثانية فإذا سبعُ سنابل سمينة وحسنة يأكلهن سبع سنبلات يابسات. ولم يجد فرعون من يعبّر له الرؤيا. وها هنا تذكر رئيس السقاة يوسف. وأخبر فرعون بقصته. فدعا فرعون بيوسف وقص عليه حلمه. فقال يوسف: قد أخبر الله فرعون ما هو صانع. البقرات السبع الحسنة هي سبع سنين، والسنابل السبع الحسنة هي سبع سنين، هو حلم واحد. والبقرات السبع الرقيقة القبيحة والسنابل السبع الفارغة، تكون سبع سنين جوعاً. قد أظهر الله لفرعون ما هو صانع. هوذا سبع سنين قادمة شبعاً عظيماً في كل أرض مصر، ثم تقوم بعدها سبع سنين جوعاً. فينسى كل الشبع في أرض مصر ويتلف الجوع الأرض. واقترح يوسف على فرعون أن يأخذ خمس غلة الأرض في سبع سني الشبع، ويخزنها لأعوام الجوع. فأعجب فرعون بذلك، وجعل يوسف على خزائن مصر، وجعل له حكم أرض مصر نيابة عنه. وخزن يوسف قمحاً كرمل البحر!! وجاءت أيام الجوع.

«ولم يكن خبز في كل الأرض. لأن الجوع كان شديداً جداً. فخورت أرض مصر وأرض كنعان من أجل الجوع. فجمع يوسف كل الفضة الموجودة في أرض مصر وفي أرض كنعان، بالقمح الذي اشتروا. فلما فرغت الفضة من أرض مصر ومن أرض كنعان، أتى جميع المصريين إلى يوسف قائلين: أعطنا خبزاً، فلماذا نموت قدامك؟ فقال يوسف: هاتوا مواشيكم فأعطيكم بمواشيكم. فجاءوا بمواشيهم إلى يوسف. فأعطاهم يوسف خبزاً بالخيل والغنم والبقر والحمير. فقاتهم في تلك السنة بدل جميع مواشيهم.

ولما تمت السنة الثانية جاؤوا ليوسف ليأخذوا منه قمحاً فرفض أن يعطيهم قمحاً حتى باعوا أراضيهم وأنفسهم، قالوا له: اشترنا وأرضنا بالخبز، فنصير نحن وأرضنا عبيداً لفرعون. وأعط بذراً لنحيا ولا نموت، ولا تصير أرضنا قفراً. فاشترى يوسف كل

أرض مصر لفرعون. فصارت الأرض لفرعون. وأما الشعب فنقلهم إلى المدن وجعلهم عبيداً لفرعون. وقال يوسف: إني قد اشتريتكم اليوم لفرعون. هوذا لكم بذار فتزرعون الأرض». (سفر التكوين، الإصحاح ٤٧).

وهكذا تحول يوسف إلى مصاص دماء لشعب مصر. . أعطاهم من القمح الذي أخذه من أرضهم أيام الرخاء، وأخذ منهم كل الفضة، ثم أخذ منهم جميع المواشي والخيول والأبقار والحمير، ثم أخذ منهم أرضهم وجعلهم عبيداً لفرعون.

إنها صورة للاستغلال البشع الذي يمارسه اليهود ضد شعوب الأرض. زعموا كذباً وبهتاناً أن يوسف عليه السلام مارسه ضد شعب مصر وضد الشعوب الأخرى.

وتعرض التوراة المحرفة يوسف وهو يسجد لفرعون. ويوسف وهو يقسم بحياة فرعون فهو يقول لإخوته: «وحياة فرعون لا تخرجون من هنا إلا بمجيء أخيكم الصغير. . وإلا فحياة فرعون إنكم لجواسيس». (سفر التكوين ٤٢: ١٥ ــ ١٧).

ورغم هذا نجد بعض التشابه فيما ورد في قصة يوسف في التوراة وفي القرآن الكريم. ولكن يبقى بعد ذلك الاختلاف كاملاً في التصور والمنهج والتفاصيل. فيوسف في التوراة يبدو في نهاية المطاف في صورة يهودي يمتص دماء البشر ويأخذ منهم كل ما يملكون من مال وماشية ودواب وأثاث، ثم يأخذ أرضهم ويجعلهم عبيداً، في مقابل حفنة من القمح. إنها صورة منفرة، حاشا لله أن تكون ليوسف بن يعقوب النبي الكريم ابن النبي الكريم.

موقف بعض الكتاب من الأنبياء عليهم السلام:

يوجد بعض الكتاب من العرب الذين يزعمون أنهم يفضحون اليهود فيقومون في أثناء ذلك بشتم أنبياء الله ومنهم يوسف عليه السلام، على اعتبار أنه باع الأرض والشعب لفرعون، بعد أن أخذ أموالهم ومواشيهم وكل ممتلكاتهم. كما نجدهم يقفون في صف فرعون عليه لعائن الله ضد موسى وقومه، ومع العماليق ضد يوشع بن نون، ومن معه، ثم يقفون مع هؤلاء العماليق ضد طالوت ــ شاول ــ وداود عليه السلام.

وهو موقف أعمى أملته العصبية القومية ضد اليهود، بحيث لم يميزوا بين هؤلاء

اليهود الخبثاء الذين لعنهم الله ولعنهم الأنبياء، وبين الأنبياء المطهرين ومن تبعهم من المؤمنين، وهم نفر قليل من خلاصة بني إسرائيل. فالقوم الذين ذهبوا مع طالوت ولم يشربوا من النهر كانوا فئة قليلة، ولكنها فئة مؤمنة مدحها الله سبحانه وتعالى ونصرها على جالوت الطاغية وقومه.

وأي موقف ضد هذه الفئة المؤمنة يقفه أي إنسان مهما كان اسمه، وفي صف جالوت، يجعله يخرج مباشرة من صف المؤمنين إلى صف الكافرين. كذلك فإن أي مساس بأي نبي من أنبياء بني إسرائيل الذين ذكرهم الله جل وعلا في كتابه العزيز ومدحهم يعتبر قدحاً في العقيدة وخروجاً من الملة.

شتم الأنبياء كفر صريح :

ونحن لا نقبل بأي حال من الأحوال وتحت أي مسمى من المسميات من أي شخص كان أن يكفر بآيات الله ويستهزىء بها، ولا نقبل بأي حال من الأحوال أن يذكر أي نبي من أنبياء الله عليهم صلاة الله وسلامه جميعاً بسوء. ونعتبر من ذكرهم بسوء قريناً لهؤلاء اليهود الكفرة الذين افتروا على الله الكذب، ووسموا أنبياء الله بكل نقيصة وألصقوا بهم كل رزية، واتهموهم بمقارفة الفاحشة والكذب والسرقة والغش والخداع والظلم والقتل وسفك الدماء وقتل الأبرياء. بل وصلت الوقاحة (القمة) بأحبار اليهود محرفي التوراة أن زعموا أن هؤلاء الأنبياء كانوا ممن يفعلون الفاحشة بمحارمهم. ويدّعون أن إبراهيم عليه السلام تزوج أخته سارة، وأن لوطاً نكح ابنتيه، وأن رأوبين بن يعقوب اعتدى على امرأة أبيه بلهة، وأن يهوذا زنى بزوجة ابنه ثامار، وابن أمنون بن داود زنى بأخته بنصيحة الحكيم يوناداب. وأن يوشلام بن داوود زنى بعشر من نساء أبيه، وأن يوشع بن نون تزوج راحاب الزانية التي ولدت بنات كنَّ أمهات لثمانية من أنبياء بني إسرائيل، وأن داوود هو من نسل فارص الذي نتج من زنى يهوذا بن يعقوب بثامار كنته. وأن داوود نفسه زنى بحليلة جاره وقائد جنده أوريا الحثي، ثم دبر مكيدة لاغتياله، وأنه أنجب من هذا الزنى سليمان. وأن سليمان تزوج ألف امرأة وسرية في وقت واحد، وأنه عبد الأصنام والأوثان واستخدم السحر.

إنكار وجود إبراهيم وبنيه :

ربما كان لبعض الباحثين من غير المسلمين العذر في اتهام العهد القديم بأنه كتاب يأتي بقصص أشخاص لا وجود لهم. وينكر بعض الباحثين وجود إبراهيم عليه السلام نفسه . وقد تأثر بهذا الرأي للأسف الشديد طه حسين في كتابه « في الأدب الجاهلي » . وقد أدى ذلك إلى تكفير طه حسين وإلى حرق كتابه ذاك . وأعلن طه حسين رجوعه ، وأزال الفقرة التي نفى فيها وجود إبراهيم عليه السلام من طبعات الكتاب اللاحقة. وقد وجدنا رجاء جارودي يميل إلى هذا الرأي أيضاً في كتابه «إسرائيل الصهيونية السياسية» وناقشته في هذه النقطة عندما قابلته في مؤتمر في المغرب، فقال: إنه لا يوجد دليل تاريخي على أن إبراهيم وإسحاق ويعقوب كانوا موجودين فعلاً، وأنهم عبروا إلى فلسطين ومنها إلى مصر، بل إن العبرانيين مجموعة من القبائل المختلفة الذين عبروا النهر، ولهذا سموا العبرانيين.

ولما قلت له نحن المسلمين لا نحتاج إلى أي دليل آخر إذا ورد ذلك في القرآن الكريم. فقال أنا أؤمن بالقرآن، ولكني كنت أتحدث فقط عن الدليل التاريخي.

وسنذكر مزاعم فرويد حول موسى عليه السلام في حينها (ص ١٨٤ وما بعدها).

يعقوب يصف أبناءه الاثني عشر :

تزعم التوراة (سفر التكوين الإصحاح ٤٩) أن إسرائيل (يعقوب) دعا بنيه وقال لهم: «اجتمعوا لأنبئكم بما يصيبكم في آخر الأيام. اجتمعوا واصغوا إلى إسرائيل أبيكم. رأوبين أنت بكري قوتي وأول قدرتي، فضل الرفعة، فضل العزّ. فائراً كالماء، لا تتفضّل لأنك صعدت على مضجع أبيك، حينئذ دنّسته، على فراشي صعد. شمعون ولاوي أخوان. آلات ظلم سيوفهما. في مجلسهما لا تدخل نفسي، بمجمعهما لا تتحد كرامتي، لأنهما في غضبهما قتلا إنساناً وفي رضاهما عرقبا ثوراً. ملعون غضبهما فإنه شديد وسخطهما فإنه قاس. أقسّمُهُما في يعقوب وأفرقهما في إسرائيل. يهوذا إياك يحمد إخوتك ــ زنى بزوجة ابنه ــ يدك على قنا أعدائك، يسجد لك بنو أبيك. يهوذا جرو أسد. من فريسة صعدت يا ابني. جثا وربض كأسدٍ وكلبوة،

من ينهضه؟! لا يزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجليه حتى يأتي شيلون وله يكون خضوع شعوب، ــ المقصود المسيح الدجال ــ رابطاً بالكرمة جحشه، وبالجفنة ابن أتانه، غسل بالخمر لباسه وبدم العنب ثوبه. مسود العينين من الخمر ومبيضُّ الأسنان من اللبن ــ دائماً يأتي ذكر الخمر وشربها في معرض المدح ــ. **زبولون** عند ساحل البحر يسكن وهو عند ساحل السفن وجانبه عند صيدون. **يساكر** حمار جسيم رابض بين الحظائر، فرأى المحل أنه حسن والأرض أنها نزهة. فأحنى كتفه للحمل وصار للجزية عبداً. **دان** يدين شعبه كأحد أسباط إسرائيل. يكون دان حية على الطريق، أفعواناً على السبيل يلسع عقبى فرس فيسقط راكبه إلى الوراء، لخلاصك انتظرت يا رب.

«**جاد** يزحمه جيش ولكنه يزحم مؤخرَه. **أشير** خبزه سمين وهو يعطى لذَّات ملوك. **نفتالي** أيّلةٌ مسيَّبة يُعطي أقوالاً حسنة. **يوسف** غصن شجرة مثمرة على عين. أغصان قد ارتفعت فوق حائط، فمرّرته ورمته واضطهدته أرباب السهام. ولكن ثبتت بمتانة قوسه، وتشددت سواعد يديه من يدي عزيز يعقوب من هناك، من الراعي صخر إسرائيل. من إلّه أبيك الذي يعينك ومن القادر على كل شيء الذي يباركك... بركات أبيك فاقت على بركات أبوي.. **بنيامين** ذئب يفترس في الصباح يأكل غَنيمة وعند المساء يُقسّم نهباً.

«جميع هؤلاء هم أسباط إسرائيل الاثني عشر. وهذا ما كلمهم به أبوهم وباركهم. كل واحد بحسب بركته باركهم». «ثم مات يعقوب وأسلم الروح وانضم إلى قومه».

ما عدا يوسف عليه السلام نرى البركات التي حلت بالأحد عشر الآخرين عدوان وظلم وجرائم وجبن وخسة، وحية على الطريق وأُفعوان على السبيل.. ويا لها من بركات يعاني العالم من ويلاتها إلى اليوم!!!

يعقوب وبنوه في القرآن الكريم:

ترد قصة يعقوب عليه السلام ومعاناته ضمن قصة يوسف التي ترد كاملة في سورة واحدة هي سورة يوسف. وهي القصة الوحيدة التي ترد كاملة في سورة واحدة في

القرآن الكريم. أما بقية القصص فترد مفرقة في عدة سور.

ويرد ذكر يعقوب عليه السلام في لحظة الاحتضار في سورة البقرة، وهو يوصي بنيه بأن لا يعبدوا إلا الله، فيوجه إليهم يعقوب عليه السلام السؤال:

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾. (البقرة: ١٣٣).

فهذا الشيء الذي يشغل بال يعقوب في لحظة الاحتضار، والذي يريد أن يطمئن عليه ليموت قرير العين، هو أن لا يعبد أحد من أبنائه شيئاً سوى الله وحده لا شريك له، وأن يعيشوا ويموتوا على ملة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً، وأن يكونوا مسلمين مستسلمين لله منقادين لأوامره.

وتُفتتح سورة يوسف بقوله تعالى:

﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾. (يوسف ٢ ــ ٣).

لن نخوض ها هنا في معاني الحروف المقطعة فموضعها كتب التفسير وما ورد فيها... وهي على الجملة من الأمور التي لم يرد في تفسيرها نص، لا في القرآن ولا في السنة. ولهذا كثرت الأقاويل فيها. والقول المأمون فيها: الله أعلم بمراده.

ويذكر المولى تعالى أنه أنزل القرآن العظيم بلسان عربي مبين رحمة منه وفضلاً لهذه الأمة التي اختارها لتحمل الرسالة الخاتمة.

وتبدأ الإشارة إلى قصة يوسف عليه السلام بقوله تعالى:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾. (يوسف: ٣).

ولا شك أن أحسن القصص وأصدقه وأروعه هو ما ورد في القرآن الكريم. ومن

أحسن هذا القصص قصة يوسف عليه السلام لما اشتملت عليه من العبر وما ظهر فيها من الابتلاء وما يعقب ذلك الصبر من الفرج.

والقصة عبارة عن مشاهد فنية رائعة، بها فجوات تترك ليملأها الخيال متماشياً مع السياق. وهي ذات حبكة درامية وفنية لا ترقى إليها أي قصة من القصص البشري. يبدأ المشهد الأول بمشهد الصبي يوسف وهو يقص على أبيه حلماً رآه:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ۝٤﴾. (يوسف: ٤).

إنه حلم عجيب لا يستطيع الخيال أن يتابعه أو يتملاه: الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً من الكواكب السيارة تسجد للصبي يوسف... يا ترى كيف تسجد هذه الشموس والأقمار والكواكب؟! نترك ذلك للخيال يحاول أن ينطلق ليرى كيف تسجد هذه الكواكب والشموس.

ويأتي رد يعقوب عليه السلام ﴿قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين﴾. ملفتاً للنظر ومشيراً إلى أن هناك مشكلة بين يوسف وإخوته. يوسف الصغير المحبب لدى أبيه، وإخوته الكبار العشرة الذين يغارون غيرة شديدة من حب أبيهم ليوسف، رغم أن يعقوب عليه السلام لم يحاب يوسف في شيء، ولم يعطه أكثر مما أعطى إخوته الآخرين، وحاشاه أن يفعل ذلك. فقد عدل فيما يملك. أما قلبه الذي لا يملكه فهو بيد الله يصرّفه حيث يشاء، ويوجه حبه لمن يريد. وكانت صفات يوسف جديرة بهذا الحب الغامر فهو على دماثة خلق ونجابة وجمال... ومخايل نبوة تبدو على ملامحه الصديقية يراها أبوه بفراسته ونبوءته. تحدث يعقوب إلى ابنه الصغير يوسف مشفقاً عليه مما يمكن أن يفعله إخوته الكبار به إذا علموا بهذا الحلم الذي يشي برفعة يوسف حتى تسجد له الشمس والقمر والكواكب، أو حسبما أدرك يعقوب من تأويلها أنه وزوجته وأولاده الأحد عشر سيسجدون ليوسف إعظاماً له وإكراماً. قال يعقوب متمماً كلامه:

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ

﴿ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾

(يوسف: ٦).

قال بعض المفسرين[1]: إن هذا القول الأخير لم يكن من كلام يعقوب بل هو من كلام المولى عز وجل في معرض الامتنان على يوسف عليه السلام.

ولا شك أن يوسف لم يخبر إخوته بما رأى، على عكس ما ورد في التوراة من أنه أخبر إخوته بهذا الحلم وحلم قبله. ولعل أحداً في الدار كان يسمع يوسف وهو يقصُّ على أبيه ما رآه فبلَّغ إخوة يوسف بذلك. وحكى لهم ما سمع، فازدادوا غيظاً على غيظٍ، وحنقاً على حنق، فدبروا مكيدة للتخلص من يوسف.

قال تعالى:

﴿ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ۗ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾. (يوسف: ٧-١٠).

اجتمع الإخوة وبدا الشر في أعينهم ونطق الشيطان على ألسنتهم: ﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً ــ ارموه في أرض بعيدة ــ يخل لكم وجه أبيكم، ويتمحَّض لكم حبه، ثم تكونوا بعد ذلك قوماً صالحين!! استيقظ ضمير أحدهم ورأى بشاعة جريمة القتل ــ يقال: إنه رأوبين ــ، قال: لا تقتلوا يوسف... إنها جريمة نكراء شنعاء. يكفيكم أن تضعوه في أحد الآبار على الطريق التي تتردد عليها القوافل، فإذا مروا بها يستقون وجدوا يوسف وأخذوه معهم عبداً. هذا هو أقصى ما يمكن أن تفعلوه بيوسف إن كنتم لا زلتم مصرّين على إبعاده عن وجه أبيكم.

كلام يبدو منه كره وبغض للجريمة الشنعاء، جريمة القتل التي فكروا فيها.

---

(١) هذا ما ذهب إليه الإمام القرطبي في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن».

وعـدم رغبة حقيقـة في إبعاد يـوسف بأي طـريقة من الـطرق. إلا أن وضعـه في الجب أخف وطأة من جريمة القتل النكراء التي فكروا فيها.

وأمـام إصرار رأوبين قـرروا تنفيذ الجـريمة الأخف. ذهبـوا إلى أبيهم متظاهـرين بحب يوسف ﴿قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون. أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون. قال: إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون. قالوا: لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون﴾.

ذهبوا إلى يعقوب قـائلين: لماذا يبقى يـوسف حبيس الجدران في البيت؟! فـإن ذلك يؤذيه ويجعل جسمه نحيلاً ووجهه مصفراً. لماذا لا تـرسله معنا يرتـع ويلعب كمـا يلعب الصبيان، فينطلق في مرحه ولعبه، وتتحسن صحته ونفسيته؟!! أعلن لهم يعقوب أن ذهـاب يوسف من مجلسـه يحـزنـه. ازدادوا غيـظاً بهـذا الجـواب وكتمـوا الـردَّ في أنفسهم... عما قريب لن يكون في مجلسك أبـداً وستنساه تمـاماً... وأعلن يعقـوب أنه يخاف أن يأكله الذئب وهم عنه غافلون بالرعي أو اللعب. مشيـراً إلى ما يعتمـل في نفوسهم من حقد على يوسف وعدم رعاية له. أنكروا ذلك إنكاراً شديداً وقـالوا: ﴿لئن أكله الذئب ونحن عصبة ــ عشـرة رجال أقـوياء أشـداء ــ إنا إذاً لخاسرون﴾. وافقهم يعقوب على مضض.. وانطلق يوسف مع إخوته.

﴿فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب، وأوحينا إليه لتنبئنَّهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾. أخذوا يوسف وأسرعوا ينفـذون خطتهم الـدنيئة. أخـذوه ورموه في الجب، بعد أن ضربوه وخلعوا قميصـه عنه، وهـو يسترحمهم، وهم يضحكـون.. أدركته عناية الله وامتلأ قلب الصبي ثباتاً وأمناً تماماً كما فعل إبراهيم عليه السلام حينما ألقي في النار. وقيل: إن القميص الـذي كان على إبـراهيم في لحظة الإلقـاء في النار جاء به جبريل وألبسه يوسف وإخوته يطرحونه في غيابة الجب. بشره أيضاً جبريـل بأنـه سينبئهم بأمرهم هذا يوماً ما وهم لا يشعرون به ولا يعرفونه.

انتهت مهمة الإخوة بنجاح.. نظر بعضهم إلى بعض.. أحسَّ رأوبين الأخ الأكبر الذي اعترض على قتل يوسف بشيء من وخز الضمير.. مـاذا نقول لأبينـا عند عـودتنا إليه؟؟ استخدموا نفس الحجة التي لقنّكم إياها أبـوكم.. قولـوا له: أكله الـذئب. لقد

ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فجاء الذئب وأكله. ذبحوا سخلة[1] ولطخوا قميصه بدمها. نسوا مع الارتباك أن يمزقوا القميص. ذهبوا إلى أبيهم عشاءً يبكون ويصرخون. فزع يعقوب وأحسَّ أن قلبه يكاد ينخلع. يوسف ليس معهم، فراسته صدقت، ما بالكم يا بَنِيَّ؟ ﴿قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب، وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين﴾ عرفوا الشك في عين يعقوب. تحول الشك إلى يقين عندما قدموا له الدليل. قميص يوسف ملطخ بالدم، ولكن القميص سليم!!. قال يعقوب في نفسه: واعجباً لذئب يأكل يوسف دون أن يمزق قميصه!! تماسك يعقوب بالصبر الجميل واستعان بالله على مصيبته في يوسف ومصيبته في أبنائه.

قال تعالى:

﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ١٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨ ﴾.

وها هنا عدة اختلافات عما هو موجود في التوراة.. ففي التوراة أن يوسف قص على إخوته أحلامه، وفيها أن يعقوب هو الذي أرسل يوسف في إثرهم ليعرف أخبارهم ويأتيه بها، وأنهم لم يطلبوا من يعقوب أن يذهبوا بيوسف. وفيها أن يعقوب عندما سمع ما أخبروه به من أن وحشاً رديئاً افترس يوسف بكى عليه وناح ورفض أن يقبل العزاء، ومزق ثيابه وقال: «إلى الهاوية سأذهب حزناً على يوسف». وهذا أمر منافٍ لمقام النبوة، وحاشا ليعقوب أن يفعله بل كان من أمره ما قصه علينا القرآن الكريم. قال: ﴿بل سولت لكم أنفسكم أمراً. فصبرٌ جميل والله المستعان على ما تصفون﴾. كان يعقوب متأكداً في أعماقه أن يوسف لم يمت. قلبه يحدثه أنه لا يزال حياً، وقلبه قلب نبي لا يكذب أبداً. صحيح أن حزنه على فراق يوسف شديد، ولكنه كان يتصبر

(١) السخلة: الذكر والأنثى من ولد الضأن والمعز حين يولد وما دام رضيعاً.

ولا يبدي جزعه أبداً، في شموخ وعزة وقف يعقوب يكفكف عبراته ويطوي حزنه في أعماق نفسه. فلما اشتد عليه الحزن بثه إلى مولاه وخالقه... إنه ابتلاء من الله. عندما رُزق إبراهيم عليه السلام بإسماعيل في سن الشيخوخة أمره الله بذبحه. وانصاع إبراهيم للأمر العسير وهمّ بذبح ابنه. ذبح حبه من قلبه حتى أصبح القلب مجرداً لحب الله وخلته. الشيء ذاته يتكرر بالنسبة ليعقوب بصورة أخف. يعقوب لا يستطيع أن يذبح يوسف بيده. إيمانه عظيم لكنه لم يبلغ تلك الذروة التي بلغها إيمان إبراهيم. يأتيه الابتلاء في صورة أخرى. أبناؤه يذهبون بيوسف ويخفونه بطريقة ما. يشتعل الحزن في قلب يعقوب، يزداد التجاؤه إلى الله، يزداد حباً لله وتعلقاً به، يرتفع مقامه بهذا الابتلاء.

يوسف عليه السلام أيضاً يواجه الابتلاء صابراً محتسباً. صبي صغير يُرمى في غيابة الجب وظلماته دون ذنب أو جريرة. بقي يوسف منتظراً الفرج من الله وهو جالس فوق صخرة من الجب. جاءت قافلة وإخوة يوسف يلمحونهم من بعيد. أدلوا دلوهم ليستقوا. تعلق يوسف بالدلو. قال الذي أخرج يوسف: يا بشري هذا غلام.. أي يا بشراي ــ وهي قراءة صحيحة ــ. لأن من وجد شيئاً اعتُبر له. لما رأى إخوة يوسف ذلك أسرعوا إلى القافلة وقالوا لهم: هذا عبدنا وغلامنا هرب منا واختبأ في البئر. وقد سئمنا من هروبه فاشتروه منا. أحسَّ أصحاب القافلة أن هؤلاء الرجال زاهدين في الغلام فاشتروه بثمن بخس دراهم معدودة.

قال تعالى:

﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

أخذت القافلة الغلام معها وتوجهوا إلى مصر ببضاعتهم. وهناك باعوا بضاعتهم وباعوا الغلام لعزيز مصر الذي ألقى الله في قلبه حب الغلام. اشتراه بثمن كبير.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ ﴾.

كان الرجل عقيماً، وقيل إنه كان عنيناً أيضاً. وورد في التوراة أنه كان مخصياً وهو أمر مستبعد إذ إن المخصي لا يتزوج.

يقرر المولى سبحانه وتعالى أن هذه المهانة الظاهرة ليوسف تخفي في طياتها الخير والبركة ليوسف عليه السلام ولأهل مصر ولأهل فلسطين ولجميع البلاد من حول مصر. سيمكن الله ليوسف في أرض مصر وسينقذ الله به شعوباً كثيرة من المجاعة. وتظهر في ذلك أعاجيب القدرة حيث يختفي وراء الابتلاء والمهانة الظاهرة عزو رفعة، وتحقيق خير ليوسف وأبويه وأهله وذويه ولشعوب الأرض في مصر والمناطق المحيطة بها.

قال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

ولكن قبل أن يصل يوسف إلى التمكين في الأرض لا بد من الابتلاء مرة أخرى. ها هو يوسف الغلام يشب في قصر العزيز. . وها هي امرأة العزيز تهيم حباً بهذا الفتى الجميل، الممشوق القد، البهي الطلعة، الجميل الوجه، الصادق في كلامه، المهذب في أخلاقه، الحلو الحديث، اللطيف المعشر، ها هو الفتى العبراني يكتسب ثقة سيده بحكمته وصدقه وحسن تصرفه، فيطلق سيده يده في قصره وفي شؤونه الخاصة. .

وتتعرض المرأة ليوسف يوماً بعد يوم بالإغراء، وبالتلميح، وبالإشارة، ويوسف يتجاهل تلميحاتها، ويعرض عن إغرائها، إعراضاً كريماً دون أن يجرحها. . وازداد الهيام بالمرأة ووجدت أن التلميح لا يغني عن التصريح. راودته مباشرة إيه يا يوسف لو تعلم لواعج قلبي وهيام كبدي!! أمسكت بيديه، وغلقت الأبواب كلها، وقالت هيت لك وهُيئت لك، تهيب به أن يقرب إليها. احمرت وجنتا يوسف خجلاً وغضباً. قال: معاذ الله، إنه ربي أحسن مثواي. . الله أحسن مثواي. . وربي سيدي زوجك أيتها المرأة الشقية أحسن مثواي وأكرمني وائتمنني على دخائله وخصائصه وقصره ولست بالذي أخونه.

﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾.

جاءت المرأة صاحبة السلطان وصاحبة الجمال وصاحبة المال وعرضت نفسها على يوسف مرة بعد مرة بصور من التلويح والإغراء، ولكن ذلك كله لم يفلح مع يوسف. جعلت كرامتها تحت قدميها، ووضعت ذلك كله على قدمي يوسف. الحب ليس له حدود عند هذه المرأة. هذا الفتى العبراني ملك شغاف قلبها. وكامرأة ذات تجارب، وذات سلطان، وذات جمال ومال، أقفلت الأبواب، وأحكمت الرتاج، بعد أن استدعت يوسف إلى مخدعها، وقالت له هيت لك، وفي قراءة هيأت لك.. دعوة صريحة قوية.

ارتفع يوسف عن ذلك كله وقال:

﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

همت به بالمعصية، واختلف المفسرون في همه عليه السلام بها. قال بعضهم: همَّ بها ليضربها. وقال بعضهم: بل هناك تقديم وتأخير في الآية: أي همت به ولولا

أن رأى برهان ربه لهمَّ بها. وهو أقربها إلى الصحة. لذا فهو لم يهمّ بها أصلاً.

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

فرَّ يوسف يجري نحو الباب وجرت المرأة وراءه ممسكة بثوبه حتى تمزق ثوبه في يدها.. فتح يوسف الباب وإذا بالعزيز نفسه أمامه، وامرأة العزيز تلهث وراء يوسف وعطرها وثيابها تومىء بالتهمة لها. ولكنها امرأة متمرسة تمالكت أعصابها وقالت لزوجها:

﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

حددت التهمة وحددت نوعية العذاب الذي ينبغي أن يقع على يوسف. لقد جرحت كرامتها ومع هذا لا تزال تحب هذا الفتى العبراني لا تريد أن يقتل مثلاً.

اضطر يوسف للدفاع عن نفسه ﴿قال: هي راودتني عن نفسي﴾. ﴿وشهد شاهد من أهلها﴾ قيل كان طفلاً صغيراً في المهد أنطقه الله لتبرئة يوسف عليه السلام. وقيل بل كان من المقربين إلى العزيز من ذوي الحكمة وأصالة الرأي. قال الشاهد: ﴿إن كان قميصه قُدَّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قُدَّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين﴾.. يا له من حكيم ذو فراسة ودراية. إن كان القميص قد مزّق وقطّع من الخلف فلا شك أنه كان هارباً وكانت المرأة تريد اللحاق به. وإن كان القميص قد مُزّق من الأمام فلا شك أن المرأة كانت تدافع عن نفسها والرجل مقبل عليها. وقدم تهمته على تهمتها لمكانتها.. ﴿فلما رأى قميصه قُدَّ من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم﴾.

وقد يستغرب المرء هذا الموقف الفاتر من عزيز مصر وهو يرى زوجته تريد أن تخونه وتتهم هذا الفتى الغريب بعد أن فشلت خطتها في إيقاعه في حبائلها. كان المرء يتوقع أن يصفعها على وجهها مثلاً.. ولكنه موقف رجال القصر وعلية القوم والطبقة الأرستقراطية التي لا تنفعل لهذه الأمور مثلما ينفعل لها عامة الناس. إنه رجل هادىء جداً. من رجال الطبقة الممتازة في المجتمع، الطبقة التي تكثر فيها الخيانات الجنسية، دون أن تثور نخوتهم وتغلي دماؤهم.. قال لها: ﴿إنه من كيدكن إن كيدكن

عـظيم﴾. كلمة أشبـه بالمـدح في هذا المقـام منها بـالذم. ومـا نظن أن امـرأة العزيـز استاءت من تلك الكلمة، بـل لعلها سُـرَّت بها. رأى العـزيز ذلـك فالتفت إلى يـوسف قائلاً: ﴿يوسف أعرض هذا﴾ أهمل هـذا الموضـوع ولا تعره اهتمـاماً ولا تتحـدث به. المهم عنده أنه لا تزكم الأنوف رائحة الفضيحة. فالطبقات الأرستقراطيـة في كل مكـان وفي كل زمان مولعة بالفضائح تلوكها ألسنتها، وتبدي فيها وتعيد. ثم التفت مـرة أخرى إلى زوجته ﴿واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين﴾.

وهذه الكلمة تـوضح أن حكـام مصر في تلك الآونـة مع تـرفهم كانـوا على صلة بالله. ربما مع الشرك.. ولكنهم مـع ذلك مقـرون بالله، وأنـه لا بد من الاستغفـار من الذنب الذي يلمُّ به الإنسان. ولعل كون العـزيز عنينـاً كما تـزعم بعض الروايـات أحد الأسباب التي جعلت العزيز فاتراً في تقريعه لزوجته على فعلتها الشنيعة تلك.

أراد العزيز أن يسدل الستار على هذه الحادثـة. ولكن الجدران لهـا آذان وربات القصـور فارغـات لاهيات، انتقلت الـرواية من فم إلى آخـر. أصبحت حديث الـطبقـة المرهفة. نساء المدينة ذوات العز والجاه أبدين اهتماماً غـريزيـاً بهذه القصـة.. أصبح هذا الحدث موضوع المنتديات وخاصة منتديات النسـاء ﴿وقال نسـوة في المدينـة امرأة العزيز تراود فتاهـا عن نفسه، قـد شغفها حبـاً، إنّا لنراها في ضـلال مبين﴾. أصبحت امرأة العزيز حديث المجالس. وسمعت امرأة العزيز بمـا تقولـه هؤلاء النسوة، وقـررت في نفسها أمراً. أقامت وليمة لكل نساء الصفـوة في المجتمع، النسـاء اللاتي لا يمللن من الثرثرة والكلام بسبب الفراغ والثروة والجاه والمال. دعتهن جميعاً لهذه الوليمة، ثم أعطت كل واحدة منهن سكيناً ليقشرن التفاح، فلما تم لها ذلك أمرت يوسف بالـدخول عليهن. وها هنا تحدث المفاجأة.. ذهلت النسوة عن التفـاح وقطعن أيـديهن وصرخن ما هذا بشراً إن هذا إلا مَلَك كريم.

قال تعالى يصف هذا المشهد:

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا

مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

صورة عجيبة فريدة لمجتمع مترف أرستقراطي تبلغ فيه سيطرة المرأة هذه الوقاحة المتناهية. استطاعت امرأة العزيز أن تفاجىء مجتمع النسوة بيوسف. اشتعلت في قلوبهن الغيرة. عرفن أن امرأة العزيز لم تكن تراود فتى عادياً. إنه فتى أوتي شطر الحسن كله... مع عزة وإباء، وشموخ نفس وطهارة ذيل، تزيده جمالاً على جمال، وجاذبية على جاذبية. بدأ مجتمع النسوة من الطبقة الأرستقراطية بكامله يغازلن يوسف. كل واحدة منهن ترمي شباكها حوله، وتقول له: أطع مولاتك!! يا للهول!! وتتواقح امرأة العزيز فتعترف صراحة بفعلتها الشنعاء وتؤكد ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم، ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنّ وليكوناً من الصاغرين﴾. إنها تؤكد تهديدها بأن السجن سيكون مصيره إذا لم يفعل معها الفاحشة... وقاحة لا نظير لها وجرأة يستغربها الإنسان. ولكن المرء إذا عرف جو الطبقات المترفة في أي مكان في العالم، وفي أي زمان من الأزمنة، وجد أن الصورة هي الصورة، وإن اختلفت السمات والشيات.

زاد البلاء على يوسف. لم يعد يواجه إغراء امرأة العزيز وحدها، ولكنه يواجه إغراء علية القوم كلهن. وفيهن فاتنات بارعات الحسن والجمال، عليمات بأسرار الإغراء والإغواء. التجأ يوسف عليه السلام إلى ربه:

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾.

صرف الله عنه كيد النساء.. عرفوا طهارة يوسف وعزة نفسها. اشتعلت نفوسهن رغبة فيه، ولكنهن عرفن أن هذه الرغبات لا مجال لها للتنفيذ مع يوسف.

عرف رجال البلاط وعلية القوم بالحادثة. بدأت الألسن تتحدث عن امرأة العزيز وعلية القوم. ما بال هؤلاء الرجال الذين يحكمون مصر ويتحكمون في شعبها لا يستطيعون أن يتحكموا في نزوات نسائهم؟! بدأ الحديث يصل إلى الشعب. إذاً الأمر جد خطير.: لقد تحولت قصة يوسف مع امرأة العزيز ومع نساء علية القوم إلى

مادة تمسُّ هيبة الحكم وسلطانه. قررت السلطة الحاكمة كما هو معتاد في مثل هذه الظروف أن تزج بيوسف في السجن، حتى تسكت الألسنة عن قضية يوسف وقصته مع نسائهم، وليوهموا الشعب أن يوسف هو الذي كان يراود امرأة العزيز عن نفسها.

دخل يوسف السجن راغباً فيه.. ﴿السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه﴾ استجاب الله دعوته وأدخله السجن. السجن أخف من ارتكاب الفاحشة في مجتمع استمرأ الرذيلة واعتادها حتى أنه ليفاخر بها، ويتحدث عنها علانية ﴿ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين﴾ سجنوه بعد اقتناعهم ببراءة يوسف. لفقوا له التهمة ووضعوه في السجن كما هو معتاد دون محاكمة.

دخل يوسف السجن ثابت القلب والجنان. خلا فيه إلى نفسه وإلى ربه. عاد إليه الهدوء، وجد الوقت للعبادة وللتفكر. بدأ يدعو المسجونين إلى عبادة الله. أسلوبه جذاب، صورته مغناطيس، كلامه يصل إلى القلب مباشرة. آمن به السجان. ومجموعة من المساجين. وذات يوم دفع السجان إلى غرفة يوسف بسجينين مهمين من أفراد الحاشية. رئيس السقاة ورئيس الخبازين. ربما حدثت مؤامرة في القصر ضد الملك، واتهم الاثنان بالاشتراك فيها. أحدهما بريء والثاني متلبس بتلك الجريمة. آنسا من يوسف هذا النور، فاطمأنت قلوبهما له. ظهر لهما من يوسف هذه القدرة على تفسير الأحلام وتعبير الرؤيا. قصَّ عليه كل واحد منهما حلمه وفسره له يوسف.

قال تعالى:

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ (كان يخبرهما بنوع الطعام قبل مجيئه). ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن

دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

هكذا تحول تفسير الحلم إلى دعوة كاملة إلى التوحيد.. دعوة شفافة تصل إلى القلوب مباشرة دون أي عائق.. دعوة إبراهيم وإسحاق ويعقوب.. دعوة التوحيد التي جاء بها الأنبياء جميعاً. لا يترك يوسف تلك الفرصة تفلت من يده. الآذان مصغية والقلوب متلهفة لمعرفة الحلم وتفسيره. ويوسف عليه السلام يستفيد من تلك الحالة النفسية المذعنة للحق الطالبة له، فيعرض عليها الإيمان بالله وحده، لينجيها مما هي فيه من ظلمات الكفر، وليأتي بعد ذلك تفسير الحلم.. ويكون التفسير المرعب لأحدهما دافعاً للإيمان بالله وحده، فإذا خسر الدنيا كسب الآخرة، ويكون بالنسبة للآخر مذكراً بالآخرة ونعيمها بحيث لا يغتر برضا الملك عنه. جاء جواب السؤال بعد أن انتهى من القضية الأساسية وهي قضية الإيمان. قال يوسف عليه السلام مفسراً الحلمين: ﴿يا صاحبي السجن. أما أحدكما فيسقي ربه خمراً، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه، قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ أيها الساقي ستعود كما كنت تسقي الملك خمراً.. وأنت أيها الأخ الآخر تجاوز عن ذكره حتى لا يؤلمه، فإنك ستصلب وتأكل الطير من رأسك. قيل إنهما قالا ليوسف: ما رأينا شيئاً. قال قضي الأمر الذي فيه تستفتيان. وبالفعل خلال ثلاثة أيام أخرجا من السجن، وعاد أحدهما وهو الساقي إلى القصر، وحمل الآخر فصلب حتى أكلت الطير من رأسه. ﴿وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه. فلبث في السجن بضع سنين﴾ قال يوسف للساقي إذا تحققت مما قلت لك وأصبحت ساقي الملك مرة أخرى، اذكرني عنده وخبره بشأني وإني قد أدخلت السجن ظلماً. ولكن الساقي أخذته النشوة وحياة القصر فنسي تماماً وعده ليوسف، حتى جاء يوم رأى فيه الملك حلماً غريباً قال عنه الكهان والحكماء: أضغاث أحلام. وما نحن بأضغاث الأحلام بعالمين. ساعتها فقط تذكر الساقي يوسف وكيف فسر له ولصاحبه أحلامهما الغريبة، وطلب من الملك أن يرسله إلى السجن ليأتيه بيوسف وهو الوحيد الذي يستطيع أن يفسر رؤيا الملك الغريبة.

قال تعالى :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ـ أي بعد زمن ـ. أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

جاء الساقي ومعه ثلة من القوم.. أخبر يوسف بالحلم، أجابه يوسف على الفور بتعبير الرؤيا:

ستأتيكم سبع سنين رخاء، احتفظوا بالقمح في سنابله إلا قليلاً مما تأكلون.. فإن وراء هذه السبع السمان سبع عجاف يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تدخرون وتحصنون. ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون الزيت والعنب من وفرة ما ينتجون. هكذا أخبرهم يوسف عليه السلام في بساطة بتعبير الرؤيا، ولم يكتف بذلك بل أخبرهم كيف ينقذون مصر وما حولها من هول المجاعة القادمة.. وبشرهم بأن المجاعة تنتهي بعام من الخصب والرخاء يكثر فيه الزرع، ويعصرون فيه العنب والزيتون لكثرتهما. وهو أمر لم يرد أي شيء عنه في رؤيا الملك.

انتقل الساقي ومن معه إلى الملك وأخبروه بما قال يوسف وتعجب الملك من هذا الفتى الفذّ الذي أدرك الحلم وفسره وأضاف إليه التدابير الوقائية لحماية شعب مصر والشعوب المجاورة من خطر المجاعة، ولم يكتف بذلك كله وإنما بشرهم بعام الخصب بعد أعوام المجاعة. صاح الملك في ملئه: ائتوني به. ذهب الرسل سراعاً وأخبروا يوسف بأمر الملك. قال يوسف للرسول: ﴿ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة

اللاتي قطعن أيديهن. إن ربي بكيدهن عليم﴾. أراد يوسف محاكمة عادلة لتظهر براءته أمام الملك وأمام الشعب. فوجىء الملك بيوسف يرفض الخروج من السجن حتى ينال محاكمة عادلة. دعا الملك نساء علية القوم وعلى رأسهم امرأة العزيز. قال الملك:

﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ۚ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ۚ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

اعترفت النساء من علية القوم ببراءته مما اتهم. وجاء اعتراف امرأة العزيز صريحاً قوياً.

﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾﴾.

وأضافت وهي تعترف أنها لا تبالي بما سينالها من مكروه نتيجة هذا الاعتراف العلني طالما علم يوسف أنها لم تخنه بالغيب. إنها تهتم فقط بأن يعرف يوسف عنها أنها أحبته بصدق. تحول الحب الجسدي إلى نوع آخر شفاف من الحب، وحب عميق علمها الصدق والأمانة والخشية، علمها أن تتصل بالله وتقول:

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾.

هكذا بكل تبتل وخشوع تعود المرأة العاشقة المفتونة بجمال يوسف إلى امرأة شفافة. حب يوسف لا يزال كامناً في القلب، بل هو أقوى مما كان عليه من قبل، ولكنه حب سامٍ له شفافية ورقة وحياء، حب يدفع إلى الأخلاق العالية حتى تقترب من المستوى السابق الذي كان عليه يوسف، لتكون في يوم من الأيام قريبة من مستواه وأهلاً لمبادلته الحب.

عرف الملك صدق يوسف وحكمته وحنكته. انطلقت الألسن بالثناء عليه.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾.

عرف الملك من يكلم. بهرته ثقافة يوسف وحكمته وعلمه ونبوغه وتواضعه. كان

الملك ذو ثقافة واسعة وعلم باللغات وبمجريات الأمور. اختبر يوسف بنفسه، بقي معه أياماً وهو يتحدث معه. كلما تشعب الحديث كلما ازداد إعجاباً بيوسف وشغفاً به. قال له:

﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾.

قال يوسف عليه السلام:

﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾.

تلك مهمة صعبة لا يستطيع أحد من رجال القصر أن يقوم بها. متابعة المزروعات والمالية، وكيفية المحافظة على فائض الزرع في تلك الأيام الخصبة لمواجهة الأيام العسيرة المقبلة، أمر يعرف يوسف عليه السلام أنه لا يستطيع أن يقوم به أحد غيره. طلب الوظيفة الصعبة ليقوم بواجبها، وكان في إمكانه أن يطلب أي وظيفة أخرى لا تكلفه عنتاً ولا مشقة. ولكنها النبوة والأمانة تفرض على يوسف أن يؤدي واجبه في الموقع الذي ينبغي عليه أن يشغله، وأن ينقذ شعوب الأرض في ذلك الزمان عندما تجدب أرض مصر وما حولها وتصاب بالجفاف الشديد لمدة سبع سنوات عجاف.

وهكذا مكّن الله ليوسف في الأرض لينقذ به شعوب الأرض، ولينقذ به يعقوب وبنيه، وليرفع مكانته ومكانتهم ببركته.

قال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

ومضت أيام الرخاء سراعاً، وأعقبتها المجاعة. جاء شعب مصر يطلب الميرة فوجدها جاهزة. وجاءت الشعوب الأخرى من حول مصر بعد أن أنشبت المجاعة أظفارها فيهم. وأقبل إخوة يوسف بأحمالهم وبضاعتهم الرديئة، عملة مزيفة يقدمونها ليوسف ليبتاعوا من القمح الذي امتلأت به مخازن مصر.

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم

بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

دخل إخوة يوسف عشرة رجال، سألهم يوسف عن أرضهم وعن بلادهم. وجاء السؤال عرضاً، هل لكم من إخوة آخرين؟ قالوا: نعم، هناك أخ من أبينا يتسلى به عن شقيقه الذي فقده منذ زمن. قال يوسف: لماذا لا تأتون بهذا الأخ حتى تزدادوا كيل بعير؟ ألا ترون أني أوفي الكيل، وقد أنزلتكم خير منزل؟! لقد شوقتموني إلى أخيكم هذا وقصته. إني أريد أن أراه، فإن لم تأتوا به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون مرة أخرى. وعدوه بأنهم سيحاولون ذلك مع أبيهم الشيخ. رجعوا إلى بلادهم، وجدوا الميرة ووجدوا بضاعتهم ــ أي نقودهم ــ ردت إليهم، وهم لا يستحلون أخذها مرة أخرى، فلا بد من إرجاع الميرة أو النقود.

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ــ يا له من توبيخ وتقريع ــ. فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ ﴾.

لما يرونه من إكرام العزيز ــ وهو يوسف ــ لهم. قال يعقوب عليه السلام:

﴿ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن

شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

أمرهم أبوهم أن يدخلوا من أبواب مختلفة حتى لا يتهموا بريبة، أو يصابوا بالعين، وحتى يتحسسوا من يوسف ويتسمعوا شيئاً من أخباره لعل الله يعلمهم بشيء منها، خاصة وأن القافلة التي أخذت يوسف كانت قد اتجهت إلى مصر حينما وضعوه في غيابة الجب.

عاد الإخوة مرة أخرى إلى مصر. ومعهم هذه المرة بنيامين شقيق يوسف الأصغر ــ ولد بعده مباشرة لأنهما كانا توأمين ــ وفرح يوسف بشقيقه. احتال حتى كلمه وقال له: إنه أخوة، وإنه سيأخذه منهم، وإنه سيتهمه بطريقة غير مباشرة بالسرقة. قال تعالى يصف ما حدث:

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ ــ وهي صواع الملك المصنوع من الذهب والمرصع بالجواهر ــ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ ــ أي كفيل ــ. قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

يقصدون أن من سرق يسترقّ ويصير عبداً لمن سرقه. ولم يكن القانون كذلك في مصر، بل كان من سرق يعزر ويسجن، ولكن الله ألهم يوسف هذا السؤال حتى يأخذ أخاه ـ ولو طبق قانون الملك في مصر لما استطاع أن يأخذ أخاه، بل عليه أن يضعه في السجن ــ قال تعالى يصف ما فعله يوسف:

﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا

لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ـ أي في قانون الملك ـ . إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ .

سرعان ما اتهم إخوة يوسف الكبار أخاهم بنيامين بالسرقة . ولم يكتفوا بذلك بل قالوا :

﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ۚ ﴾ .

متهمين يوسف نفسه بالسرقة . قيل إن يوسف رأى صنماً لأحد أخواله ، أو جده لأمه ـ لابان ـ فغضب وأخذه ورماه دون أن يخبرهم بذلك ، لأنه لا يريد أحداً من أهله أن يعبد الأصنام . وقد فعل ذلك يوسف حمية لدين الله وهو طفل صغير . فاتهموا لذلك يوسف بالسرقة . كتم يوسف غيظه وقال في نفسه : أنتم شر مكاناً . أنتم الذين أخذتم أخاكم وأردتم قتله ثم أجمعتم على رميه في غيابة الجب ، ولم ترعوا قرابته فيكم . وهو لم يذنب إليكم ولم يرتكب جريرة ضدكم .

انطلق إخوة يوسف يستعطفونه وهم لا يعرفونه :

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ ۙ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ .

ولم يتهم أخاه بالسرقة بل قال : معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده حتى لا يتهمه ظلماً .

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ .

يئس القوم من استعطاف يوسف وخرجوا من عنده وهم يتناجون ماذا يفعلون؟ قال كبيرهم رأوبين يذكرهم بالعهد والميثاق الذي قطعوه على أنفسهم أمام أبيهم: ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله؟! ثم ذكرهم بتفريطهم بيوسف وهو الوحيد الذي رفض فكرة قتل يوسف، واقترح عليهم بدلاً منها إلقاؤه في الجب، ومع ذلك حاول أن يثنيهم عن تلك الفكرة وأن يرقق قلوبهم من أجل يوسف.

بدأت رحلة العودة بالنسبة لرأوبين سريعاً. وبدأ الندم يدبُّ إلى بقية إخوته رويداً رويداً. أمرهم رأوبين أن يرجعوا إلى أبيهم وأن يقولوا له:

﴿إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

وإذ المشهد كله قد انتقل من مصر إلى فلسطين وهم قد قالوا لأبيهم ما أوصاهم به أخوهم الأكبر رأوبين. ونفاجأ بجواب يعقوب عليه السلام الذي رفض تصديق هذه القصة المختلقة، فهو أعرف بابنه، وابنه لا يمكن أن يسرق مهما كانت الظروف.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

الألم يعتصر يعقوب عليه السلام ومع ذلك فهو صابر يكظم غيظه. إن الذين أخذوا يوسف هم أبناؤه، ثم ها هم يأخذون بنيامين ويدبرون أمراً لإبعاده عنه. إن الألم الممض يعتصر نفسه اعتصاراً. لو كان الذين اعتدوا على ولديه من الأجانب والأباعد لربما كانت الحسرة أخف وأقل، ولربما جاهدهم وقاتلهم، ولكن الجناة هم أيضاً فلذات كبده. ازداد الألم والحزن وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم.. يا للصبر!! إنه

لا يتحدث عن مكابدته وحزنه وألمه حتى لهؤلاء الأبناء، إنما يشكو بثه وحزنه إلى الله. والبث هو الحزن والألم العظيم الذي لا بد أن يبث من شدته وهوله، ولكنه لا يبث شكواه إلا لخالقه، وهو يعلم من الله أنه لا بد سيلتقي بيوسف يوماً ما وستحقق الرؤيا التي رآها يوسف في طفولته. سيسجد له أبواه وإخوته أجمعون، لهذا أمرهم يعقوب بأن يذهبوا مرة أخرى إلى مصر، وأن يتحسسوا من يوسف وأخيه، وأن لا ييأسوا من روح الله وفرجه، إنه لا ييأس من روح الله ورحمته إلا القوم الكافرون.

رجع الإخوة حسب أمر أبيهم للمرة الثالثة إلى مصر، وتنقلنا المشاهد القرآنية من مصر إلى فلسطين ومن فلسطين إلى مصر في نقلات سريعة بها فجوات تترك للمشاهد أن يملأها بخياله..

ها هم الإخوة ينتقلون من بلد لآخر في رحلات مرهقة متعبة.. مرهقة جسدياً ونفسياً، ومعها المعاناة والصقل، المعاناة النفسية تزداد حتى تبلغ ذروتها عند رؤيتهم ليوسف للمرة الثالثة. الألم والندم والتعب قد أخذ منهم كل مأخذ.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

أحس يوسف نبرة الصدق مع الألم الممض في حديثهم. إن الضرَّ قد أخذ منهم كل مأخذ، والندم لما فرطوا في يوسف من قبل قد اشتعل في نفوسهم، وزاد معه التقريع من أبيهم ومن أخيهم الأكبر رأوبين. تعب الطريق، ومشقة السفر وعناء الرحلة، بالإضافة إلى الألم النفسي الممض، كل ذلك جعل يوسف عليه السلام يرفع الستار عن المأساة ويخبرهم الخبر. ﴿قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون﴾ عقدت الدهشة ألسنتهم!! يا للمفاجأة العظيمة!! إنهم يذوبون خجلاً من يوسف، ومع ذلك كان هناك شعور داخلي يهتف بالفرحة، ها هو يوسف أخيراً، وفي أي مكانة ورفعة!!

﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ

ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا ۖ وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

تصافت النفوس، واعترف الإخوة بذنبهم وأقروا بجريرتهم، وبادر يوسف بالعفو عنهم ـ قال: ﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾، ثم دعا لهم بالمغفرة وذكرهم برحمة الله الواسعة ﴿يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾ وأعطاهم قميصه لينطلقوا به ويلقوه على وجه يعقوب فيرتدَّ بصيراً. قيل إن هذا القميص هو قميص إبراهيم عندما أُلقي في النار، وإن جبريل جاء به إلى يوسف عندما ألقي في الجب، واحتفظ به يوسف، ولبسه للمرة الأخيرة ثم أعطاه لإخوته ليلقوه على وجه أبيهم الذي ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ ﴾.

معجزة لنبي كريم من أنبياء الله، شم رائحة يوسف منذ أن خرجت العير من مصر وهي لا تزال في البيداء تبعد عن فلسطين مسافات طويلة شاسعة.

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ ﴾.

سكت يعقوب ولم يرد عليهم إتهامهم.

﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

هنالك بكى الإخوة عند قدمي أبيهم واعترفوا بذنبهم وطلبوا منه أن يستغفر لهم.

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾.

أجَّل الاستغفار لوقت السحر فهو أحرى بالإجابة. وقد قال تعالى:

﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾. (آل عمران: ١٧).

وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الصحيحين أنه قال: «ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا فيقول: هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له» لهذا أجّل يعقوب عليه السلام استغفاره لهم إلى وقت قمينٌ بالإجابة وهو وقت السحر.

جاء القوم كلهم، يعقوب وبنوه وأولادهم، سبعون نفراً. انطلقوا من منطقة بيت المقدس إلى مصر.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا ـ سجود تحية وانحناء لا عبادة ـ. وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

هكذا تلطف ربي سبحانه وتعالى حتى جعلني حاكماً على مصر، فكل ما أصابني من مصائب في الظاهر كانت رحمة في الباطن. فالحمد لله الذي جمع شملنا وجاء بكم من البدو ـ وفي هذه دلالة على أن مصر كانت في حضارة باذخة في ذلك الوقت حتى أن من كان في فلسطين يعتبر في بادية، على ما في فلسطين من حضارة ـ، وقد ذهب كيد الشيطان بعد أن نزغ بيني وبين إخوتي، وها نحن على وئام وصفاء ومحبة، إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم.

استقرت الأسرة الكبيرة في مصر، وشاخ يعقوب وحضرته الوفاة، جمع أبناءه حوله وقال لهم:

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾. (البقرة: ١٣٣).

اطمأنت نفس يعقوب ومات قرير العين. وتذكر التوراة أنه أوصى بنقل جثمانه لكي يدفن مع آبائه إبراهيم وإسحاق في مغارة المكفيلة في حقل عفرون في مدينة الخليل، وذهب يوسف وحاشيته وجميع أبناء يعقوب لدفنه. وأما المناحات التي تذكرها التوراة، والأشهر العديدة التي قضاها يوسف في تلك المناحة، فأمر لا نصدقه، وهو أمر لا يليق بالفضلاء من الرجال فكيف بالأنبياء!!؟.

ومضى الزمان، واشتاقت نفس يوسف للقاء ربه. قال:

﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾.

أعلن يوسف عليه السلام تمسكه بالإسلام في لحظة الوفاة كما أعلنها من قبل أبوه يعقوب، لينبه بنيه وذويه إلى التمسك بها، فهي العروة الوثقى لا انفصام لها. وبكت مصر كلها على يوسف، واختصموا في دفنه، وقيل: إنهم جعلوه في تابوت وجعلوا التابوت في أعلى النيل لتعم بركته أرض مصر، وأن موسى أخذه عند الخروج من مصر ودفنه في مدفن آبائه في مغارة المكفيلة في حقل عفرون في مدينة الخليل التي يسمونها حبرون، وقيل غير ذلك.

من هم الأسباط؟ وهل هم أنبياء؟

ذكر الله تعالى الأسباط في كتابه في آيات عدة من القرآن الكريم. قال تعالى:

﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾. (البقرة: ١٣٦).

وقال تعالى:

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ ﴾. (البقرة: ١٤٠).

وورد ذكر الأسباط أيضاً في سورة آل عمران آية ٨٤، وسورة النساء آية ١٦٣، وسورة الأعراف آية ١٦٠. وقد اختلف أهل التفسير في معنى الأسباط، ومن هم هؤلاء الأسباط، وهل هم أنبياء؟ على أقوال سنوجزها فيما يلي:

● **الأول**: أن الأسباط هم بنو يعقوب عليه السلام. قاله قتادة. وهم اثنا عشر رجلاً وولد كل رجل منهم أمة من الناس فسموا أسباطاً.

● **الثاني**: الأسباط حفدة يعقوب وذراري أبنائه الاثني عشر، ذكره الزمخشري في الكشاف ووافقه فيه الرازي في التفسير الكبير.

● **الثالث**: الأسباط قبائل بني إسرائيل، قاله البخاري وذكر أن المراد بالأسباط شعوب بني إسرائيل وما أنزل من الوحي على الأنبياء منهم.

وقال القرطبي: وسموا الأسباط من السبط وهو التتابع فهم جماعة. وقيل أصله السَبَطُ بالتحريك وهو الشجر أي في الكثرة، بمنزلة الشجرة الواحدة سبطة. ثم قال والسبط الجماعة والقبيلة الراجعون إلى أصل واحد. والمقصود من ذلك أنهم ذراري يعقوب من أبنائه الاثني عشر. والأسباط هم الأنبياء من بني إسرائيل.

وقد اتفق أهل الإسلام على أن يوسف عليه السلام نبي ورسول. قال تعالى:
﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾. (غافر: ٣٤).

وهو كلام مؤمن آل فرعون يقصه المولى عز وجل في معرض المدح لهذا الرجل المؤمن.

أما إخوة يوسف فقد اختلف أهل العلم فيهم إلى قولين: القول الأكثر ظهوراً هو أنهم ليسوا بأنبياء، وأن الأسباط المذكورين في القرآن الكريم هم أنبياء بني إسرائيل.. وقد رجح هذا القول القرطبي وابن كثير والبخاري.

وما فعله إخوة يوسف قادح في عصمة الأنبياء عندهم.

والقول الثاني: أنهم أنبياء وأن خطأهم كان قبل النبوة. وقد عصى آدم ربه فغوى

ثم اجتباه ربه فهدى. ولا شك أن آدم نبي والمعصية عند أصحاب هذا الرأي جائزة على الأنبياء قبل نبوتهم. وذلك لا ينافي العصمة.

ويردون على من قال إن الأسباط هم أنبياء بني إسرائيل: وهؤلاء الأنبياء إنما جاءوا من بعد موسى. ولا شك أنهم كانوا يدينون باليهودية. ولكن القرآن نفى عنهم ذلك حيث قال المولى: ﴿أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله؟﴾ وذلك دليل على أن الأسباط كانوا قبل موسى. وسياق الآية مرتبط، إبراهيم وبنوه، ثم يعقوب وبنوه، وهم الأسباط.

ونحن نكل العلم في هذه المسألة إلى الله.. والله أعلم بالصواب.

* * *

موسى وهارون (عليهما السلام)

ترد قصة موسى وهارون عليهما السلام في التوراة كما ترد أيضاً في القرآن الكريم. وتأخذ قصة موسى في التوراة عدة أسفار، أهمها سفر الخروج وسفر اللاويين وسفر العدد وسفر التثنية، حيث تنتهي قصة موسى بذكر وفاته في التيه وحرمانه من دخول الأرض المقدسة لأنه عصى الرب. تقول التوراة المحرفة على لسان الرب لموسى وهارون: «لأنكما خنتماني في وسط بني إسرائيل عند ماء مريبة قادش ــ اسم موضع ــ في برية صين ــ اسم موضع وربما كان الصحيح في برية سيناء ــ إذ لم تقدراني في وسط بني إسرائيل. فإنك تنظر الأرض في قبالتها ولكنك لا تدخل إلى هناك، إلى الأرض التي أنا أعطيها لبني إسرائيل» (سفر التثنية، الإصحاح ٣٢: ٥١).

«ومات موسى في الجواء في أرض موآب مقابل بيت فغور ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم» كما تقول التوراة (سفر التثنية، الإصحاح ٣٤: ٦).

ولا تحدد التوراة زمن ميلاد موسى، ولكنها تذكر أن ملكاً جديداً قد حكم مصر وكان يكنُّ الحقد لبني إسرائيل، حيث رأى عددهم يكثر، وضياعهم وأملاكهم تتسع، ونفوذهم يقوى، فقال فرعون لشعبه: «هلم نحتال لهم لئلا ينموا فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض. فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلوهم بأثقالهم. فبنوا لفرعون مدينتي مخازن فيثوم ورعمسيس ــ تكتب أيضاً رمسيس ــ». (سفر الخروج، الإصحاح ١: ٨ ــ ١٢).

واستعبد المصريون بني إسرائيل وأذلوهم، ثم أمر فرعون بقتل كل ولد ذكر يولد من أبناء العبرانيين واستحياء كل بنت، وذلك عندما قام الكاهن الأكبر في مصر بإبلاغ فرعون بأن ولداً يولد للعبرانيين يقوم بإهلاك فرعون وقومه. واشتاط بذلك غضب فرعون على قوم موسى وزاد عليهم العذاب.

ولادة موسى:

ولد موسى عليه السلام في هذا الوقت العصيب. **وتزعم التوراة أن عمرام** ــ يسميه القرآن الكريم عمران ــ **تزوج عمته يوكابد** التي ولدت له هارون ــ وهو يكبر موسى بثلاث سنوات ــ وموسى عليهما السلام (سفر الخروج، الإصحاح ٦ : ٢٠).

وينتسب عمران وزوجته إلى بيت لاوي بن يعقوب عليه السلام. وتصف التوراة قصة مولد موسى وهي تشبه إلى حدٍ ما ما ذكر في القرآن الكريم، ولكن لا يوجد في كلا الكتابين المقدسين أي تحديد للزمن الذي ولد فيه موسى.

وتذكر دائرة المعارف البريطانية (ج ٢/ ٤٥) من الميكروبيديا وج ١٢/ ٤٨٧ من الماكروبيديا طبعة ١٥) أن أقرب التواريخ إلى الدقة هو أن موسى ولد في أواخر القرن الرابع عشر قبل الميلاد وعاش في القرن الثالث عشر قبل الميلاد.

وترجح دائرة المعارف البريطانية أن موسى ولد في عهد الفرعون ــ لقب لملك مصر ــ سيتي الأول الذي حكم مصر في الفترة الواقعة بين سنتي ١٣١٨ هـ و ١٣٠٤ قبل الميلاد. . وتسميه فرعون الاضطهاد. . حيث اشتد في عهده اضطهاد بني إسرائيل وهو الذي أمر بقتل كل مولود ذكر من بني إسرائيل.

ومات هذا الفرعون أثناء شباب موسى، وفر موسى من وجهه إلى مدين بعد أن وكز المصري فقضى عليه. وهي القصة التي ترد في القرآن والتوراة باختلافات بسيطة، حيث وجد موسى رجلاً من قومه يتعارك مع أحد المصريين، فاستغاثه الذي من شيعته على عدوه فوكزه موسى فقضى عليه. وفي اليوم التالي إذا بالرجل الذي استغاثه من قومه يتعارك مع شخص آخر ــ تذكر التوراة أنه من بني إسرائيل ــ فطلب من موسى أن ينجده، فلما همّ أن يبطش بالذي هو عدو لهما خاف العبراني وظن أن موسى سيبطش

به، فقال له: أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس؟! إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين. آنذاك اكتشف المصريون القضية وتجمعوا ليقتلوا موسى، فهرب موسى من أرض مصر إلى مدين حيث تزوج هناك.

ولما عاد موسى من أرض مدين كان فرعون الاضطهاد سيتي قد مات وتولى مكانه فرعون آخر أشد ظلماً، هو رمسيس الثاني ــ ١٣٠٤/ ١٢٣٧ قبل الميلاد ــ، الذي استمر في اضطهاد بني إسرائيل. وفي عهده ظهرت معجزات موسى التسع، وانتهت بإغراق فرعون وقومه.

ولا يعتبر تحديد دائرة المعارف البريطانية مقبولاً لدى الباحثين جميعاً. حيث نجد عدداً من الباحثين كما يقول الدكتور موريس بوكاي في كتابه (القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم): يعتبرون أن فرعون الاضطهاد هو رمسيس الثاني، وأن فرعون الخروج هو خليفته منبتاح، ويختلف الباحثون بعد ذلك في المدة التي عاشها كلا الفرعونين، ويُعتقد أن رمسيس الثاني حكم مصر عدة تزيد على ستين عاماً، بينما لم يحكم منبتاح مصر سوى عشر سنوات في أحد الأقوال وعشرين عاماً في قول آخر.

لذلك كله لا يمكن تحديد زمن ولادة موسى، ولا العصر الذي عاش فيه بدقة، ولكن جمع الأقوال هذه يؤكد على أنه عاش في القرن الثالث عشر قبل الميلاد.

مزاعم فرويد حول موسى عليه السلام:

زعم فرويد العالم النفسي المشهور بأن موسى عليه السلام لم يكن من بني إسرائيل. واستدل على ذلك بأن اسم موسى غير معروف لدى العبرانيين والساميين، وأن ما يقال من كلمة «مش» العبرانية والتي تعني انتشل من الماء، وأن اسم موشى المنتَشِل من الماء ــ على صيغة اسم الفاعل ــ لا تنطبق على موسى لأنه قد انتُشِل من الماء وهو صغير، والمفروض أن يكون الاسم على هيئة اسم المفعول ــ المُنتَشَل ــ. ويزعم أن كلمة مُس ــ بمعنى الابن في رعمسيس وتحوتمس أي ابن الإلـه رع، وابن الإلـه تحوت ــ المصرية، هي مصدر كلمة موسى، وبالتالي فإن موسى هو رجل مصري، نشأ في قصر فرعون وحاشيته، وقام بدور عسكري في الحبشة ثم عاد وقام بانقلاب عسكري فاشل ضد فرعون. كان موسى حسب زعمه يدعو إلى عقيدة

أخناتون، وهـو فرعـون مصر الـذي جاء بعبـادة الشمس ورفض جميع الآلهـة الأخرى. ولهذا يزعم كثير من الكتاب وخاصة من إخوتنا المصـريين أن أخناتـون هو أول من دعـا للتوحيد. وقد استدل فرويد على مزاعمه تلك بمـا جاء في سفـر الخروج (١٨٥) «ولما كبر الصبـي جاءت به إلى ابنة فـرعون، فـاتخذتـه ابناً لهـا وسمته مـوسى قائلة: لأنني انتشلته من الماء» (الخروج ٢ : ١٠).

وهـذا القول خـطأ من وجوه عـدة: أولها: أن آدم عليـه السلام كـان موحـداً وأن أبناءه كانوا موحـدين. وأن آدم كان نبيـاً رسولاً وكـذلك ابنـه شيث، ثم ظهر بعـد ذلك إدريس، ويقال له أيضاً: أخنوخ، ثم ظهر نوح عليه السلام. وكـل هؤلاء قبل أخنـاتون بقرون طوال.

ثم إن أخنـاتون حسبمـا تذكـره البرديـات كان عـابداً للشمس، وتـزوج من أختـه الجميلة نفرتيتي.

ويزعم فرويد أن موسى كان تابعاً لديانة أخناتون، وأنه نتيجة لـذلك اصـطدم مع فرعون، ثم خرج بمجموعة كبيرة من بقايا الهكسوس الذين كانوا في مصر مع مجموعة من القبائل السامية والتي عبرت إلى مصر وسموا العبرانيين.

وكان مع موسى سبعين رجلاً من قوم فرعون الذين كانوا يؤمنون بدعوة أخناتـون، وأنهم ساروا معه في ثورته ضد فرعون.. وأن موسى جعلهم قواداً لجيشه المشكل من مجموعات مختلفة من البشر.

ولما عبروا إلى شـرق مصر غـرق فرعـون في البحر هـو وجيشه، واستعـد موسى للعـودة إلى وطنه مصـر، ولكن حدثت أحـداث حالت دون ذلـك. ويـزعم فـرويـد أن شخصيـة مـوسى الأسـطوريـة تجمـع صـورة البـطل عنـد السـاميين وصـورتهـا عنـد المصريين.. وشخصية البطل عند الساميين حسب زعمه تنبني على عناصر، أهمها:

(١) أن يكون من أب غير معروف أو أن يكون يتيماً. ومثال ذلك موسى ومحمد اليتيمان.. وعيسى بن مريم بدون أب.

(٢) أن تكون ولادته محفوفة بالمشاكل والمخاطر، كأن يولد في وقت مذبحة أو من أم عـاقـر أو من أبـوين طـاعنين في السن، مثـل مـولـد إسحـاق ويحيـى.. وولادة موسى في وقت مذبحة.

(٣) أن يكـون البطل محباً للعزلـة في الصحاري والجبـال. . وهذا واضـح في شخصيات إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد.

أما شخصية البطل عند المصريين فأهم عناصرهـا أن يكون من بيئـة أرستقراطيـة وأن يكون قوي البنية شديد البأس وأن يعيش في الحضر بين قوم متمـدنين. . . وتجمع شخصية موسى الأسطورية حسب زعم فرويد هذه العناصـر جميعاً. . ومـوسى شخصية مصرية حسب زعمه إلا أن أكثر أنصاره من الساميين!!

هذا هو ملخص لهلوسات فرويـد الذي كـان مدمنـاً للمخدرات وبصـورة خاصـة الكـوكايين والتي يمتـدحها في العـديد من مقـالاته وكتبـه. وهـو هـو فـرويـد صـاحب النـظريات النفسيـة المنحرفـة التي تزعم أن الـطفل عنـدمـا يلتقم الثـدي يقـوم بعمليـة جنسية، لأن الغريزة الجنسية تكـون مركـزة في هذه المـرحلة في الشفتين، وأن الصبي يحب أمـه جنسياً ويكـره أباه، ولكن المجتمـع يمنـع ظهـور هـذه العـواطف، فيكبتهـا الإنسان ولذا يصاب بعقدة أوديب. والبنت تحب أباها جنسياً وتكره أمها وتصاب بعقـدة إليكتـرا، ثم يستمـر في الهـراء والسخف الـذي يسمى علم نفس حيث يـدرّس في جامعات العالم أجمع بسبب نشاط اليهود الذين رتبوا لذلك من أجل إفساد العالم.

الوجود التاريخي لموسى عليه السلام:

وبما أن زمن مولد موسى غيـر معروف على وجـه الدقـة، وبما أنـه لا يوجـد ذكر لموسى في الآثار التاريخية وما عثر عليـه من مخطوطـات، فقد أدى ذلـك إلى أن يزعـم كثير من الباحثين وخـاصة في نهـاية القـرن التاسـع عشر وبـداية العشـرين أن شخصية موسى لا وجود لها على الإطلاق.

وتذكر دائرة المعارف البريطانية (ج ١٢/ ٤٨٧ الطبعـة ١٥ لعام ١٩٨٢) أن كثيـراً من الباحثين المشهورين ومنهم مـارتن نوث يـزعمون أن شخصيـة موسى المـذكورة في التوراة هي من صنع مؤلفي التوراة الذين كتبوها بعد مضي مئات السنين من وفاة موسى المزعوم. ويقول: ربما كـان موسى شخصـاً حقيقياً، ولكنـه شخصية بسيـطة من موآب ــ مـدين ــ وليس من بني إسـرائيــل، وكـل الأحــداث التي تلصق بـه هي من صنــع الأساطير التي تجمعت في الحُقب التي تكوّن فيها شعب يدعى إسرائيل.

وقد سبق أن ذكرنا ما قاله جارودي في كتابه إسرائيل الصهيونية السياسية: من أنه لا يوجد أي سند تاريخي لوجود شخصية موسى، كما لا يوجد أي سند تاريخي لوجود إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط. ويعتبر جارودي أن ما ورد عن هؤلاء الأنبياء هو من القصص الخلّاق والحاسم في بناء الإنسان والحياة.

وتذكر دائرة المعارف البريطانية أن اليهود والنصارى ظلوا حتى العصور الوسطى يعتقدون أن موسى هو مؤلف الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم، وهي التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية، والتي يطلق عليها اسم التوراة. ولكن اليهود والنصارى منذ عصر النهضة اعترفوا بأن التوراة كتبت في عصور متأخرة جداً وبعد وفاة موسى بعدة قرون. وأن أول ما كتب هو بعض الأناشيد، والوصايا العشر، ونبوءات يعقوب وموسى، وذلك في عهد سليمان في القرن العاشر قبل الميلاد ــ أي ٤٨٠ سنة تقريباً بعد خروج موسى وقومه من أرض مصر ــ.

ومهما كان النقاش حول شخصية موسى عليه السلام، فإن المسلم لا يكون مسلماً حتى يؤمن إيماناً كاملاً بأن موسى عليه السلام ليس شخصية تاريخية فحسب بل هو من أولي العزم من الرسل.

وبالنسبة للمسلم ليست التوراة من تأليف موسى بل هي من عند الله مباشرة، ولكن التوراة الحقيقية زُيفّت وضاعت ولم يبق منها إلا ومضات يمكن أن نلحظها في التوراة الموجودة بين أيدينا وفي بعض أسفار العهد القديم.

موسى عليه السلام في القرآن والتوراة:

إن استعراض قصة موسى في القرآن الكريم يشكل صورة وضيئة مشرقة لرجل اختاره الله منذ لحظة ولادته ليكون من أولي العزم من الرسل. حيث تتسم شخصيته بالقوة والصراحة والغضب لله والحب له وفيه، والبغض لمن عاداه وناوأه في أنقى صورها وأجلى مظاهرها، مع الثقة التامة الكاملة بنصرة الله له ورعايته للمستضعفين.

وقد كانت حياة الذل والمهانة والخضوع التي عاشها بنو إسرائيل منذ أن طرد أحمس فرعون مصر الهكسوس عام ١٥٨٠ قبل الميلاد، وحتى ظهور موسى عليه السلام في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، قد أدت إلى تولّد أخلاق مهينة وحقيرة لدى أجيال اليهود المتلاحقة.

ولم يكن يناسب تلك الشخصيات المهينة الضعيفة التي استمرأت الذل والمهانة إلا أن يظهر اللّه شخصية قوية مستقيمة صريحة فذة لينقذ بها الله هذا الشعب الذي اعوّجت دروبه والتوت أساليبه، وتعود الخنوع والخضوع مع ما يصحبهما من نفاق وذل وخزي.

ولن نحاول ها هنا استعراض قصة موسى كما وردت في القرآن الكريم، لأن ذلك يحتاج إلى كتاب كامل وربما أكثر من كتاب، ولكننا سنكتفي ها هنا بإبراز بعض المعالم الرئيسية في هذه القصة المؤثرة ذات الدلالات الموحية والمتناثرة في عدة سور من القرآن الكريم.

وتتميز سورة القصص ــ رقم ٢٨ ــ بأنها منذ بدايتها تستعرض قصة مولد موسى ونشأته بعد أن توضح في آيتين البيئة التي ولد فيها موسى، حيث كان فرعون الجبار يستضعف طائفة بني إسرائيل، يذبح أبناءها ويستحيي نساءها. وتعلن أنه من المفسدين. وأن الله القدير قد أذن لهذه الطائفة المستضعفة المهانة أن ترتفع من وهدة الذل والمسكنة والمهانة إلى مقام العزة والكرامة، وأن يلحق الذل والصغار بفرعون وهامان وقومهما المتجبرين المفسدين، وذلك بمولد رجل تجتمع فيه خصائص القيادة الفذة مع قوة النفس وصرامتها وقوة الجسم وعرامته. وتوضح تلك الرعاية الربانية التي ترعى موسى عليه السلام وتسخر من فرعون الجبار، حيث تجعل نشأة موسى كلها في بيت فرعون الذي كان يذبّح أطفال بني إسرائيل خوفاً من مقدم موسى، وإذا بفرعون وامرأة فرعون وحاشية فرعون هي التي تدفع عن هذا الطفل الأذى، وهي التي تبحث له عن المراضع، حتى ترجعه يد القدرة إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن، وتعلم أن وعد الله حق.

وهكذا تتدخل القدرة الإلهية مباشرة لترعى موسى وتحفظه على عين الله حين تلقيه أمه في أمواج اليم، وتحفظه وترعاه حين يتلقفه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً، وتتلقفه وترعاه اليد الحانية الرحيمة لتعيده إلى أمه التي كادت لتبدي به بعد أن أصبح فؤادها فارغاً من شدة الهلع والجزع على صغيرها ذاك.

قال تعالى:

﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا

فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾. (القصص: ٣ ــ ١٣).

يا لها من مشاهد تتدخل فيها يد القدرة الإلـهية حيث تصور تلك الأم الملتاعة المروعة التي تتلفت يمنة ويسرة والخوف يملأ جوانحها على وليدها الصغير، حيث انتشر جواسيس فرعون يبحثون عن كل مولود من بني إسرائيل ليذبحوه..

وها هو الله سبحانه وتعالى يتدخل في الأمر ويوحي إلى تلك المرأة المؤمنة ويهدىء من روعها ويبث في نفسها الأمن والطمأنينة. ولكن الأمر غريب غريب ﴿وأوصينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم﴾، وإذا خفت عليه من بطش فرعون فإن أمواج اليم سترعاه وتحفظه. فتضعه أم موسى في صندوق وتلقيه في اليم كما أُمرت، ولكن قلبها الملتاع يصرخ بها أتقذفين بفلذة كبدك في اليم؟ أتتركيه للهلاك؟ أتدرين ما هو مصيره؟!! أصبح فؤاد أم موسى فارغاً إلا من الخوف

الذي ملأ جوانحه، حتى كادت أن تصرخ وتقول: يا قوم! لقد ألقيت فلذة كبدي في النهر!!. ولكن الله ربط على قلبها، وهدأ من روعها، لا تخافي ولا تحزني، ومعها بشارة وأي بشارة، ﴿إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾.

وأمرت الأم الملتاعةُ أختَ موسى أن تقصّ أثره وتأتيها بأخباره، فإذا بالفتاة الصغيرة تلحظ آل فرعون وهم يلتقطون الصبي من النهر، وتراهم وقد ألقى الله عليه المحبة حتى إن امرأة فرعون تلتزمه وتدافع عنه. تلك المرأة التي أراد الله لها الخير برعايتها لموسى عليه السلام فجعلها سيدة نساء زمانها، وقرنها بمريم ابنة عمران حين ضرب الله مثلاً للذين آمنوا. قال تعالى:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾. (التحريم: ١١ ــ ١٢).

ويحرّم الله المراضع على موسى، وآل فرعون مشغولون بالصبي الذي ملأ أفئدتهم حباً له وعطفاً وحدباً عليه، وهو يرفض كل ثدي يقدم له حتى جاءت أخته وقالت: هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون؟ وهكذا أرجعه الله إلى أمه كيّ تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق. وفازت بابنها، وبالأمن والرعاية والأجر من آل فرعون.

وها هنا نقاط خلاف بين ما ذكر في التوراة من قصة موسى عليه السلام وبين ما جاء به القرآن الكريم. ففي التوراة لا يأتي أي ذكر لامرأة فرعون، بل التي تهتم بموسى وتطلب رعايته هي ابنة فرعون. ولا يرد في التوراة وصف لما كانت تعانيه أم موسى من قلق وخوف، ولا ما أوحى الله إليها من إلقاء موسى في اليم، ولا وعده لها بعودته ثم برسالته.

ويزعم الدكتور موريس بوكاي في كتابه «القرآن والتوراة والإنجيل والعلم» (ص ٢٥٢): أن القرآن لا يذكر أن زوجة فرعون هي التي التقطته وإنما آل فرعون. مع وجود النص بأنها هي التي رعته ومنعتهم من قتله. (القصص: ٨ ــ ٩).

وتستمر سورة القصص في مشاهد متتالية من حياة موسى عليه السلام، وإذا الستار يرفع ونرى موسى شاباً قوياً فتياً قد ضاقت نفسه بالظلم الذي يقع على قومه من بني إسرائيل، وقد خرج موسى على القصر ورجال القصر وانضم خلسة إلى قومه الذين تعرّف عليهم. وبينما هو يسير في المدينة في هدأة الظهيرة يجد رجلين يقتتلان ﴿هذا من شيعته وهذا من عدوه﴾، وإذا الإسرائيلي يستنجد بموسى، فما كان من موسى إلا أن وكز المصري وكزة واحدة فإذا هو منطرح على الأرض قد فارق الحياة. مما يشي بقوة موسى البدنية الخارقة وبانفعالية موسى عليه السلام وقيامه ضد الظلم.

وسرعان ما يثوب موسى عليه السلام إلى رشده حيث لم يقصد أن يقتل المصري، ويعلن أن هذا العمل المتسرع من إيحاء الشيطان، ويتجه إلى الله في استغفار خاشع متذلل لبارئه. وتأتيه الرحمة الإلهية القريبة فوراً، لأنه لم يقتل المصري عدواناً بل رداً على عدوان. وإذا بمشهد الصراع يتكرر في اليوم التالي حيث نرى الإسرائيلي وهو يصطرع مع أحد رجال فرعون، وإذا هو يستصرخ موسى ويطلب منه النجدة. ويستشعر موسى الغضب لهذا الذي لا يصبر عن العراك في وقت لا يستطيع فيه بنو إسرائيل القيام في وجه فرعون وقومه. ويخاف الإسرائيلي من غضب موسى ويظن أن موسى سيبطش به فيعلن السرّ المكتوم ﴿أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس﴾؟!

وتنتهي المعركة، ويذهب رجل الحاشية ويبلّغُ الملأ من قوم فرعون، أن موسى هو الذي قتل رجل الحاشية في اليوم السابق، وهو يحرّض الإسرائيليين للثورة ضد فرعون. وتتجمع قوات الأمن والداخلية والمخابرات للبحث عن موسى. لا بدَّ من القبض عليه حياً أو ميتاً.

ولكن رجلاً من آل فرعون يأتي إلى موسى مسرعاً يقول له: ﴿يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين﴾.

ويخرج موسى عليه السلام من مصر خائفاً يترقب لا أنيس له ولا نصير إلا خالقه وبارئه. ويسير في صحراء موحشة لا يعرفها ﴿فلما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾.

ولا يرد في التوراة مطلقاً أي ذكر لمؤمن آل فرعون بينما يتكرر ذكره في القرآن

الكريم، ويجعل الله له سورة كاملة هي سورة غافر التي تدعى أيضاً سورة المؤمن (رقم ٤٠).

ويصل موسى عليه السلام مكدوداً متعباً إلى مدين. ولكنه يرى منظراً يجعله يتحرك لنجدة امرأتين ضعيفتين تذودان أغنامهما ولا تسقيان حتى يصدر الرعاء. وهي صفاقة ووقاحة من أولئك الرجال الذين يمنعون الفتيات من السقي حتى يكملوا سقيهم. وكان الواجب والمروءة والشهامة أن يقدموهن للسقي. فيسقي موسى للفتاتين.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

وهكذا استجاب الله لموسى وبدّله أمناً بعد خوف، وأطعمه وسقاه بعد جوع وعطش.

وينزل الستار فإذا نحن أمام مشهد آخر: ﴿قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾. ودلائل قوة موسى وأمانته قد شاهدتها الفتاة في تصرف موسى منذ اللحظة الأولى. ويتفرس الشيخ العجوز فيرى في موسى القوة والأمانة في أنصع صورها وأجلى مظاهرها. فيسرع ليخطب موسى لابنته. لا يتلجلج ولا يواري ولا يداري. كلمة صريحة مباشرة ﴿قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك. وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين﴾.

ويقبل موسى عليه السلام العرض ﴿قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليَّ والله على ما نقول وكيل﴾.

وها هنا اختلاف طفيف في تفاصيل القصة بين التوراة والقرآن الكريم.. فالقرآن

الكريم يذكر أن موسى وجد فتاتين تذودان أغنامهما، والتوراة تذكر أنهن سبع فتيات ليثرون كاهن مدين، وأن موسى تزوج صفُّورة ابنة يثرون التي ولدت له ابناً سماه جرشوم. بينما لا نجد أي ذكر لهذه التفاصيل في القرآن الكريم.

ولما انتهى الأجل سار موسى بأهله إلى مصر. وفي الطريق آنس من جانب الطور في سيناء ناراً فقال لأهله: ﴿امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون. فلمَّا أتاها نودي من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين﴾.

ويا له من نداء علوي يحار المرء كيف استطاع موسى رغم بشريته أن يسمعه!!

في هذا الجو العبق الكريم من الاصطفاء والاختيار أعلن الله لموسى أنه سيرسله إلى فرعون وقومه لإنقاذ بني إسرائيل. وتضطرب نفس موسى عليه السلام من شدة المفاجأة وهو يرى العصا تتحول إلى أفعى ضخمة سريعة الحركة كأنها جان فولى مدبراً ولم يعقب، ويأتيه النداء العلوي ﴿يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين﴾. من الآمنين من بطش فرعون وكيده، ومن الآمنين من هذا الثعبان المخيف، ومن الآمنين يوم الفزع الأكبر.

ويعطيه الله آية أخرى ﴿اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء﴾ ويطلب موسى من ربه أن يشد عضده بأخيه فيستجيب الله دعاءه وتضرعه، لأن هارون الذي يكبر موسى ببضع سنوات ــ ثلاث كما تذكر التوراة ــ هو أفصح لساناً وأقوى حجة وبياناً.

ويأتي موسى إلى فرعون وقومه، ويتكبر فرعون ويتجبر، ويقول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾.

ويقول لهامان وزيره:

﴿ فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا

أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

وهكذا تنتهي قصة فرعون بغرقه في مشاهد سريعة تشرحها آيات أخرى في سور أخرى من القرآن الكريم، حيث ترد قصة موسى ومجادلته لفرعون واجتماع السحرة، والآيات متتالية في سورة الأعراف وسورة يونس وسورة هود وسورة طه وسورة الشعراء وسورة غافر.

موسى يجادل الرب والرب يغضب على موسى حسب زعمهم:

وترد قصة موسى في التوراة في سفر الخروج منذ ولادته (الإصحاح الثاني) إلى قتله المصري وهربه من مصر إلى مدين وزواجه من صفُّورة ابنة يثرون كاهن مديان ـ مدين ـ. وفي الإصحاح الثالث من سفر الخروج «يظهر ملاك الرب بلهيب نار من وسط عليقة» وناداه الله من وسط العليقة وأعلن لموسى أنه سينقذ بني إسرائيل، وأمره أن يذهب إلى فرعون ليطلقهم، ولكن موسى يجادل الله في ذلك (الإصحاح الرابع) «فقال موسى للرب استمع أيها السيد لست أنا صاحب كلام منذ أمس ولا أول أمس من حين كلمت عبدك. بل أنا ثقيل الفم واللسان. فقال له الرب من صنع للإنسان فماً أو من يصنع أخرس أو أصمَّ أو بصيراً أو أعمى. أما هو أنا الرب. فالآن اذهب وأنا أكون معك وأعلمك ما تتكلم به. فقال ـ موسى ـ: استمع أيها السيد. أرسل بيد من ترسل. **فحمي غضب الرب على موسى**». (١٠ ـ ١٧).

إسرائيل الابن البكر للرب:

(سفر الخروج، الإصحاح ٤: ٢٢ ـ ٢٣):

«فتقول لفرعون هكذا يقول الرب: إسرائيل ابني البكر. فقلتُ لك أطلق ابني ليعبدني، فأبيت أن تطلقه ها أنا أقتل ابنك البكر».

زوجة موسى تخدع الرب وتحمي ابنها من غضبه:

(سفر الخروج، الإصحاح ٤: ٢٤ ـ ٢٦):

«وحدث في الطريق في المنزل أن الرب التقاه ـ أي التقى ابن موسى البكر ـ

وطلب أن يقتله فـأخذت صفُّـورة ــ امرأة مـوسى ــ صوّانـة وقطعت غُـرْلة ابنهـا ومست رجليه. فقالت ــ للرب ــ: إنك عريس دم لي. فانفك ــ الـرب ــ عنه. حينئـذ قالت: عريس دم من أجل الختان».

وهي صورة خرافية وضيعة وحقيرة حيث تصور الرب سبحانه وتعالى بصـورة بشر شديد الغضب، ينزل من السماء على هيئة بشر، ويجري خلف ابن موسى ليمسك به، لأن موسى أبى أن يذهب إلى فرعون خـوفاً وفرقاً، ولأنه لم يـذهب لإنقاذ الابن البكـر للرب، فإن الرب يعزمُ على قتل ابن موسى البكر!!..

ومع هذا فإن الرب عـاجز حتى عن قتـل هذا الغـلام الذي تستنقـذه منه صفـورة امرأة موسى وذلك بأن تختن الصبي وتمسح رجل الرب بدم الغلام فينفك عنه.

وهي صورة تجمع البلادة والوقاحة معاً. وتوضح إلى أي مدى انزلق بنو إسـرائيل في تصوراتهم الشوهاء عن رب العالمين، كما أنها توضح إلى أي مـدى حُرِّفت التـوراة بحيث لم يبق منهـا سوى بصيص من نـور لا يكاد يـرى من هذه الـظلمـات التي رانت عليها.

وتلصق التوراة المحرفة كل نقيصة بأنبياء الله وتصفهم بالكذب والجبن والخداع. وإذا تمكن أحـدهم من أعدائـه ظهـر بصـورة مجـرم يقتـل النسـاء والأطفـال والشيـوخ والعجزة، بل حتى البهائم يقتلها. كما تصور الأنبيـاء بأنهم فسقـة شاربـو خمر، زنـاة، حيث يتزوج إبراهيم من أخته سارة، ويـزني داود بجليلة جاره، ويـزني ابن داود بأختـه كما يزني يهوذا سبط يعقوب بزوجة ابنه، ويزني رأوبين أكبـر أبناء يعقـوب بسريـة أبيه، وتصور لوطاً وهو يزني بابنتيه!!.

وتصور الأنبياء بأنهم عباد للأوثان، وتدّعي أن هارون هو الذي صنع العجل لبني إسرائيل ودعاهم إلى عبادتـه، وأن هارون وأختـه مريم عـرّوا موسى وفضحـوه أمام بني إسرائيل، وأن سليمان عبد الأوثان وأقام لها المعابد مع زوجاته.

وسنستعرض كل ذلـك بتفصيل في حينـه. وما يهمنـا ها هنـا هو استعـراض قصة موسى كما وردت في القرآن والتوراة والاختلافات بينهما.

موسى يعاتب الرب ويقرعه، حسب زعمهم:

توضح التوراة أن موسى وهارون ذهبا لفرعون ليطلق بني إسرائيل ولكن فرعون أبى وزاد من عقوبة بني إسرائيل، فضجّ بنو إسرائيل مخاصمين لموسى وهارون. وذهب موسى إلى الرب ليعاتبه ويقرّعه قائلاً:

«يا سيد لماذا أسأتَ إلى هذا الشعب؟ لماذا أرسلتني؟ فإنه منذ دخلت إلى فرعون لأتكلم باسمك أساء إلى هذا الشعب. وأنت لم تخلص شعبك». (سفر الخروج الإصحاح ٥: ٢٢ ــ ٢٣.

الرب ينسى حسب زعم التوراة:

ويقول الرب لموسى: أنه قد أعطى العهد لإبراهيم وإسحاق ويعقوب، وأنه أعطاهم ووعدهم أرض كنعان ــ فلسطين ــ، وأنه سمع أنين بني إسرائيل وتذكر عهده الذي كان قد نسيه!!! لذلك سيقوم هو بإنقاذهم من يد فرعون. (سفر الخروج، الإصحاح ٦: ٣ ــ ٨).

موسى إلـه لهارون وهارون فم لموسى:

«وهو ــ أي هارون ــ يكون لك فماً وأنت تكون له إلـهاً. وتأخذ العصا التي تصنع بها الآيات». (سفر الخروج، الإصحاح ٤: ١٦ ــ ١٧).

موسى إلـه فرعون وهارون نبي لموسى:

«فقال الرب لموسى: انظر. أنا جعلتك إلـهاً لفرعون. وهارون أخوك يكون نبيّك. أنت تتكلم بكل ما آمرك. وهارون أخوك يكلم فرعون ليطلق بني إسرائيل» (سفر الخروج ٧: ١ ــ ٢).

العصا لهارون وليست لموسى!!

تتحول عصا موسى إلى حية تسعى في القرآن الكريم، وأما في التوراة فتتحول عصا هارون إلى ثعبان «وكلم الرب موسى وهارون قائلاً: «إذا كلمكما فرعون قائلاً هاتيا عجيبة، تقول لهارون: خذ عصاك واطرحها أمام فرعون فتصير ثعباناً». (سفر الخروج، الإصحاح ٧: ٩ ــ ١٠).

لا ذكر لإيمان السحرة في التوراة:

لا يرد أي ذكر لإيمان السحرة في التوراة بل إن ذكر السحرة في التوراة لا يجاوز سطراً واحداً. «فدعا فرعون أيضاً الحكماء والسحرة. ففعل عرّافو مصر أيضاً بسحرهم كذلك طرحوا كل واحد عصاه فصارت العصي ثعابين. ولكن عصا هارون ابتلعت عصيهم». (سفر الخروج، الإصحاح ٧: ١١ ــ ١٢).

فرعون يقول لموسى وهارون صليا من أجلي:

وتظهر الآيات تباعاً، يتحول النهر إلى دم، ويموت السمك في النهر وينتن، ثم الضفادع، ثم البعوض، وها هنا يوافق فرعون أن يذهب بنو إسرائيل ليذبحوا قرابينهم ويقول موسى: لا بد أن نذهب في سفر ثلاثة أيام ونذبح في البرية لإلهنا. «فقال فرعون: أنا أطلقكم لتذبحوا للرب إلهكم في البرية ولكن لا تذهبوا بعيداً. صليا لأجلي فقال موسى: ها أنا أخرج من لدنك وأصلّي إلى الرب». (الخروج ٨: ٢٥ ــ ٣٠).

فرعون يعترف بخطئه ويكرر طلبه بأن يصلي موسى وهارون من أجله:

ثم يميت الرب كل بهائم المصريين ويترك بهائم بني إسرائيل سليمة. ثم تظهر الدمامل على الناس والبهائم. «فأرسل فرعون ودعا موسى وهارون وقال لهما: أخطأت هذه المرة. الرب هو البار وأنا وشعبي الأشرار. صليا إلى الرب». (سفر الخروج ٩: ٢٧ ــ ٢٨).

وتتابع الآيات البرد، الرعود، ونار متواصلة في وسط البرد. وضرب البرد جميع ما في الحقل من الناس والبهائم، إلا أرض جاسان ــ منطقة في مصر ــ حيث كان بنو إسرائيل فلك يكن فيها برد. (سفر الخروج، الإصحاح ٩: ٢٢ ــ ٢٦). ثم يأتي الجراد فيغطي وجه الأرض ويأكل جميع الشجر النابت من الحقل. (سفر الخروج، الإصحاح ١٠: ٣ ــ ٧).

وقال عبيد فرعون: أطلق الرجال ليعبدوا الربَّ إلههم. ولكن موسى أصر على أن يذهب جميع الشعب بما في ذلك النساء والأطفال. وقال فرعون لموسى وهارون: «يكون الرب معكم».

وعـاد فرعـون ونكث عهده، ثم جـاءت ظلمة شـديدة على أرض مصـر، ورفض فرعون أن يطلق بني إسرائيل كما وعد.

الرب يأمر بني إسرائيل بأن يحتالوا على المصريين ويأخذوا حليهم:

وجاء في الإصحاح الحادي عشر من سفر الخروج (١ ــ ٣) أن الرب أمر مـوسى أن يتكلم في مسامع الشعب ــ أي بني إسرائيل ــ ويـطلب كل رجـل من صاحبـه وكل امرأة من صاحبتها أمتعة فضـة وأمتعة ذهب ــ عـارية ليلبسـوها في عيـدهم ــ . وأعطى الـرب نعمة للشعب في عيـون المصريين. وأيضـاً الرجـل موسى كـان عظيمـاً جداً في أرض مصر في عيون عبيـد فرعـون وعيون الشعب». «وأعـطى الرب نعمـة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم فسلبوهم».

ويخبر الربُ موسى بأنـه سينزل في منتصف الليـل إلى أرض مصر، ويميت كـل بكر في أرض مصر من بكر فرعـون الجالس على كـرسيه إلى بكـر الجاريـة التي خلف الرحى، وكل بكر بهيمة، ويكون صراخ عظيم في كل أرض مصر. ولكن الرب يحمي بني إسرائيل شعبه المختار. (الإصحاح ١١ من سفر الخروج: ٤ ــ ٨).

الاختلاف في عدد الآيات لفرعون وقومه:

يذكر القرآن الكريم أن الآيات التي أتى بها موسى عليه السلام كانت تسعاً. قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾. (الإسـراء: ١٠١ ــ ١٠٢).

وجاء تفصيل ذكـر هذه الآيـات في سورة الأعـراف حيث ذكر المـولى آية العصـا واليد والسنين ونقص الثمرات.

﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا

مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾. (الأعراف: ١٣٢ ـ ١٣٥).

ولا نجد في القرآن الكريم ذكراً للبعوض والأورام الجلدية والبرد والظلمات وموت كل بكر من البشر والأنعام التي تصفها التوراة.

وليست هذه على أي حال من الفروق الجوهرية التي أوضحنا بعضاً منها ـ وسيأتي ذكر الأخرى فيما بعد ـ والغريب حقاً قول موريس بوكاي ـ بعد إسلامه ـ في كتابه القرآن والتوراة والإنجيل والعلم ص ٢٥٠ إن آيات موسى هي من السحر. حيث يقول ما نصه: (ويثبت موسى لفرعون بالسحر أن له قوى خارقة فوق الطبيعة).. وهو أمر يناقض الإيمان بالنسبة للمسلم.

* * *

حوادث وشخصيات في حياة موسى
وردت في القرآن ولم ترد في التوراة

(١) امرأة فرعون:

إن الموقف النبيل والشجاع الذي وقفته امرأة فرعون في حماية موسى الرضيع من بطش فرعون وهي تقول:

﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾. (القصص: ٩).

يوضح إلى أي مدى كان قلب تلك المرأة النقية الزكية عامراً بالخير والحب. ودافعت تلك المرأة عن موسى عندما كان طفلاً كما جاء في الأثر، وقالت: إنه طفل لا يفهم ما يقول ولا يميز. فاقترح فرعون أن يعطي الطفل موسى جمرة وتمرة فإن ميز بينهما قتله، وحمى الله الطفل فوضع الجمرة في لسانه فصار ألثغاً منذ ذلك اليوم.. ولذا طلب موسى من ربه أن يرسل معه هارون لأنه أفصح منه لساناً.

وآمنت تلك المرأة الطاهرة ــ التي كانت لموسى أماً ثانية ــ بموسى وبرسالته وبالله الواحد الأحد. ويذكر لنا القرآن الكريم هذه المرأة ويقرنها بمريم بنت عمران عليها السلام، ويجعلهما مثلاً للذين آمنوا. قال تعالى:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٢﴾﴾. (التحريم: ١١ ــ ١٢).

ولا يذكر القرآن الكريم اسمها ولكن الرسول صلوات الله وسلامه عليه يذكر أن سيدات نساء العالمين أربع، كل واحدة منهن سيدة نساء زمانها: آسيا امرأة فرعون ومريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة البتول بنت محمد صلى الله عليه وسلم..

وفي الأثر أن آسيا قاومت بطش فرعون بقوم موسى واعترضت عليه، فغضب عليها فرعون وعرف أنها قد آمنت بموسى فعذبها وقتلها.

مؤمن آل فرعون:

لا يرد أي ذكر في التوراة المحرفة لمؤمن آل فرعون الذي لا يخبرنا القرآن الكريم عن اسمه ولكنه يخبرنا عن أفعاله وأقواله ومجادلته ومحاجته لفرعون..

وأول ما يظهر من ملامح هذا الرجل الفذ العجيب المؤمن الصادق هو سعيه من أقصا المدينة ليخبر موسى عليه السلام بأن الملأ يأتمرون به ليقتلوه وينصحه بالخروج من أرض مصر. وذلك بعد أن وكز موسى أحد رجال فرعون وهو يختصم مع إسرائيلي فقضى عليه.

قال تعالى:

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾. (القصص: ٢٠).

ثم يقص الله علينا موقف هذا الرجل الشجاع الحكيم المؤمن وهو يجادل فرعون وكبار رجال حاشيته في سورة كاملة هي سورة غافر التي تسمى أيضاً سورة المؤمن..

وتبدأ صورة الرجل الوضيئة عندما يقول فرعون لحاشيته:

﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾.

فيرد عليه الرجل المؤمن الحصيف:

﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾.

ــ كعادة المتجبرين الطغاة حيث لا يقبلون أي مناقشة ــ . ولكن الرجل المؤمن يواصل حديثه:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾.

ويواصل الرجل المؤمن حواره الهادىء ودعوته الرصينة ويذكرهم بما فعل الله بالأقوام السابقة التي طغت وتجبرت وكيف أهلكها الله تعالى... ويستمز في ذلك حتى يصرح في نهاية المحاجة بإيمانه:

﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾. (غافر: ٤١ ــ ٤٦).

(٣) قصة قارون:

لا يرد ذكر في التوراة التي بين أيدينا عن قارون. وإن كانت هناك قصة قريبة إلى

حد ما من قصته في النهاية المفجعة، وهي ابتلاع الأرض له ولمن معه. وهي قصة قارح بن يصهار الذي يثور على موسى عليه السلام ويرفض علانية نبوته ويتهمه بالكذب على الله. فيدعو موسى ربه فيخسف الله الأرض بقورح بن يصهار ومن معه أمام بني إسرائيل. (سفر العدد، الإصحاح ١٦).

وتختلف قصة قارون في كل تفاصيلها عن قصة قارح ما عدا النهاية المرعبة المخيفة. لقد كان قارون من قوم موسى فبغى عليهم بسبب الأموال الكثيرة الوفيرة التي جمعها والتحق بقوم فرعون وأنكر صلته بقومه بني إسرائيل.

وتأتي قصة قارون في القرآن الكريم في سورة القصص بعد المشاهد المتتالية من قصة مولد موسى عيه السلام، ثم نشأته في القصر، ثم نصرته لأحد بني إسرائيل وهو يختصم مع مصري من قوم فرعون، وقتله للمصري بضربة واحدة، وافتضاح أمره، وفراره إلى مدين وتزوجه من ابنة يثرون كاهن مدين، وعودته بأهله وكلام الله له، وإرساله إلى فرعون، والآيات التي معه، واستكبار فرعون ونهايته وقومه غرقاً في اليم.

ويبدأ السياق القرآني هكذا:

﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ـ المختالين المتكبرين ـ . ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ